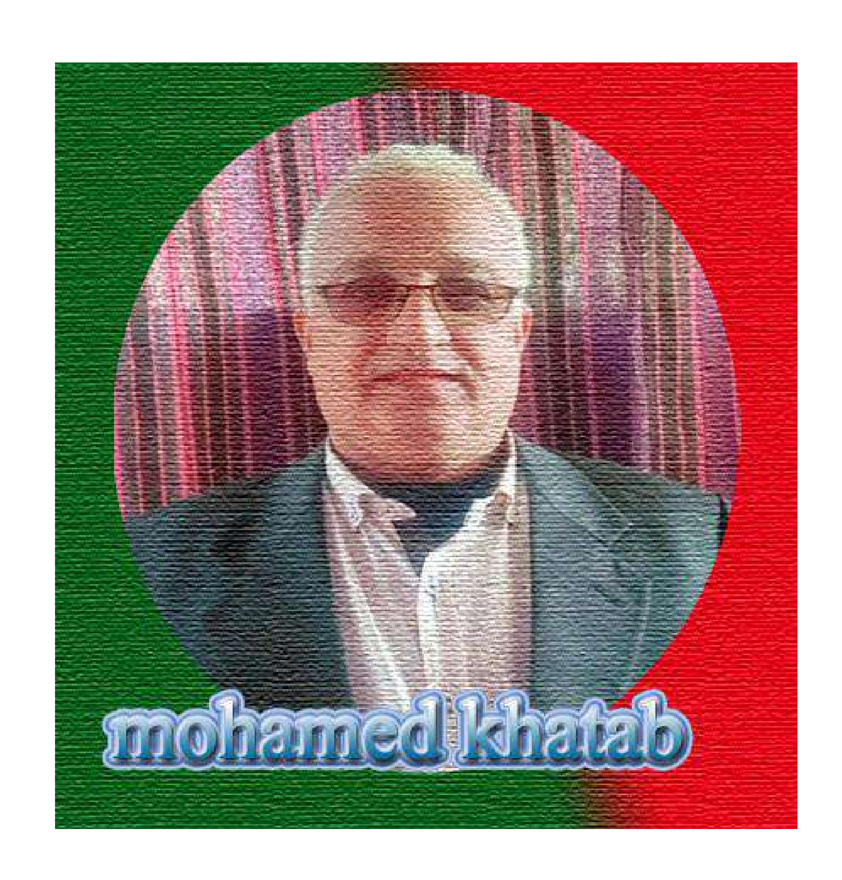
رواية

سيلڤيا بلاث

الجرس الزجاجي

ترجمة
دعاء النوى

الجرَسُ الزُجَاجِيّ



الجرس الزجاجي

سيلفيا بلاث

ترجمة: دعاء النوى

The Bell Jar

By Silvia Plath

Translated by Doaa Al Nawa

الطبعة الأولى: مارس - آذار، 2020 (1000 نسخة)

بيروت - لبنان

تم تحويل هذا الكتاب بدعم من مبادرة **أضواء على حقوق النشر** التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 التابع لمركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب.



لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+
بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
دار الرافدين@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 623 - 87 - 0

رواية

سيلفيا بلاث

الجرَسُ الزُجَاجِيّ

ترجمة:

دعاء النوى


www.daralrafidain.com

الفهرس

المقدمة

تدور أحداث رواية (الجرس الزجاجي) حول شاعرةٍ جامعيّة تحاولُ إنهاءَ حياتِها، وقد كُتِبَت الروايةُ بيدِ شاعرةٍ أنهت حياتَها بالفعل. نُشِرَ الكتابُ للمرةِ الأولى في عام 1963 تحت اسمٍ مستعارٍ عن دار - هاربر ورو - في إنكلترا، قبل شهرٍ من انتحار الكاتبة.

لم تُنشَرَ الروايةُ في الولايات المتحدة إلاَّ بعد مرورِ عَقْدٍ كاملٍ على عامِ إصدارِها الأولِ، ونُشِرَت بطبعتها الثانية عام 1966 في إنكلترا حاملةً اسمَ الكاتبةِ الحقيقيِّ. أُضيفَ للطبعة الحديثة بعضُ صفحاتٍ تحكي لمحاتٍ من حياةِ بلاث وسيرتِها الذاتية، تُوضِّح تلك اللمحاتُ التشابهَ الموجود بين قصة الشخصية الرئيسة وحياة سيلفيا بلاث نفسَها في العشرين من عمرها.

لا يمكنُ لقراءتنا للرواية أنْ تتمَ بموضوعيةٍ تماماً، ولا لوم علينا في ذلك، لأنَّ «الجرس الزجاجيّ» قصةٌ خياليةٌ تُجبرنا على قراءتها كسيرةٍ ذاتيةٍ إذا نظرنا إلى مصير كاتبتها بعين الإعتبار.

أحداث القصة

تبدأُ القصةُ بأحداثٍ منذرةٍ بالشؤمِ في مدينة نيويورك، وتصبحُ أشدَ إظلاماً بشكلٍ تدريجيٍّ بالانتقال لولاية ماستشوستس، وتنزلقُ أخيراً ببطءٍ في نهايتها، نحو الجنون.

الشخصيةُ الرئيسيةُ - إيستر غرين - واحدةٌ من عددٍ من الفتياتِ اللاتي انتقلنْ للعيش في مدينة نيويورك لشهرٍ واحدٍ؛ للعمل بالتحرير لدى مجلة أزياء. تنحدرُ إيستر من عائلةٍ مهاجرةٍ من ألمانيا وتسكنُ ضواحي مدينة نيو - إنكلاند، وقد تجاوزت خمسَ عشرة سنةً من الدراسة بتفوقٍ،

ووجدت نفسَها موعودة بطالبِ طبٍ مملٍ لكنه وسيمٌ - بادي ويلارد - ويأملُ بأنْ يصبحَ شاعراً يوماً ما.

إيستر فتاةٌ لا تعرف ماذا تطلبُ في مطاعمِ نيويورك ولا تعلمُ ما قد تكونُ الأجرةُ المتوقعةُ لسائقِ التاكسيّ. لكنَّها تكتبُ أطروحةً دراسيةً عن الصورِ المتوائمةِ في رواية «Finnegan's wake»، وهي روايةٌ لم ولن تنهي قراءتها.

تبدو مخيلةُ إيستر في حربٍ دائمةٍ ضدَ مبادئ المدينةِ الصغيرةِ القادمةِ منها، والصورةِ المُزيَّفةِ للمدينةِ الكبيرةِ التي وصلتها مؤخراً. وتَجدُ أنَّه من الصعب أنْ تكونَ نسخةً من جيشِ الفتياتِ اللاتي يدرسن لقضاءِ الوقتِ لا أكثر، حتى يحينَ موعدُ زواجهنَّ الذي لابُدَّ منه.

تبدو أزمةُ الهويةِ والجنسانيةِ والبقاءِ على قيد الحياة مُحبِطةً أحياناً ومَرِحةً أحياناً أخرى. ويُميّزُ الحزن غير المبرر والذكاء والفطنة إيستر عن باقي زميلاتها. كونها باحثةٌ عن الحقيقة بطبيعتها، تلجأ للتهكم كسلاحٍ للحكم على نفسها. فهي ترى نفسَها غيرَ قادرةٍ على افتعالِ المشاعرِ أو تقليدِها، وهذا يجعلُ منها شخصاً مختلفاً وغيرَ مكتملٍ.

تَكبُرُ الهُوَّةُ بين إيسترَ والعالمِ من حولها بشكلٍ تدريجيٍّ. يبدو ذلك جلياً في أقوالها:

«لم أستطع افتعالَ أيّ رَدّةِ فعلٍ. شعرتُ بالجمودِ والفراغِ»

«يُشعَرُني الصمتُ بالكآبةِ. ليس الصمتُ نفسَه، بل صمتي أنا»

«ذاك الصباح، حاولتُ شنقَ نفسي»

الزيفُ والمرضُ يترافقان خلال أحداثِ الروايةِ. حتى أنَّ المرضَ يوجدُ أحياناً ليرفعَ أو يحطمَ زيفاً معيناً.

هناك أيضاً شخصية الفتاةِ المُدلَّلةِ - دورين - المُعجَبةِ بإيسترَ. والتي تبدأُ بالانخراط في الشرب حتى الثمالة. حتى نراها في مشهدٍ تستلقي، ورأسُها في قيئها بعد أنْ ثَمِلَت، في ممرٍ فندقيٍّ. وهو مشهدٌ مُنفِّرٌ لكنَّه بالغَ الأهميةِ. ويَتبعُ ذلك إصابتُها بتَسمّمٍ غذائيٍّ خلال حفلةٍ للأزياءِ.

يُصابُ - بادي - بمرضِ السُّلِ ويَضطَّرُ للمكوثِ في مصحةٍ للعلاجِ. بينما تذهبُ إيسترُ نفسَها لزيارتِه وتُصابُ بكسرٍ في ساقها في رحلةِ تزلجٍ. وتُصابُ بنزيفٍ في مشهدٍ آخرَ حين تمارسُ الجنسَ لأولِ مرةٍ مع أستاذِ رياضياتٍ شابٍ، فتأخذُها صديقتُها مثليةُ الجنسِ إلى المستشفى. وبعد ذلك تكتشفُ إيسترُ أنَّ تلك الصديقةَ قد قتلت نفسَها شنقاً.

يُعتبَرُ قَصُّ أحداثِ الروايةِ ببساطةٍ، دون إيجادِ توازنٍ بين اليأسِ الحقيقيِّ والكوميديا السوداءِ، مسألةً غريبةً وجديرةً بالضحكِ. فالعناصرُ الأساسيةُ للروايةِ هو المرضُ والفضائحُ.

في آخرِ ليلةٍ تقضيها إيسترُ في نيويورك تصعدُ إلى سطحِ الفندقِ. وتبدأُ برمي كل ما تملكه من أغراضٍ في الفضاء، قطعةً قطعةً. وفي نهاية الرواية نرى أنها قد حاولت إنهاءَ حياتِها، لكنَّها تمنحُ لها مرةً أُخرى عبر تعريةٍ أخرى تتمثَّلُ في العلاج النفسي.

العناصرُ الأخرى المهمةُ للروايةِ هي الألمُ والصورُ المُزعِجةُ. حيث يظهران بشكلٍ موضوعيٍّ يبدو مرحاً أحياناً وناقداً للذات.

نَقدُ الروايةِ

الثلثُ الأولُ من الروايةِ يبدو لاذعاً بطريقةٍ ما، كما لو كنتَ تقرأُ نسخةً ساخرةً من روايةِ «الفطورُ لدى تيفاني». لكنَّه يُغوي القارئَ حتى يصلَ به إلى عرينِ الأسدِ، وهي تلك الغرفةُ المُعقَّمةُ في قبوِ المستشفى، حيث يقبعُ الكرسيُّ الكهربائيُّ الذي يُستخدَمُ للعلاجِ بالصدماتِ، في انتظارِ مرضاه المرعوبين. تُعامِلُ المعاناة الجسدية في الروايةِ بعفويةٍ، تَقترحُ عدم شعورِ إيسترَ بالتعاطفِ منذُ البدايةِ، سواءً التعاطفِ مع نفسِها أو مع الآخرين. ورغم وعيها التامِ بحقيقةِ المشاعرِ المُتضادةِ، إلاَّ أنَّها تَبقى مُتضادةً دون مشاعرَ. كما لو أنَّها تعيشُ بالقربِ من وترٍ حساسٍ لكنَّها لا تتصلُ به. أو أنَّ طبقةً زجاجيةً رقيقةً تفصلُها عن الآخرين.

إن عنوانَ الروايةِ نفسَه مُستنبَطٌ من فكرةِ عدم الاتصالِ بالعالمِ. حيثُ يُشارُ لانطواءِ عقلِ المصابِ بالمرض النفسي داخلَ ناقوسٍ زجاجيٍّ يَخنقُه.

تجدُ إيسترُ نفسَها مُمزَّقةً بين حياتين - حياةِ الأم والحبيبة، وحياةِ الشاعرة - ولا تبدو أيٌّ منهما حقيقة بالنسبة لها. وبذلك لا تملكُ حياةً ترغبُ بها. وخوفاً من تشويهِ الشخصِ الذي ستصبحُ

عليه مستقبلاً، تقودُ نفسَها لأنْ تصبحَ التشوهَ بذاتِه، أي تصبحُ لا شيء.

بينما تتعمقُ إيسترُ بالاكتئابِ، يبدو العالمُ سلسلةً من الأصداءِ الخاطئةِ. فيَحملُ وجهُ والدتِها اتهاماً دائماً. وتسببُ أصواتُ الأطفالِ في الخارج إزعاجاً مُلّحاً. وتصبحُ تدريجياً مهووسةً بفكرةِ الانتحارِ.

أحدُ أهمِ إنجازاتِ الروايةِ هو جَعلُ الفروقِ واضحةً وحقيقيةً بين وجهةِ نظرِ الشخصيةِ المضطربةِ والاضطرابِ المتأصِّلِ بكلِ ما تراه حولها. قد تساهمُ الأفكارُ التقليديةُ بجنونِ إيسترَ لكنَّها لا تخسرُ وعيها بالاعتقادِ غيرِ العقلانيِّ.

إعلان

فعند انتقالِها لقسمٍ من المستشفى مُخصَّص لأولئكَ الذين على وشكِ العودةِ للعالمِ تتساءلُ موضحةً الربطَ بين الفكرتين:

ما الفرقُ بيننا نحن القابعين في هذا القسمِ وبين تلك الفتياتِ اللاتي يَلعبنْ ويَتحدثنْ ويَدرُسنْ في الجامعةِ التي سأعودُ إليها؟ إنَّنا جميعاً نعيشُ حبيسي ناقوسٍ زجاجيٍّ من نوعٍ ما.

تصبحُ مصطلحاتٌ من قبيلِ «مجنونٍ» و«مخبولٍ» غيرَ ملائمةٍ بينما تتسارعُ أحداثُ الروايةِ. إنَّ إيسترَ ولا شكَ مريضةٌ نفسيةٌ. لكن بمرورِ الوقتِ نفهمُ ما قادها لأنْ تصبحَ مريضةً نفسيةً. وبذلك لا يُعدُّ مصطلحُ المرضِ النفسيِّ مهماً بقدرِ تعريفِه.

رؤيةُ الروايةِ في الانتحارِ

قد تبدو الروايةُ على وفاقٍ مع نظرياتِ المحللِ الاسكتلندي - ر.د. لاينغ - لأنَّها مكتوبةٌ من وجهةِ نظرِ الشخصِ المضطربِ نفسَه، وليس شخصاً آخرَ يَطَّلعُ على حياتِه. هناك استمراريةٌ للمرضِ النفسيِّ، فهو لا يحدثُ فجأةً، بل يبدو كعمليةٍ تدريجيةٍ.

كما يَظهرُ الانتحارُ كصراعٍ لا يُقاوَمُ بين الخوفِ والشعورِ بالذنبِ. أو لعبةٍ يُدمِنُها المرءُ كما يُدمِنُ الكحولَ والمخدراتِ. أي أنَّها تجريبيةٌ في البدءِ - قليلٌ من الدمِ أو الاختناقِ ليرى الشخصُ ما سيكونُ عليه الانتحارَ حين تنفيذِه - لكنَّها تتحولُ بسرعةٍ لرغبةٍ عميقةٍ بتدميرِ الذاتِ.

في الوقتِ الذي تصلُ فيه إيسترُ للمكانِ الضيقِ في الخزانةِ وتبتلعُ مجموعةً من الحبوبِ المُنوِّمةِ - أي في الوقت الذي نواجهُ به حقيقةَ الأمرِ - يبدو الحدثُ نتيجةً طبيعيةً وليس غريباً. وعندما يحينُ وقتُ مغادرتِها المستشفى بعد سلسلةٍ من العلاجِ الطويل، يُخبرُها الطبيبُ أنَّ عليها التفكيرَ بانهيارِها كمجردِ حلمٍ سيءٍ. فتُفكِّرُ بينما تستعدُ للطريقِ القادمِ.

العالمُ كلَّه مجردُ حُلمٍ سيءٍ بالنسبةِ لأسيرِ الجرس الزجاجيِّ كطفلٍ ميتٍ.

هذا الطفلُ واحدٌ من العديدِ من أشباهه ممَّن يظهرون على صفحاتِ المجلاتِ، ويجلسون مُشوَّهين في نواقيسَ زجاجيةٍ على رفِّ عرضٍ في المستشفى. كالطفلِ الذي بدا بانتظارها في نهاية رحلة التزحلق حين يقعُ الحادثُ.

تَشهدُ أحداثُ الروايةِ ولادةً من نوعٍ آخرَ.

فبدل الأطروحةِ التي لا تكملها يمكنُ كتابةُ أطروحةٍ عن الأطفال المشوَّهين في القصةِ. حين تجلسُ إيسترُ في مشهدٍ في عيادةٍ للأمراضِ النسائيةِ ترى امرأةً تُداعبُ طفلَها. فتتساءلُ عن سببِ عدم قدرتِها على الوصولِ لهذه السعادةِ البسيطةِ، وسببِ انسلاخِها عن الأدوارِ الاجتماعية والطبيعية المرسومة لها. إنَّ إيسترَ لا ترغبُ بإنجابِ طفلٍ. بل تشعرُ بأنَّها طفلٌ بحاجةٍ لأنْ يحقِّقَ ذاتَه. والأطفالُ بالنسبة لها صورةٌ للسجنِ. بينما الجنسُ طُعمٌ يقودُ للأَسرِ. لكنَّها في الوقت نفسه تُدركُ أنَّهم الحياةُ بذاتِها. وإنْ لم تكنْ الحياةَ التي ترغبُ بها لنفسِها، إنْ كانت ترغبُ بحياةٍ أصلاً.

إنَّ الشخصيةَ أسيرةٌ بين جنينين متوحشين على ذاتِ رفِ العرضِ في المستشفى. ويتمثَّلُ أسرُها بالحمل الذي يبدو دائماً لجارتها - دودو كونواي - التي تَظهرُ دافعةً عربةَ طفلِها في كلِ مرةٍ كما لو أنَّها نموذجُ فرقةٍ إغريقيةٍ.

يُغوي الأطفالُ إيسترَ بالانتحار، عبر إغوائهم لها بالحياة التي لا ترغبُ بها. فيبدو لها أنَّ أمامها خيارين لا ثالثَ لهما، إمّا الإيمانُ بالحياة التي لم تُولَدَ بعدُ أو الولاءُ للموت.

تبدو الحياةُ واضحةً وحاضرةً أخيراً حين تَمسكُ بزمامِ الأمورِ بنفسها. فيما عدا الاستثناءَ الوحيدَ المتمثّلَ بإعجابِ الطبيبِ بها، والذي لا يبدو مهماً. فالحب في الرواية إما غائبٌ أو لا يُدرَكُ.

أما العاطفةُ الأبرزُ فيها فهو القرف الذي لم يتحول بعدُ لازدراءٍ تامٍ - وهنا تكمنُ قدرتُه على الدمار –.

مجموعةُ سيلفيا بلاث الشعرية «Ariel»

بين الطبعتين الأولى والثانية نُشِرَت مجموعةُ سيلفيا بلاث الشعرية «Ariel». وكانت قد ظهرت بعض قصائدها في المجلات لكن أحداً لم يكن مُهيَّئاً بَعدُ لتأثيرها. حيث بدت التجارب القاتلة للعقل والجسد باردةً ومكشوفةً.

بدا واضحاً بعد الطبعة الثانية أنَّ الكاتبةَ البارعةَ كانت في الواقعِ عبقريةً لم يُصادِفَ العالمُ مثيلاً لموهبتها من قبل. رغم أنَّ القيمةَ الاستثنائيةَ لقصائدها جعلت من موتها أكثر إثارة للأسى. كما لو أنَّ الموتَ قد منح عملَها قيمةً إضافيةً لم يكن ليحظى بها لو عاشت.

لا يمكنُ للموتِ أن يُغيّرَ الكلماتِ التي طُبِعَت بالفعل. لكن بهذه الحالة بدا أنَّ ما كانت عليه الكاتبةُ وما خسره العالم واضحاً في الوقت عينه. كما لو أنَّ العالمَ قد مُنِحَ قصائدها وخسرها في اللحظة ذاتها. فتبع ذلك خلودٌ فوريٌّ لها.

أصبحت سيلفيا بلاث نموذجاً أدبيّاً للكثيرين. فهي بطلةٌ ذاتُ تناقضاتٍ بينةٍ. وقد واجهت الأشياءَ المرعبةَ وصنعت منها عملاً متميزاً رغم أنَّ الأشياءَ قد دمرتها بدورها. لا أعتقدُ أن مصطلح - الافتتان المرضيّ - يكفي لوصف ما تُمثِّله سيلفيا بلاث. فقد هدّدت طاقةَ وعنفَ قصائدها الأخيرة بشيءٍ قامت به الشاعرةُ بالفعل. ونالَ عملُها مكانتَه الحقيقيةَ. عادةً ما تكون الصلة بين الحياة والفن مجازيةً. لكن السخرية التراجيدية أنَّ في عالمٍ يكذبُ به الجميعُ لم تتعامل سيلفيا بلاث إلاَّ مع الحقيقة. في الفن وفي الحياة حين أنهت حياتها.

تفتقد الروايةُ لتألقٍ ظهرَ جليّاً في القصائد الأخيرة. حيث أنَّها تحتوي لمسةً طفوليةً تخونُ قلمَ الكاتبةِ الناضجةِ.

الخلاصةُ

إنَّها روايةٌ مُفزِعةٌ وإنْ انتهت بشيءٍ من التفاؤل. فبالنسبة للعمل الخياليّ والحياةِ الحقيقيةِ يكمنُ الفزعُ في غير النهاية. حيث أنَّنا نشاركُ إيسترَ كلَ المشاعر التي تقودُها لانهيارِها. لكنَّنا لا

نتبصرُ فكرةَ الانتحارِ نفسَه. وربما هذا السبب الذي يجعلُها ذاتَ طابعٍ سلطويٍّ.

بقراءةِ «الجرس الزجاجيِّ» نجدُ أنفسَنا في مواجهةٍ حيّةٍ للكابوسِ نفسَه، وليس شرحَه أوتفسيرَه.

هاورد موس

صحيفة النيويوركر/1971

(1)

كان صيفاً غريباً وشديد الحرارة، ذلك الصيف الذي تم فيه إعدام آل روزنبيرغ[1] صعقاً بالكهرباء. لم أكن أعرف السبب الذي جعلني أقيم في نيويورك ذلك الوقت. لطالما كنت أشعر بالغباء فيما يتعلق بعمليات الإعدام، فقد كانت فكرة الموت صعقاً بالكهرباء لوحدها مثيرة للغثيان بالنسبة لي. وكل ما يتعلق بتفاصيل هذه الحادثة كان يترصدني في الجرائد - كانت العناوين الرئيسية تحدق بعيونها الجاحظة في كل زاوية من زوايا الشارع، وفي كل مداخل مترو الأنفاق التي تفوح بالرائحة العفنة للفول السوداني. لم تكن لي علاقة بالحادث، ولكن جميع تساؤلاتي لم تسعفني في الإجابة عما سيكون عليه حال المرء وهو يحرق حياً حتى آخر أعصابه.

أعتقد أن هذا أسوأ ما قد يحصل للإنسان في هذا العالم.

كانت نيويورك مدينة سيئة بما فيه الكفاية. فعندما تحل الساعة التاسعة صباحاً، يبدأ الإنتعاش الزائف لهواء المدينة المشبع بالرطوبة بالتلاشي، بعد أن تسلل من الليل بطريقة ما، مثل نهاية حلم سعيد، وتبدو شوارعها رمادية اللون وهي ملتفحة بحرارة الشمس كالسراب حتى أعمق قيعانها المصنوعة من الإسفلت. وتصدر أسقف السيارات المتوهجة صوتاً أشبه بالأزيز، وتتطاير ذرات الغبار الرمادي الجاف إلى عيني إلى أن يستقر مذاقها في فمي.

كنت أستمع إلى أخبار آل روزنبيرغ بصورة مستمرة عبر المذياع، أو في مقر عملي، حتى فقدت القدرة على إخراجهم من عقلي. تماماً كما حصل معي عندما شاهدت جثة ممدة لشخص مجهول الهوية للمرة الأولى. لأسابيع لاحقة، كان رأس الجثة (أو ما تبقى منه) يطفو وراء طبق البيض واللحم المقدد على مائدة إفطاري، وخلف وجه (بدي ويلارد) الذي كان مسؤولاً عن مشاهدتي لهذا المنظر في المقام الأول، وسرعان ما بدأت أشعر بأنني أحمل رأس تلك الجثة معي

أينما حللت، مقيدة بسلسلة، مثل منطاد أسود فقد إحساسه بأنفه بسبب رائحة الخل الكريهة التي تنبعث منه.

كنت على يقين بوجود شيء خاطىء يتعلق بذلك الصيف، لأن كل ما كنت أفكر به هو آل روزنبيرغ، ومدى الغباء الذي كنت أتحلى به عندما قمت بشراء كل تلك الملابس غير المريحة وباهظة الثمن، والتي أجدها الآن تتماوج مثل الأسماك في خزانتي، وكيف أن جميع إنجازاتي الصغيرة التي حققتها بسعادة بالغة خلال دراستي في الجامعة، قد ضاعت سدى، هناك في الخارج، حيث الرخام البارد والواجهات الزجاجية الممتدة حتى نهاية شارع ماديسون.

كان يجدر بي أن أعيش أفضل سنوات حياتي.

وكان يجدر بي أن أثير حسد آلاف الطالبات الجامعيات من مثيلاتي في كل أنحاء الولايات الأمريكية اللواتي لم تكن لهن رغبة سوى أن يمشين بخفة بنفس مقاسات الأحذية الصغيرة المصنوعة من الجلد الفاخر، التي كنت قد اشتريت بعضاً منها في إحدى إستراحات الغداء، من متجر بلوومنغدييل، ونسقت معها حزاماً جلدياً أسود ومحفظة سوداء من النوعية الفاخرة. وعندما ظهرت صورتي في إحدى المجلات التي كنت أعمل فيها مع اثني عشر شخصاً - كنت أحتسي المارتيني مرتدية فستاناً رمادياً من الحرير المقلّد يطوقه شال حريري طويل يغطي صدري، تحت سقف مرصع بالنجوم، برفقة عدد من الرجال المجهولين، أصحاب الأجساد الأمريكية التي تم إستعارتها أو بالإحرى تأجيرها خصيصاً لهذه المناسبة - ظنّ الجميع وقتها بأنني كنت أعيش إثارة حقيقية.

كأنني أسمعهم وهم يقولون: (انظروا ماذا حل بهذه البلاد. فتاة عاشت في بلدة نائية لمدة تسعة عشرة سنة، عاشت فقيرة لدرجة أنها لم تكن تستطيع أن تشتري مجلة، ثم تحصل على منحة جامعية، وتفوز بعدة جوائز، هنا وهناك، وينتهي بها المطاف وهي تقود نيويورك، كما لو كانت تقود سيارتها الخاصة).

غير أنني لم أتمكن من قيادة أي شيء، ولا حتى قيادة نفسي، كنت أتخبط في طريقي من الفندق إلى العمل ثم إلى الحفلات، ومن الحفلات إلى الفندق، ثم أعود إلى العمل مرة أخرى، مثل باص كهربائي مخدر الحركة. أعتقد بأنه كان ينبغي عليّ أن أشعر بالإثارة مثل بقية الفتيات، ولكنني

كنت عاجزة عن التفاعل مع كل ذلك. كنت أشعر بأنني باردة للغاية، وخاوية تماماً، مثلما يتحتم على دوامة الإعصار أن تشعر وهي تستمر بالدوران وسط كل تلك الجلبة التي تحيط بها.

كانت هناك اثنتا عشرة فتاة تقيم معي في نفس الفندق.

لقد فزنا جميعاً في مسابقة نظمتها إحدى مجلات الموضة، عن طريق كتابة مقالات وقصص وقصائد ومنشورات دعائية للموضة. وكمكافأة على ذلك حظينا بفرص عمل مدفوعة التكاليف في نيويورك لمدة شهر. وَوفروا لنا العديد من المكافآت المجانية مثل تذاكر لحضور حفلات الباليه وعروض الأزياء وخدمات تصفيف الشعر في أشهر وأغلى صالون في نيويورك. وحظينا بفرص لمقابلة شخصيات ناجحة في المجال الذي كنا نحلم بالعمل فيه.

لا تزال لدي مجموعة المكياج التي أهدوني إياها، كانت من النوع المخصص لذوات العيون الداكنة والشعر البني: علبة مستطيلة من الماسكارا السوداء مصحوبة بفرشاة صغيرة للغاية، ولوح مستدير من مسحوق أزرق مخصص لتلوين الأجفان، كان حجمه كبيراً بما يكفي لينغمس طرف الإصبع في داخله. وثلاثة أصابع لأحمر الشفاه تتدرج ألوانها من الأحمر إلى الوردي، كانت جميعها مرتبة في صندوق صغير مطلي بالذهب ومجهز بمرآة صغيرة في إحدى جوانبه. كما أنني ما زلت أحتفظ بعلبة نظارات شمسية مصنوعة من البلاستيك الأبيض، مرصعة بالأصداف الملونة والترتر اللماع، ويوجد عليها قنديل بلاستيكي أخضر تمت خياطته بعناية.

أدركت بأننا كنا نواصل الإحتفاظ بكل ذلك الكم من الهدايا، لمجرد أنها كانت تعد ترويجاً جيداً للشركات التي تقوم بإنتاجها. ولكنني لم أستطع أن أكون متشائمة حيالها. لقد تخلصت من سطوة كل تلك الهدايا المجانية التي كانت تغدق علينا، خبأتها، ثم أخرجتها بعد مدة طويلة، بعد أن عدت إلى طبيعتي مرة أخرى، ومازلت أحتفظ بها في أرجاء البيت، أحياناً أستعمل أحمر الشفاه، وفي الإسبوع الماضي قمت بانتزاع القنديل البحري البلاستيكي عن علبة النظارات الشمسية وأهديته لأحد الأطفال حتى يلهو به.

هكذا كنا اثنتي عشرة فتاة في نفس الفندق، وفي نفس الجناح، ونفس الطابق، في غرف فردية، الواحدة تلو الأخرى، كان الأمر شبيهاً بغرف النوم التي كانت في سكني الجامعي. لم يكن الفندق الذي عشنا فيه فندقاً بالمعنى التام للكلمة، أعني فندقاً يتواجد فيه النساء والرجال معاً، هناك

وهناك، وفي ذات الأجنحة. لقد كان - فندق الأمازون - حكراً على النساء فقط، ممن كن في أعمار صغيرة ومتقاربة، كي يطمأن آباؤهن الأثرياء إلى عدم وجود رجال يختلطون معهن ويقومون بإغوائهن. كنّ من نوعية الفتيات اللواتي يقصدن مدارس راقية لتعليم السكرتاريا مثل مدرسة كاتي غبس، حيث يتحتم عليهن إرتداء قبعات وجوارب وقفازات ملائمة عند دخولهن إلى الفصول الدراسية، أو لعلهن كن حديثات التخرج من مدارس مشابهة لكاتي غبس، فأصبحن سكرتيرات لمدراء تنفيذين، ويتاح لهن التجول بخفة في شوراع نيويورك بحثاً عن أزواج محتملين ممن يعملون في إحدى الوظائف المكتبية.

لقد بدت لي حياة تلك الفتيات مضجرة على نحو قاتل. كن يخرجن رؤوسهن من أسقف السيارات، يتثاءبن وهن يطلين أصابعهن بطلاء الأظافر، وتجتهد كل واحدة منهن في المحافظة على تسمير[2] بشرتها. رأيت فيهن الملل القاتل. تحدثت إلى إحداهن ذات يوم، فقالت بأنها سئمت من ركوب اليخوت، ومن التحليق بالطائرات، ومن التزلج على الجليد عندما تقضي أعياد الميلاد في سويسرا، ومن الرجال عندما تقضي عطلتها في البرازيل. يجعلني هذا النوع من الفتيات أشعر بالغثيان. تنتابني الغيرة لدرجة أعجز فيها عن الكلام، لقد قضيت تسعة عشرة سنة من حياتي بدون أن أغادر نيو إنكلاند إلا في هذه المرة التي ذهبت فيها إلى نيويورك، لقد كانت أول خطوة كبيرة أتخذها في حياتي، ولكن كل ما أفعله الآن، هو أن أجلس في مكاني بدون حراك، وأنظر لفرصتي وهي تنساب من بين أصابع يدي كما ينساب الماء.

أظنّ أن واحدة من أهم المشاكل التي واجهتني كانت (دورين).

لم أصادف فتاة مثل دورين من قبل، لقد انتقلت إلينا من كليّة مخصصة لفتيات الطبقة الراقية في جنوب البلاد، كان لديها شعر أبيض لامع، يبدو منتصباً على رأسها مثل حلوى غزل البنات القطنية، وأعين زرقاء مثل كرات الزجاج والعقيق الشفاف، مصقولة وقاسية وأبدية، أعينٌ بلا نهاية، وفم ساخر على الدوام، ولا أعني بذلك السخرية البذيئة، بل السخرية الغامضة والمسلية، كما لو كان جميع الناس حولها أغبياء تماماً، لقد كان من السهل أن تجعل منهم أضحوكة كلما أرادت ذلك.

وقع اختيار دورين عليّ من اللحظة الأولى، جعلني ذلك أشعر أنني أكثر ذكاء من الأخريات، لقد كانت صحبتها مسليّة للغاية، اعتادت الجلوس على الكرسي المجاور لي أثناء

المحاضرات، وعندما كان يتحدث المشاهير أثناء زيارتهم لنا، كانت تهمس لي بتعليقات في غاية السخرية والذكاء.

كانت تخبرني بأن طالبات الكلية التي انتقلت منها، كن مواكبات لآخر صيحات الموضة، لدرجة أن محافظهن اليدويّة كانت مصنوعة من نفس قماش الفساتين التي كن يرتدينها، لذلك كانت لديهن محافظ يدويّة جديدة في كل مرة أرادت فيها إحداهن أن ترتدي فساتين جديدة. لقد أثارتني كل تلك التفاصيل المروجة لعالم كامل من الإنحطاط المذهل، وجذبتني إليه كالمغناطيس.

كان الشيء الوحيد الذي وبختني عليه دورين بشدة، هو قلقي الدائم من عدم المقدرة على إتمام فروضي الدراسية قبل الموعد المقرر لتسليمها.

(لماذا تقلقين بشأن ذلك؟) قالت ذلك وهي تتمرغ على فراشي بفستان نوم خوخي اللون، مصنوع من الحرير، وبيدها مبرد كانت تقلم به أظافرها الطويلة والمصفرة من كثرة التدخين. بينما كنت أكتب مسودة حوار أجريته مع روائيّ لامع حققت راوياته مبيعات كبيرة.

كان ثمة أمر آخر - ففي الوقت الذي كنا فيه (أعني أنا وبقية الفتيات) نرتدي ثياب نوم قطنية وأرواب مبطنة، أو ربما أردية وبريّة تطوى مثل ملابس الشاطىء، كانت دورين ترتدي ملابس نوم طويلة من الحرير والدانتيل متناسقة مع لون بشرتها، خفيفة لدرجة أنها تشف عمّا تحتها، وتلتصق بجسدها كما الكهرباء، كانت لديها رائحة مثيرة للإهتمام، فيها شيء من العرق الذي يذكرني بأوراق السرخس الزكية التي ننزعها ونسحقها بأصابعنا لنستخلص منها رائحة المسك.

(أنت تعرفين أن العجوزة جيسي لن تبالي إذا قمت بتسليم هذه القصة غداً أو بعد غد) أشعلت دورين سيجاراً وتركت الدخان يتدفق ببطء من أنفها حتى عينيها اللتين بدأتا بالإختفاء خلف حجب الدخان. ثم واصلت حديثها ببرود (جيسي قبيحة كالخطيئة). (أراهن أن زوجها يطفىء كل الأضواء قبل أن يقترب منها، وإلا استفرغ كل ما في جوفه).

كانت جيسي مديرتي في العمل، وقد أحببتها كثيراً، رغم كل ما قالته دورين. لم تكن جيسي من عارضات مجلات الأزياء صاحبات الرموش الإصطناعية والمجوهرات التي تصيب المرء بالدوار. كانت سيدة بمنتهى الذكاء، تتقن التحدث بلغتين، وتعرف كل الكتّاب المهمين في عالم

الموضة. لم يكن مظهرها القبيح يهمني في شيء. حاولت أن أتخيلها عارية مع زوجها بدون ملابسها الرسمية وقبعتها التي تلازمها طوال إستراحة الغداء، ولكنني لم أستطع ذلك.

لطالما كان تخيل الأزواج على السرير جهداً شاقاً بالنسبة لي.

أرادت جيسي أن تعلمني شيئاً ما، وبطبيعة الحال أرادت جميع العجائز اللواتي عرفتهن في حياتي أن يعلمنني شيئاً أيضاً، ولكنني أدركت فجأة أنني لست مستعدة لتعلم أي شيء. وضعت الغطاء على الآلة الكاتبة، ثم أطبقتها بقوة مسموعة، فارتسمت على وجه دورين ابتسامة عريضة وقالت: (فتاة ذكية). كان هناك من يقرع باب الغرفة، فسألت غير مكترثة بالنهوض من مكاني: (من بالباب؟)

(إنها أنا «بتسي». هل أنت قادمة للحفلة؟) وبدون أن أفتح لها الباب قلت: (أظن ذلك).

قدمت إلينا بتسي من ولاية كانساس، مع شعرها الأشقر المعقود كذيل الحصان، وابتسامتها المشرقة. أذكر جيداً اليوم الذي تم استدعاؤنا معاً إلى أحد مكاتب منتجي التلفزيون من أصحاب البدل المقلمة والأذقان الزرقاء. لينظر ما إن كنا نتمتع بمظهر يعوّل عليه لتقديم أحد البرامج التي ينتجها، وقتها شرعت بتسي في الحديث عن أكواز الذرة الذكرية والإنثوية التي اختبرتها في كانساس. وسرعان ما أصبحت بتسي منتشية بحديثها عن أكواز الذرة اللعينة حتى لمحنا الدموع في عيني المنتج، غير أن ذلك الأداء لم يكن مقنعاً بما فيه الكفاية لنيل وظيفة في برنامج ذلك المنتج، مثلما أوضح معتذراً.

وأذكر أيضاً اليوم الذي أقنعت فيه إحدى المحررات المتخصصات في شؤون الجمال، بتسي بقص شعرها، فجعلها ذلك تبدو مثل عارضات الأزياء اللواتي يظهرن على أغلف المجلات. كأنني ما زلت أرى وجهها مبتسماً في إحدى الإعلانات التجارية، وفي الأسفل كلمات مكتوبة بالخط العريض: (سيدة مجتمع في دار «بي.كيو» للأزياء، ترتدي فستاناً من تصميم «بي.إتش.راغي»).

دائماً ما كانت بتسي تطلب مني أن أشاركها مع فتيات أخريات في القيام ببعض الأمور، كما لو كانت تحاول إنقاذي بطريقة ما، بينما لم يسبق لها أن طلبت من دورين أن ترافقها للقيام بأي شيء على الإطلاق. وعندما كنا نجلس لوحدنا كانت دورين تطلق على بتسي لقب (راعية الأبقار المتفائلة).

قالت بتسي لدورين عبر فتحة الباب: (هل ترغبين بركوب التاكسي معنا؟) هزت دورين رأسها، فقلت: (لا بأس بتسي، سأذهب مع دورين)

(حسناً). كان بإمكاني الإستماع إلى وقع أقدام بتسي وهي تجر خطاها عبر الممر.

(سنحتفل إلى أن نسأم أنفسنا) قالت دورين، وهي تطفيء سيجارتها في قاعدة مصباح القراءة المجاور لسريري (ثم نهرب إلى وسط المدينة. يذكرني هذا النوع من الحفلات، بحفلات الرقص القديمة التي كانت تقام في الصالات الرياضية بالمدرسة، لماذا كان عليهم دائماً أن يدعوا طلاب جامعة بيل؟ إنهم مفرطو الغباء!)

كان بدي ويلارد أحد الطلاب الذي التحقوا بجامعة بيل، ولم أدرك حتى هذه اللحظة جانب النقص الذي كان لديه، الآن تأكدت بأنه كان على درجة عالية من الغباء، فبالرغم من حصوله على معدل دراسي مرتفع، ومن مواعدته لفتاة قبيحة تدعى غلاديس، تعمل كنادلة في مقهى (كيب Cape)، إلا أنه كان يفتقر إلى البداهة، الشيء الذي كانت دورين ماهرة فيه، فكل شيء كانت تنطق به كان بمثابة الصوت الخفيّ الذي تسر به أضلعي من الداخل.

في تلك الليلة كنا عالقات في ازدحام ساعة الذروة الذي تسببه العروض المسرحية، كنا نتوسط سيارة الأجرة التي كانت تقل بتسي من أمامنا، وسيارة تقل أربع فتيات أخريات من خلفنا، ولم يكن هناك أي شيء يتحرك.

بدت دورين في غاية الجمال، كانت ترتدي فستاناً أبيض مخرماً ومكشوف الذراعين، يحيط به مشد أنيق يظهر انحناء جسدها من المنتصف، ويعطي مظهراً مثيراً ومنفوخاً للجزء الأعلى والجزء الأسفل من جسدها. وكان لبشرتها لمعان برونزي تحت ما حاولت البودرة الباهتة أن تخفيه. ولجسدها رائحة قوية كما لو كانت محل عطور متنقل.

أما أنا فقد ارتديت لتلك الحفلة فستاناً أسود ضيقاً من الحرير، اشتريته بأربعين دولاراً، كان ذلك الفستان واحداً من الأشياء التي أنفقت عليها من نقود منحتي الدراسية، فلقد انتابتني حالة من الهوس الشرائي في أول لحظة عرفت فيها أنني واحدة من المحظوظات اللواتي سيذهبن إلى نيويورك. كان فستاناً في غاية الغرابة، فلم يكن بمقدوري أن أرتدي حمالة صدر تحته. غير أنني لم أعطِ إهتماماً لذلك، لأنني كنت في نحافة الصبيان، وبالكاد يتحلى جسدي بأية معالم نسائية. كما

راقني شعور أن أمشي شبه عارية في ليالي الصيف الحارة. لقد أزالت هذه المدينة السمرة التي اكتسبتها بعد عناء، فبدوت صفراء كفتاة صينية. لطالما كنت أشعر بالتوتر حيال مظهري، غير أن تواجدي برفقة دورين جعلني أنسى مخاوفي، وأتحول إلى فتاة حكيمة وساخرة على نحو واضح.

اتجه نحونا رجل يرتدي قميصاً قطنياً مقلماً، وبنطالاً أسود من قماش صينيّ، وينتعل في قدميه حذاء رعاة البقر المصنوع من الجلد. كنت على يقين أنه آت من أجل دورين، شق طريقه بين جموع السيارات المتوقفة، ومال برأسه على نحو جذاب، مقترباً من حافة نافذتنا المفتوحة.

(هل لي أن أطرح سؤالاً، ماذا تفعل فتاتان لطيفتان مثلكما، في سيارة أجرة بمفردهما، في ليلة لطيفة كهذه؟)

كانت ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة كتلك التي تظهر في إعلانات معجون الأسنان.

(في طريقنا إلى إحدى الحفلات) قلت ذلك بدون تفكير عندما وجدت أن ذهن دورين شرد بعيداً وهي تعبث بغطاء محفظتها الأبيض المخرم.

(يبدو ذلك مضجراً) قال الرجل (لماذا لا تأتون برفقتي لاحتساء بضعة كؤوس في الحانة التي هناك؟ سوف أكون بصحبة بعض الأصدقاء بطبيعة الحال).

أومأ برأسه تجاه عدة رجال كانوا يرتدون ملابس غير رسمية، ويتزاحمون حول ظله، متبعين تحركاته بنظراتهم، وحين التفت إليهم، ضجت أصواتهم بالضحك.

كان يجدر بي أن أحتاط حذراً فور أن تناهى إلى سمعي ذلك الضحك، لقد كانت ضحكات متقطعة ودنيئة، ولكن حركة السير بدأت تشي بأنها سوف تعود للسير من جديد، فأدركت أنني إن بقيت متسمرة في مكاني - خلال ثانيتين - فسوف أندم على إضاعة فرصة رؤية وجه آخر من نيويورك، إضافة إلى ما أعده القائمون على المجلة، بعناية فائقة، من أجلنا.

(ما رأيك يا دورين؟) قلت لها.

(ما رأيك يا دورين) أعاد الرجل كلماتي مظهراً ابتسامته العريضة تلك، لا أستطيع أن أستدعي صورته حتى هذا اليوم دون أن أتخيله مبتسماً، لا بد أنه كان مبتسماً طيلة الوقت، وأن ذلك

كان أمراً طبيعياً بالنسبة له.

قالت دورين: (حسناً، لا بأس). ففتحت الباب، وانسحبنا خارج سيارة الأجرة التي عادت لتتحرك ببطء، وتوجهنا نحو الحانة. وإذا بصوت فرامل حاد يخترق الآذان، أعقبه دوي ارتطام.

(أنتما هناك!)

أخرج سائق سيارة الأجرة رأسه من النافذة، وقد احمر وجهه من شدة الغضب. (ماذا تظنان أنكما فاعلتان؟)

كان قد أوقف السيارة على نحو مفاجىء، فاصطدمت بها سيارة الأجرة التي خلفها، محدثة دوياً، كنا نستطيع رؤية الفتيات الأربع وهن يلوحن بأيديهن ويكافحن جاهدات للنهوض من أسفل المقاعد.

ضحك الرجل، وتركنا عند ناصية الشارع، ليعود ويعطي السائق رسوم التوصيل، وقد تصاعدت أصوات الصراخ وزوامير السيارات في كل أنحاء الشارع. ثم رأينا فتيات المجلة يتحركن على التوالي، السيارة تلو الأخرى، مثل حفلة زفاف تقتصر على إشبينات العرائس.

(تعال يا فرانكي) قال الرجل إلى أحد أصدقائه في المجموعة، فخرج رجل وضيع وقصير القامة من خلف الرجال، ودخل الحانة معنا.

كان من نوعية الرجال الذين لا أقوى على احتمالهم. فأنا بطول خمسة أقدام وعشرة إنشات[3]، وحين أكون برفقة قصار القامة، فإنني أضطر إلى الإنحناء وإرخاء قدماي، لتكون واحدة إلى الأعلى والأخرى إلى الأسفل، حتى أبدو أقصر قامة مما أنا عليه. يشعرني ذلك أنني خرقاء ومثيرة للشفقة مثل فنان يؤدي عرضه خلف الكواليس. كنت آمل، في بادىء الأمر، أن يرافق كل شخص منا الشريك الذي يناسبه في الطول، فأرافق أنا الرجل الذي تحدث إلينا في المرة الأولى، والذي كان بطول ستة أقدام على الأقل، لكنه ذهب بصحبة دورين ولم يرمقني بأيّة نظرة ثانية. حاولت التظاهر بعدم رؤية فرانكي وهو يلتصق بذراعي، فجلست قرب دورين على الطاولة.

كانت الحانة معتمة للغاية، فلم أتمكن من تمييز أي شيء، إلا عندما تعرفت على دورين بعد عناء طويل، لقد ساعدني على ذلك بياضها التام، وشعرها الأبيض، وفستانها الأبيض، الذي جعلها

تبدو كقطعة من الفضة. لا بد أنها قد عكست أضواء النيون الملتصقة بسقف الحانة. شعرت أنني أذوب في الظلام كما لو كنت ظلاً لشخص لا أعرفه.

(حسناً، ماذا سنشرب؟) سأل الرجل بابتسامة عريضة.

أجابت دورين: (أعتقد أنني سأطلب شراباً من الطراز القديم).

لطالما كان طلب المشروبات الكحولية مربكاً بالنسبة لي، لم أعرف يوماً الفرق الحقيقي بين الويسكي والجِنّ، ولم أحصل على شيء أعجبني مذاقه مطلقاً. كان بدي ويلارد وبقية شبان الكلية الذين عرفتهم في حياتي، فقراء للغاية، فلم يكن بمقدورهم شراء مشروبات كحولية باهظة الثمن، أو أنهم كانوا يحتقرون الشرب بشكل تام. يدهشني أن كثيراً من طلبة الكلية لم يخوضوا تجربة الشرب أو التدخين، أشعر أنني أعرفهم جميعاً، إن أقصى ما أمكن (بدي) القيام به، هو شراء زجاجة من نبيذ دوبونيه، لمجرد أن يثبت لي بأنه شخص يقدّر الجمال رغم دراسته في كلية الطب.

(سآخذ كأساً من الفودكا)، قلت.

نظر إليّ الرجل عن كثب. (ممزوجة بشيء؟)

(بدون إضافات) أجبت (فعادة ما أشربها بدون إضافات).

ظننت بأنني سوف أجعل من نفسي أضحوكة لو قلت لهم أنني سأحتسيها بالثلج أو بالصودا أو بالجِنّ، أو أيّة إضافات أخرى. كنت قد شاهدت إعلاناً يروج للفودكا ذات مرة، مجرد كأس مملوءة بالفودكا، ينعكس عليها ضوء أزرق وتتساقط الثلوج من فوقها. بدت تلك الكأس صافية لا يشوبها أي شيء، كالماء تماماً، فرأيت أن طلبي للفودكا الصافية سيكون في محله، فقد كان حلم حياتي أن أطلب شيئاً وأجد طعمه رائعاً.

ثم جاء النادل، فطلب الرجل كؤوس شراب لكل منا نحن الأربعة، بدا مظهره طبيعياً في لباسه الريفي، وسط تلك الحانة المتمدنة، حتى يخاله المرء شخصاً مشهوراً.

لم تنطق دورين بأي شيء، كانت مستمرة بالعبث بمفرش الطاولة، ثم أشعلت سيجاراً في نهاية المطاف، ولم يمانع ذلك الرجل بأي شيء. جلس محدقاً فيها، مثلما يحدق الناس في بغبغاء

أبيض ضخم في حديقة الحيوان، منتظرين منه أن يتكلم مثل البشر.

وصلت كؤوس الشراب، فبدت كأسي صافية مثل الماء الزلال، تماماً مثل إعلان الفودكا الذي شاهدته في ذلك اليوم.

(ما طبيعة عملك؟) سألتُ الرجل، لأتخلص من عبء الصمت الذي كان يحيط بي من كل إتجاه، صمت عريض مثل عشب الغاب. (أقصد، ماذا تفعل هنا في نيويورك؟)

ببطء شديد، وبشيء من الجهد الذي بدا واضحاً عليه وهو يشيح ناظريه عن كتفي دورين (أنا مقدم فقرات موسيقية) قال (لا بد أنك قد سمعت بي من قبل. اسمي ليني شيبرد)

قالت دورين فجأة: (أعرفك)

قال الرجل: (أنا سعيد بهذا، عزيزتي) ثم انفجر ضاحكاً. (سأتولى زمام الأمور، فأنا مشهور للغاية)

ثم نظر إلى فرانكي نظرة طويلة.

(هيا، قل لهم من أين أتيت) سأله فرانكي وهو يرتجف في مكانه. (ما اسمك؟)

(هذه اسمها دورين) دس ليني يده خلف ذراع دورين العاري، ثم ضمها بشدة.

لقد بدت دورين كأنها خارج العالم، لقد أدهشني أنها لم تلحظ ما كان يقوم به، كانت تجلس هناك، مظلمة في ثوبها الأبيض، مثل زنجية صبغت بشرتها باللون الأشقر، وارتشفت شرابها بغموض.

(اسمي «إيلي هيغين بوتوم») قلت (قدمت من شيكاغو). شعرت بالأمان بعد أن قلت ذلك، لم أكن أريد لأي شيء قلته أو فعلته بتلك الليلة، أن يرتبط بحقيقة اسمي، أوبحقيقة أني قد قدمت من بوسطن.

(حسناً، ما رأيك لو رقصنا قليلاً؟)

جعلتني فكرة مراقصة ذلك القزم، الذي يرتدي حذاء برتقالياً من المخمل، وقميصاً قصيراً، وسترة زرقاء متدلية - أضحك. فلا يوجد شيء أحتقره أكثر من رجل بثياب زرقاء، أو سوداء، أو رمادية، أو حتى بنية. الأزرق بالتحديد أكثر الألوان التي تجعلني أغرق في الضحك.

(لست في مزاج جيد) قلتُ بفتور، ثم أدرت ظهري له، وأزحت المقعد لأصبح على مقربة من دورين وليني. لقد خُيّل إليّ أنهما يعرفان بعضهما من عدة سنين، كانت دورين ترفع قطعة الفاكهة التي كانت في قاع كأسها بواسطة معلقة فضية رقيقة، وكان ليني يصدر أصواتاً مضحكة، كلما رفعت الملعقة إلى فمها، ويطبق كفيه على نحو مفاجيء، متظاهراً بأنه كلب أو شيء من هذا القبيل، ويحاول أن ينقض على الملعقة ليأخذ ما كان عليها من الفاكهة، أثار ذلك ضحك دورين، وواصلت غرف الفاكهة.

بدأت أشعر أن الفودكا هي شرابي المفضل. لم يكن مذاقها كأي شيء اختبرته من قبل. لكنها سرعان ما انسكبت إلى جوف معدتي كالسيف الذي يبتلعه السحرة، فجعلني ذلك أتشبه بالآلهة وأشعر بالعظمة.

(من الأفضل أن أذهب الآن) قال فرانكي، وهو ينتصب واقفاً.

لم أستطع رؤيته بوضوح، بسبب الظلام الذي أحاط بنا من كل إتجاه، ولكنني اكتشفت للمرة الأولى مدى حدة صوته وسخافته، كان يقف بدون أن يعيره أحد أي اهتمام.

(ليني، أنت مدين لي بشيء ما. أتذكر؟ أنت مدين لي بشيء ما، أليس كذلك يا ليني)

لقد كان من الغريب أن يُلّح فرانكي بتذكير ليني أنه مدين له بشيء ما أمامنا، فنحن غريبتان تماماً، غير أن فرانكي تسمّر في مكانه معيداً نفس الجملة، مرات ومرات، إلى أن مد ليني يده إلى جيبه وأخرج منها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية الخضراء، ثم سحب واحدة منها وناولها إلى فرانكي. أظنها ورقة من فئة العشرة دولارات.

(اخرس، وانصرف في الحال)

ثم سمعت صوت ليني وهو يقول بعض الكلمات التي ظننتها موجهة إليّ، ولكنني سمعت صوت دورين وهي ترد عليه قائلة: (لن أذهب ما لم تأت إيلي معنا). كان عليّ أن أجاري كلامها

لأنها جارتني في تزييف اسمي.

(أوه، إيلي سوف تأتي معنا، أليس كذلك، يا إيلي؟) قال ليني، وهو يغمزني بعينه.

أجبت: (بالطبع سأذهب). كان فرانكي قد تلاشى في الظلام، فأمسكت بدورين. أردت أن أبصر بقدر استطاعتي. كنت أحب مشاهدة الآخرين في حالات حرجة، فعندما يكون ثمة حادث سير، أو قتال في الشارع، أو جنين مخزن في وعاء حمضي في إحدى المختبرات، فإنني أتوقف عنده وأطيل النظر، كي يترسخ المنظر في مخيلتي إلى الأبد.

لا بد أنني تعلمت من خلال هذه الطريقة أشياء لم أكن لأتعلمها أبداً، حتى وإن كانت تثير في نفسي الغثيان والهلع، فأنا لم أكن لأتساهل مع نفسي، بل أتظاهر أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي أتعلم من خلالها طوال الوقت.

(2)

ما كنت لأفوّت على نفسي - لأيّ سبب كان - فرصة مشاهدة المكان الذي يسكن فيه ليني.

بدا المكان أشبه بمزرعة، ولو أن الفرق الوحيد هو وجودها في داخل شقة وسط نيويورك.

لقد أستغل ليني تلك الشقة جيداً، قال بأنه أزال بعض الأركان لتبدو مساحتها أكبر، ثم غطى الجدران بألواح من خشب الصنوبر، كما صنع ديكوراً على شكل حذوة الحصان من الخشب ذاته، وأظن أن الأرضية كانت مصنوعة أيضاً من خشب الصنوبر. كانت هناك جلود دببة بيضاء متناثرة على الأرض، وكان الأثاث الوحيد في الغرفة عبارة عن أسرة منخفضة ومكسوة بالسجاد الهندي، وبدلاً من أن يعلق صوراً على الحائط، علق قرون جواميس، ورأس أرنب محنط، أشار ليني بإبهامه إلى أنفه الرمادي الوديع، وأذنيه المتيبستين، وقال: (لقد دعسته سيارتي في لاس فيغاس) ثم خطى بعيداً عبر الغرفة، كان صوت حذاء رعاة البقر الذي ينتعله يتردد مثل طلقات الرصاص، قال: (تسجيلات صوتية) ثم بدأ حجمه يتناهى في الصغر حتى اختفى عبر أحد الأبواب.

فجأة، بدأت أصوات الموسيقى تحيط بنا من كل الجهات. ثم توقفت، فسمعنا صوت ليني وهو يقول: (معكم ليني شبرد، مقدم برنامج «موسيقى منتصف الليل»، مع موجز بأهم إصدارات أغاني البوب. لم يتصدر أحدٌ المرتبة العاشرة، في سباق الأغاني لهذا الأسبوع، سوى تلك الصبية ذات الشعر الأشقر، والتي سمعتم الكثير عنها في الآونة الأخيرة... إنها زهرة عباد الشمس التي لا يشبهها أي شيء)

ولدت في كانساس، وترعرعت في كانساس،

وحين أتزوج، سأقيم عرسي في كانساس...

(يا للروعة!) قالت دورين. (ألا يبدو شخصاً ممتعاً)

(بكل تأكيد)، قلت

(إسمعي، إيلي، اصنعي لي معروفاً). بدا الأمر كما لو أنها أصبحت مقتنعة أنني إيلي فعلاً.

(بكل سرور)، قلت.

(أرجوك كوني قريبة مني، لا أعتقد أنني سأصمد أمام إغراءاته إن قام بشيء مضحك. هل رأيت تلك العضلات؟) ضحكت دورين

خرج ليني فجأة من الغرفة الخلفية وقال (إنني أحتفظ هناك بمعدات تسجيل تبلغ قيمتها عشرين ألف دولار) ثم سار إلى المشرب، ووضع ثلاثة كؤوس ودلواً فضياً مملوءً بالثلج، وإبريقاً كبيراً، ومضى يصنع شراباً ممزوجاً من عدة زجاجات.

إلى فتاة العيون الزرقاء

التي أعطتني وعداً أن تنتظرني

إنها زهرة عباد الشمس

من ولاية عباد الشمس

(رائع، هاه؟) جاء ليني وهو يحمل الكؤوس الثلاث. رأيت قطرات كبيرة ملتصقة على زجاجها كما لو كانت تتصبب عرقاً، وكانت مكعبات الثلج تصدر قرقعة وهي تتحرك قادمة إلينا، ثم بدأ صوت الموسيقى بالإنخفاض حتى توقفت، فأعلن ليني اسم الأغنية التالية: (لا شيء كإنصات المرء إلى حديث نفسه). ثم نظر إلي وقال: (لقد رحل فرانكي، يتوجب عليك أن تجدي شخصاً آخر، سأتصل على أحد الأصدقاء).

قلت: (لا بأس، لا حاجة لي بذلك) لم أشأ أن أطلب منه بشكل مباشر أن يحضر لي شخصاً أطول من فرانكي.

شعر ليني بالإرتياح (كما تشائين، لا أستطيع أن أتصرف بشكل خاطىء مع صديقة دورين). ثم ارتسمت على وجهه تلك الإبتسامة العريضة تجاه دورين، ومد يده إليها (هل لي، يا حلوتي؟) ودون أن ينطقا بكلمة واحدة، راحا يتمايلان معاً، بدون أن يترك أي منهما كأسه.

جلست فوق أحد الأسرة، وأنا أضع قدماً فوق الأخرى، محاولة أن أبدو رزينة وهادئة مثل رجال الأعمال الذي شاهدتهم، ذات مرة، وهم يحدقون بعرض رقص شرقي تقوم به راقصة جزائريّة بهز خصرها وتحريك بطنها. ولكنني ما إن أسندت ظهري إلى الحائط أسفل الأرنب المحنط، حتى أخذ السرير بالتحرك من مكانه والتوسع في الغرفة، فجلست على الأرض فوق جلد الدب الأبيض، واستندت على السرير بدلاً من أن أجلس عليه.

كانت كأسي نديّة ومحرّضة على الكآبة، وكلما ارتشفتها، صار مذاقها أشبه بمذاق الماء الميّت[4]، وفي منتصف الكأس ارتسم حبل رعاة بقر ورديّ منقط بالأصفر. فشربت حتى وصلت إلى أسفله، ثم إنتظرت قليلاً، وعندما هممت بأن أشرب مرة أخرى، وجدت أن الشراب لا يزال في مستوى حبل رعاة البقر كما كان أول مرة.

ثم اخترق صوت ليني هدوء المكان، (اوه لماذا، لماذا تركتُ وايومنغ؟)

لم يتوقف الاثنان عن الرقص حتى في الفترات التي كان يسود فيها الصمت بين الأغنية والأخرى. كنت أشعر أنني آخذة بالإنكماش والتحول إلى نقطة صغيرة سوداء على تلك السجاجيد الحمراء والبيضاء وألواح الصنوبر. شعرت كما لو أنني مجرد ثقب صغير في الأرض.

هناك ما يربك حواس المرء وهو يشاهد شخصين يزدادان جنوناً وتعلقاً ببعضهما، خاصة في الوقت الذي تكون فيه أنت ذلك الشخص الوحيد والفائض عن الحاجة في الغرفة التي تجمعهما معاً. إن الأمر أشبه بمشاهدة باريس من العربة الأخيرة لقطار سريع يسير في الإتجاه المعاكس، حيث تزداد المدينة صغراً في كل ثانية، فينتابك شعور حقيقي بأنك أنت الذي تزداد تصاغراً ووحدة. مندفعاً بعيداً عن كل تلك الأضواء، وتلك الإثارة، بسرعة مليون ميل في الساعة.

كان ليني ودورين يلتصقان ببعضهما بين الحين والآخر، ويتبادلان القبل، ثم يتمايلان إلى الخلف لارتشاف جرعة كبيرة، ثم يعاودان الإلتصاق ببعضهما مرة أخرى. خطر ببالي أن أتمدد على جلد الدب وأغط في نوم عميق حتى تشعر دورين بأن الوقت قد حان لنعود إلى الفندق.

وفجأة، أطلق ليني صرخة مرعبة. فأخذت وضعية الجلوس. بينما كانت دورين تعض شحمة أذن ليني اليسرى.

(اتركيني، أيتها العاهرة!)

انحنى ليني، فصعدت دورين على ظهره، وقذفت بالكأس بعيداً في الهواء، في حركة شبيهة بحركة القوس، ثم سقطت على خشب الصنوبر وهي تصدر صوت رنين مضحك.

استمر ليني بالصراخ والدوران بسرعة، فلم أعد قادرة على رؤية وجه دورين. ولكنني اكتشفت، بالطريقة المعتادة التي يمكنك فيها أن تكتشف لون عينيّ شخص ما، أن نهدي دورين قد اندفعا خارج فستانها، وكانا يهتزان بخفة مثل شمامتين بنيتين مكتملتي النضج، بينما كانت تتقلب على كتف ليني وبطنها إلى الأسفل، وقدماها تضطربان في الهواء، وتصرخ بأعلى صوت. ولكنهما سرعان ما أخذا يضحكان ويخففان من وقع حركتهما. ثم بدأ ليني بعض فخذ دورين وهو يرفع تنورتها إلى الأعلى. فأدركت أنني يجب أن أذهب قبل أن تتطور الأمور بينهما، فخرجت من الباب، وتمكنت من هبوط السلالم، مستندة إلى الحاجز الحديدي للدرج بكلتا يدي، كنت شبه منزلقة طوال هبوطي.

لم أنتبه إلى وجود جهاز تكييف في شقة ليني، حتى خرجت مترنحة إلى الرصيف، وأحسست بحرارة الأرصفة التي اختزنت لهبها طوال النهار، وهي تصفعني في وجهي مثل آخر إهانة. لم أعرف أين كنت في تلك اللحظة.

سرعان ما أغرتني فكرة أن أستقل سيارة أجرة إلى مكان الحفلة، لكنني عدلت عن ذلك خشية أن يكون الرقص قد شارف على الإنتهاء، وأن أجد نفسي واقفة في قاعة فارغة وسط قصاصات الورق الملون وأعقاب السجائر وفتات المناديل الورقية.

فما كان مني إلا أن مشيت بحذر إلى أقرب ناصية، وأنا أتحسس بطرف إصبعي جدران البنايات التي على يساري، لأبقى محتفظة بتوازني. نظرت إلى لافتة الشارع، ثم أخرجت خريطة شوارع نيويورك من محفظتي اليدويّة. كان يلزمني أن أعبر ثلاثاً وأربعين وحدة سكنية لأصل إلى الفندق.

لم يكن المشي مصدر قلق بالنسبة لي، كنت أمشي في الإتجاه الصحيح، أحصي الوحدات السكنية التي أعبرها بصوت خافت، وحين دخلت ردهة الفندق، شعرت بأن تأثير الشراب قد زال، وأن قدميّ قد تورمتا قليلاً. أعتقد بأنني تسببت بذلك لنفسي، لأنني لم أرتد أيّة جوارب تحت الحذاء.

لم يكن في ردهة الإستقبال أحد سوى موظف الإستقبال المناوب في الفترة المسائية، كان يغفو في مكتبه المضاء بين سلاسل المفاتيح والهواتف الصامتة. فتسللت بهدوء نحو المصعد، وضغطت على زر الطابق الذي أسكن فيه. أطبق باب المصعد مثل أوكورديون صامت. ثم وجدت انعكاساً مضحكاً لأذنيّ، وانعكاس امرأة صينية كانت تحدق بي بغباء بواسطة عينين شبه مغلقتين، تأكدت بعد برهة بأنها أنا، أرعبني منظر وجهي المجعد، وجسدي المنهك حتى الموت.

عندما وصلت إلى الطابق، لم أجد غيري في الممر، فدخلت إلى غرفتي، كانت مليئة بالدخان. ظننت بأنه قد تسلل عبر الهواء كنوع من القصاص العادل، ولكنه لم يكن سوى دخان سجائر دورين، فضغطت على الزر الذي يفتح منفذ التهوية. كانوا قد ثبتوا النوافذ بطريقة محكمة للغاية، حيث يعجز المرء عن فتحها بيديه والإنحناء خارجها. لسبب ما، جعلني ذلك أغضب بشدة.

كان بإمكاني رؤية قاع المدينة عند وقوفي في الجهة اليسرى من النافذة واضعة وجنتي على الإطار الخشبي، كنت أرى مقر الأمم المتحدة الشاخص في الظلام، كقرص عسل سقط من المريخ، أخضر اللون وغريب الشكل، كما كان باستطاعتي رؤية الأضواء الحمراء والبيضاء وهي تومض وتخفت على امتداد الطريق، وأنوار الجسور التي لا أعرف أسماءها.

أصابني الصمت بالكآبة. لم يكن صمت الصمت. بل كان صمتي أنا.

كنت أعرف تمام المعرفة بأن السيارات التي تمشي على الشارع كانت تحدث ضجيجاً، وأن الناس الذين بداخلها والآخرين الذين يجلسون خلف نوافذ البنايات المضيئة. كانوا يحدثون ضجيجاً أيضاً، وكذلك كان النهر الجاري على الدوام. ولكنني لم أسمع شيئاً. كانت المدينة معلقة بنافذتي، مسطحة مثل ملصق إعلاني، تلمع وتومض، ولعلها لم تكن هناك أصلاً، من أجل كل الأمور الحسنة التي أنعمت بها عليّ.

كان بإمكان الهاتف الصيني الأبيض الذي وُضع بجوار سريري، أن يربطني بأشياء كثيرة، لكنه فضّل أن يجلس هناك، أخرسَ، مثل رأس الموت. حاولت التفكير بالأشخاص الذي منحتهم رقم

هاتفي، حتى أتمكن من إعداد قائمة بكل المكالمات المتحملة. لكنني لم أفكر إلا بوالدة (بدي ويلارد) التي أعطيتها رقمي لتعطيه بدورها إلى شاب يعمل مترجماً فورياً في الأمم المتحدة.

سمحت لنفسي بالابتسام على نحو جاف وخفيف.

بوسعي تخيل أي نوع من الرجال قد يكون ذلك المترجم الفوري الذي ستعرفني عليه السيدة ويلارد، والتي لطالما تمنت أن أكون زوجة لابنها بدي، الذي أصيب مؤخراً بداء السل وانتقل للعلاج في إحدى مستشفيات الضاحية الشمالية لولاية نيويورك، لم يتوقف الأمر على ذلك، بل قامت بتدبير الاجراءات اللازمة لأعمل نادلة في المصحة، كيلا يبقى ابنها بدي وحيداً في ذلك الصيف. لم يكن بإمكان السيدة ويلارد ولا ابنها أن يدركا السبب الذي جعلني أفضّل الذهاب إلى نيويورك عوضاً عن ذلك.

بدت المرآة المعلقة فوق منضدة الكتابة، فضية اللون تماماً، مشوّهة وجه الذي ينظر إليها. كان الوجه الذي ينعكس عليها أشبه بالصور التي تنعكس على الكرة الزئبقية لطبيب الأسنان. فكرت في التمرغ بين ملاءات السرير، ومحاولة النوم، غير أنني فشلت في ذلك، كان الأمر أشبه بحشو رسالة قذرة مكتوبة بخط رديء، داخل مظروف جديد ونظيف. اتخذت قراراً جادًا بأن آخذ حماماً ساخناً.

لا بد من وجود عدة أمور لا يمكن لحمام ساخن أن يعالجها، لكنني لا أعرف شيئاً عنها، كل ما أعرفه أنني كلما شعرت بالحزن، أو بالرغبة بالموت، أو بالتوتر، أو بالأرق، أو كلما عشقت شخصاً ولم أتمكن من رؤيته لمدة أسبوع، شعرت بأنني أتهاوى إلى الأسفل، وأقول لنفسي: (إنه وقت الحمام الساخن).

حوض الإستحمام هو طريقي نحو التأمل العميق، يجب أن يكون الماء ساخناً جداً إلى الحد الذي يعجز فيه الإنسان عن وضع قدمه فيه. ثم أنزل إلى داخله، شيئاً فشيئاً، حتى يصل الماء الساخن إلى عنقي.

إنني أذكر جيداً شكل السقف الذي يعلو حوض الإستحمام الذي كنت أتمدد فيه. أذكر بنية السقف، والشقوق، والألوان، وبقع الرطوبة، وأماكن الضوء الثابتة. كما أذكر جميع أحواض الإستحمام التي استخدمتها في حياتي: أحواض الإستحمام القديمة ذات القوائم التي تشبه أرجل

الشيردال[5]. والأحواض الحديثة التي تشبه توابيت الموتى، وأحواض الرخام الوردي التي تطل على برك داخليّة مغطاة بالزنابق، كما أذكر أشكال الحنفيات وأحجامها، ومختلف أنواع حاملات الصابون.

لا أشعر بوجودي إلا عندما أكون في حوض ممتلئ بالماء الساخن.

تمددت في ذلك الحوض، القابع في الطابق السابع عشر لهذا الفندق المخصص للنساء فقط، عالياً فوق ضجيج نيويورك وموسيقى الجاز، تممدت لمدة ساعة كاملة، فشعرت أنني عدت طاهرة من جديد. لا أؤمن بالتعميد، أو بمياه نهر الأردن، أو أي شيء من هذا القبيل. ولكنني أشعر تجاه الحمام الساخن بذات الطريقة التي يشعر بها المتدينون تجاه الماء المقدس.

قلت لنفسي: (إن دورين تتلاشى، وليني شيبرد يتلاشى، وفرانكي يتلاشى، ونيويورك تتلاشى، إنهم يتلاشون جميعاً، وليس لهم أي أهمية تذكر. أنا لا أعرفهم، ولم يسبق لي أن قابلتهم من قبل. أنا في غاية الطهارة. كل ذلك الشراب وتلك القبلات اللزجة التي رأيتها، وتلك الأوساخ التي التصقت ببشرتي في طريق العودة، تتحول إلى شيء طاهر)

بقدر ما أتمدد في الماء الساخن، بقدر ما أشعر بطهارة أعمق، وحينما أغادر حوض الاستحمام وألف نفسي بمناشف الفندق البيضاء الناعمة، أشعر بكمال الطهارة والجمال، مثل طفل خرج للتو من بطن أمه.

لا أذكر الوقت الذي استغرقته في النوم، استيقظت على صوت طرق على الباب، لم أعر الأمر انتباهاً في البداية، لأن الطارق لم يتوقف عن القول: (إيلي، إيلي، إيلي، دعيني أدخل) فلم أكن أعرف شخصاً يحمل ذلك الإسم، ثم ارتفع صوت من نوع آخر طغى على ذلك الطرق الرتيب، طرق حاد، وصوت أكثر حدة يقول: (آنسة غرينوود، صديقتك في حاجة إليك)، فأدركت، حينئذ، أنها دورين.

تأرجحت على قدمي، ثم وازنت نفسي رغم الدوار الذي أصابني للحظات، كانت الغرفة مظلمة تماماً، شعرت بالغضب من دورين لأنها أيقظتني. لقد كان نومي العميق هو فرصتي الوحيدة للخروج من تلك الليلة الحزينة، ولكنها أيقظتني وأضاعت عليّ تلك الفرصة. فكرت بالتظاهر بالنوم حتى يتلاشى صوت الطرق، وأنعم بالهدوء، ولكنني انتظرت، ولم يتوقف الصوت.

(إيلي، إيلي، إيلي) تمتم الصوت الأول، فيما واصل الصوت الثاني الهسهسة: (آنسة غرينوود، آنسة غرينوود، آنسة غرينوود) كما لو أنني أعاني من ازدواج الشخصية، أو شي من هذا القبيل.

فتحت الباب، وسترقت نظرة عبر الرواق المنير، فبدا لي أن الوقت لم يكن ليلاً أو نهاراً، بل كان توقيتاً جديداً، متوهجاً كالنار، انسل بينهما فجأة بلا انتهاء.

كانت دورين تتهاوى، ممسكة بمقبض الباب، وعندما خرجت، تمسكت بذراعي، لم أتمكن من رؤية وجهها لأن رأسها كان متدلياً إلى الأسفل، كما لو كان معلقاً بصدرها، وكان شعرها الأشقر الكثيف قد تدلى من منابته الداكنة مثل تنانير راقصي الهولا.[6] ولكنني تعرفت على السيدة القصيرة ذات الشاربين التي كانت تتناوب مع دورين على طرق الباب، لقد كانت الخادمة الليلية التي تكوي ثيابنا الصباحية وفستاين الحفلات، لقد كان عملها يختص بخدمة المهجع المزدحم في الطابق الذي كنا ننزل فيه. لم أعرف كيف استطاعت أن تتعرف على دورين وهي بتلك الحالة، ولماذا ساعدتها على إيقاظي من نومي بدلاً من أن تقودها، بهودء، إلى غرفتها.

عندما اطمأنت الخادمة أن دورين قد استقرت على ذراعي، انسحبت بهدوء عبر الرواق لتذهب إلى غرفتها، حيث ماكينة الخياطة التي من ماركة « سنغر»، وطاولة الكيّ البيضاء. أردت أن ألحق بها، وأقول لها أن لا علاقة لي بما حل بدورين، لأنها بدت صارمة، وعابسة، وأخلاقية، مثل مهاجرة على الطراز الأوروبيّ القديم، ذكرتني بجدتي النمساوية.

(دعيني أتمدد على الأرض، دعيني أتمدد على الأرض)، كانت دورين تهذي (دعيني أتمدد على الأرض، دعيني أتمدد على الأرض).

شعرت بأنني لو حملت دورين إلى داخل غرفتي، وساعدتها في الوصول إلى سريري، فلن أتخلص منها إلى الأبد.

استندت إلى ذراعي، بجسدها الدافيء والناعم مثل كومة من الوسائد، ومالت بكل ثقلها، ومشت وهي تجر قدميها، بكعب حذائها المدبب الطويل، على نحو أخرق، كانت ثقيلة جداً، فلم أستطع حملها إلى داخل غرفتي، كان الحل الوحيد هو أن أتركها ممددة على السجادة، وأن أغلق باب غرفتي بالمفتاح، وأخلد إلى السرير، وعندما تستيقظ دورين في الصباح، لن تتذكر أي شيء مما

حدث، ستظن أنه قد أغمي عليها أمام باب غرفتي، بينما كنت غارقة في النوم، ثم ستنهض من تلقاء نفسها، وتعود إلى غرفتها، بكل عقلانية وبساطة.

شرعت في إنزال دورين على سجادة الرواق الخضراء، لكنها أصدرت صوت أنين خافت، وانزلقت من بين ذراعي. واندفع من فمها قيء بني، وانتشر على شكل بركة محيطة بقدمي. عندها صارت دورين أكثر ثقلاً. وسقط رأسها في بركة القيء، فأصبحت خصلات شعرها الأشقر كجذور الأشجار النابتة في مياه المستنقع، ثم تأكدت أنها ما زالت نائمة، فتراجعت إلى الخلف، نصف نائمة ونصف مستيقظة.

قمت باتخاذ قرار بشأن علاقتي بدورين تلك الليلة، قررت أن أشاهدها، وأنصت إليها عندما تتكلم، ولكن لن يكون هناك أي شيء فعليّ يربطني بها. لقد شعرت في أعماقي أنني سأكون صديقة مخلصة لبستي ورفيقاتها البريئات، فنحن نشبه بعضنا إلى حد بعيد.

تسللت بهدوء إلى غرفتي، وأغلقت الباب. لكنني فكرت في الأمر مرة أخرى، لم أغلق الباب بالمفتاح. لم أجرؤ على القيام بذلك.

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كان الجو حاراً ومضجراً بدون أن تظهر فيه الشمس. قمت بارتداء ملابسي، وغسلت وجهي بالماء البارد، ثم وضعت القليل من أحمر الشفاه، وفتحت الباب بهدوء، توقعت أن أرى جسد دورين ممدداً على الأرض وسط بركة القيء، كدليل ماثل على حقيقتي القذرة.

لم أجد أي شخص في الرواق. كانت السجادة ممتددة من أول الرواق وحتى آخره، تنضح بالنظافة والإخضرار الأبدي، باستثناء تلك البقعة المبعثرة الداكنة أمام باب غرفتي، كما لو أن شخصاً ما سكب، بمحض الصدفة، كوباً من الماء هناك، ثم جففه مرة أخرى.

(3)

كانت ثمار الكمثرى والأفوكادو الصفراء والخضراء، مصفوفة بنظام تام على مائدة الطعام الخاصة بمجلة (يوم السيدات)، كانت الثمار محشوة بالمايونيز ولحم السلطعون، وبجوارها أطباق فريدة من لحم البقر المشوي والدجاج البارد، وطبق زجاجيّ يُملأ بين الحين والآخر، بالكافيار الأسود. لم يسعفني الوقت لتناول وجبة الإفطار في مطعم الفندق صباح ذلك اليوم، ولم أحتسِ سوى كوب من القهوة الرديئة، قهوة ذات مذاق مُر كاد يخرج من أنفي، رغم أنني كنت أتضور من الجوع.

لم يسبق لي أن تناولت في مطعم لائق قبل أن آتي إلى نيويورك. فمطعم (هاورد جونسن)، الذي كنت أتناول فيه البطاطا المقلية وفطائر الجبنة والمشروبات الباردة، برفقة بدي ويلارد والآخرين، لا يعتبر مطعماً لائقاً. ولا أعرف سبب ذلك، ولكنني أحب الطعام أكثر من أي شيء آخر، ومهما أكلت فإن وزني لا يزداد أبداً، لقد كان بقاء وزني على نحو ثابت لمدة عشر سنوات، استثناءً خارقاً للطبيعة.

كانت أطباقي المفضلة مليئة بالزبدة، والجبنة، والقشدة الحامضة. كنا نتناول في نيويورك، عدة وجبات مجانية برفقة الأشخاص الذين يعملون في المجلة والشخصيات الشهيرة التي كانت تقوم بزيارتنا، حتى أصبحت لديّ عادة في تفحص قوائم الطعام المكتوبة بخط اليد، تلك التي تظهر أن سعر طبق صغير من البازلاء يبلغ خمسين أو ستين سنتاً، فلا يقع اختياري إلا على أغنى الأطباق، وأغلاها ثمناً، ثم أطلب الكثير منها.

كان الحساب يُدفع مسبقاً في كل مرة نذهب فيها إلى تلك الأماكن، لذلك لم أكن أشعر بالذنب مطلقاً. قررت تناول طعامي بسرعة، حتى لا أنتظر الأشخاص الآخرين، إذ عادة ما تقتصر طلباتهم

على السلطة وعصير العنب لرغبتهم في إنقاص أوزانهم. إن أغلب من التقيت بهم في نيويورك كانوا يحاولون إنقاص أوزانهم.

(أود أن أرّحب بأجمل مجموعة من الآنسات اليافعات اللواتي حظينا باستقبالهن اليوم)، أعلن عريف الحفل البدين الأصلع، وهو يتنفس بصعوبة في المايكروفون المغروس في طية سترته. ثم تابع: (إن هذه المأدبة مجرد تعبير بسيط عن الحفاوة التي يرغب طهاتنا في تقديمها إليكن، عبر هذه الأطباق التجريبية التي أعدوها خصيصاً لأعضاء مجلة يوم السيدات، مقدرين زيارتكن).

صفقت السيدات بنعومة، ثم جلس الجميع حول المائدة المهولة، المكسوة بالبياض.

كنا إحدى عشرة فتاة من المجلة، إضافة إلى عدد من المحررين المشرفين، وجميع النساء اللواتي شاركن في إعداد المائدة المخصصة لهذه المناسبة، كن يرتدين ثياباً واسعة وناصعة البياض، واعتمرن فوق شعورهن قبعات مخرمة، ووضعن مكياجاً متناسقاً مع لون معاطفهن التي كانت بلون حلوى الخوخ.

لم نكن سوى إحدى عشرة فتاة، وذلك لأن دورين لم تحضر معنا إلى الحفل. ولكنهم - لسبب أجهله - خصصوا لها مكاناً إلى جانبي، غير أن الكرسي ظل شاغراً طوال الوقت، أخذت المظروف التي وُضع أمام المكان المخصص لدورين. كان بداخله مرآة محفورة بأحرف إسمها، وعقد بأزهار الربيع التي تم تجليدها حول الحواف، لتتناسق مع الموضع الفضي الذي حمل صورة وجه دورين.

كانت دورين تقضي يومها برفقة ليني شيبرد، فقد باتت تقضي أغلب أوقات فراغها برفقته.

قبل ساعة من موعد غداء يوم السيدات - وهي مجلة نسائية ذائعة الصيت، تنشر إعلانات ملونة لمختلف الأطعمة والمطاعم على صفحتين مزدوجتين يتغير مكانهما كل شهر - ذهبنا في جولة تعريفية لمرافق المطبخ، التي بدت لامعة وأبدية، ورأينا كيف من الصعب تصوير حلوى التفاح تحت الأضواء الساطعة، بسبب ذوبان البوظة باستمرار، مما يستدعي تثبيتها من الخلف بواسطة أعواد الأسنان، والتخلص منها كلما بدت رخوة للغاية.

كان منظر الطعام المكدس في تلك المطابخ يصيبني بالغثيان. ليس لأنه لم يكن لدينا ما يكفي من الطعام في المنزل، ولكن لأن جدتي كانت تحرص، دائماً، على طهي وجبات مقتصدة من شرائح

اللحم، وأرغفة اللحم، وكلما رفع أحدنا اللقمة إلى فمه، قالت: (آمل أن تستمتعوا بهذا الطعام، لقد كلفني الرطل الواحد خمسة وأربعين سنتاً)، جعلني ذلك أتخيل أنني أتناول قطع النقود بدلاً من اللحم المشوي أيام الأحد.

بينما كنا نقف خلف مقاعدنا، مستمعين إلى كلمات الترحيب، أحنيت رأسي واختلست النظر إلى موضع صحن الكافيار، وانتبهت إلى وجود طبق في موقع استراتيجي، بين مقعد دورين الشاغر وبين مقعدي. خمنت أن الفتاة التي تجلس أمامي لن تستطيع الوصول إليه نظراً لوجود صحن المرصبان[7] الضخم في منتصف المائدة، ولو وضعت صحن الكافيار قريباً من مرفقي فلن تستطيع بتسي التي كانت تجلس على يميني من مشاركتي فيه. ناهيك عن وجود طبق آخر من الكافيار عن يمين تلك الفتاة الجالسة قرب بتسي، والتي يمكنها - إن شاءت - أن تأكل منه.

كانت تربطني بجدي دعابة دائمة. كان يعمل مسؤولاً عن النُدل في ناد ريفي، قرب مسقط رأسي، وكانت جدتي تقود سيارتها، كل أحد، لترجع به إلى البيت ليقضي معنا إجازته، التي تصادف يوم الإثنين. كنا نتناوب - أنا وأخي - على الذهاب معها، وفي كل مرة، كان يقدم لنا العشاء، كما لو كنا من ضيوف النادي المنتظمين. كان يحب أن يقدم لي أطباق مميزة وشهية، وحينما بلغت التاسعة، كانت ذائقتي قد تطورت إلى الحد الذي أصبحت به أتلذذ بتذوق حساء الفشيسواز[8] البارد والكافيار وصلصة الأنشوجة.

كان الدعابة تقول إن جدي سيتكفل، خلال زفافي، بإحضار كل الكافيار الذي يمكنني أكله. كان تلك مجرد دعابة، لأنني لم أرغب يوماً في الزواج، وحتى لو قررت ذلك، فإن جدي لن يتمكن كل الكافيار اللازم إلا إذا قام بسرقة مطبخ النادي الريفي، وحمله في حقيبة ما.

هكذا، وسط أصوات قرقعة أقداح الماء والأواني الفضية، والأطباق الخزفية الفاخرة، قمت برصف شرائح الدجاج على طبقي، وغطيت كل شريحة بطبقة سميكة من الكافيار كما لو كنت أدهن قطعة خبز بزبدة الفول السوداني. ثم أخذت التقط قطع الدجاج بأصابعي، الواحدة تلو الأخرى، ممسكة بها على نحو أفقي حتى لا يندلق الكافيار، ثم أكلتها.

اكتشفت ـ بعد سلسلة من المخاوف التي استبدت بي حول نوع الملاعق التي يتوجب عليّ استعمالها ـ أن المرء إذا أساء التصرف حسب أتيكيت المائدة، ولكن بطريقة واثقة، كما لو كان يدرك جيداً أن ما يفعله هو الأتيكيت الصحيح، فسوف ينفذ بجلده، ولن يعتقد أحد أنه يفتقر إلى الآداب العامة، أو أنه قد نشأ على نحو خاطىء، بل على العكس تماماً، سيظن الجميع بأنه بارع ومتفرد بذاته.

لقد اكتشتف هذه الحيلة في اليوم الذي ذهبت فيه برفقة جيسي، لتناول طعام الغداء مع شاعر مشهور. كان الشاعر يرتدي بنطالاً رمادياً وقميصاً من الصوف، مفتوح العنق، ومخطط بألوان تتراوح بين الأحمر والأزرق، في حين أن الرجال الآخرين كانوا يرتدون بدلات سوداء وقمصان ناصعة البياض، كان المطعم مغرقاً بالرسميات، وزاخراً بالنوافير والثريات.

كان الشاعر يتناول السلطة بواسطة أصابعه، يأخذ ورقة خضراء تلو الأخرى، فيما يتحدث إليّ عن التناقض بين الطبيعة والفن. لم أستطع صرف ناظري عن تلك الأصابع البيضاء القصيرة الشاحبة، وهي تتنقل، ذهاباً وإياباً، من صحن السلطة إلى فم الشاعر، أوراق خس مبللة، الواحدة تلو الأخرى، لم يضحك أحد ممن كانوا معنا، ولم يجرؤ أي منهم على الهمس بتعليقات جارحة. لأن الشاعر قد جعل من تناول السلطة بواسطة الأصابع، التصرف الوحيد الطبيعي والمنطقي الذي يمكن لأي أحد القيام به.

لم يجلس بجواري أي أحد من أعضاء هيئة التحرير، أو من طاقم عمل مجلة يوم السيدات، سوى بتسي، التي كانت من الرقة واللباقة بحيث لم تبد أي ميل تجاه صحن الكافيار الذي كان بجانبي. مما جعل ثقتي بنفسي تزداد أكثر وأكثر، عندما انهيت طبقي الأول المكون من الدجاج البارد والكافيار، ملأت صحناً آخر، ثم تناولت سلطة الأفوكادو ولحم السلطعون.

لطالما كانت الأفوكادو فاكهتي المفضلة. كان جدي يحضر لي كل يوم أحد، ثمرة أفوكادو، مخبأة في أسفل حقيبة ملابسه، تحت مجلة هزلية وست قمصان متسخة. كان يعلمني كيف أتناول الأفوكادو عن طريق إذابة مربى العنب مع القشدة الفرنسية في قدر صغير، ثم حشو تلك الصلصة ـ ذات لون العقيق الأحمر ـ داخل جوف الثمرة. إن مجرد تذكر طعم تلك الصلصة يشعرني بالحنين إلى الديار، لقد بدا طعم السلطعون مبتذلاً مقارنة بمذاق تلك الصلصة.

سألت بتسي حين زال قلقي بشأن المنافسة المحتملة على صحن الكافيار: (كيف كان معرض الفرو؟)، وسحبت آخر حبة سوداء مملحة من الصحن بواسطة ملعقة الحساء التي لعقتها حتى أصبحت نظيفة ولامعة.

(كان رائعاً) ابتسمت بتسي. (عرضوا أمامنا طريقة صنع وشاح يصلح ارتداؤه لجميع المناسبات، مصنوع من ذيل المنك[9]، والسلاسل الذهبية، تلك السلاسل التي يمكن أن يشتريها المرء من محل (وول وورث) مقابل دولار وثمانية وتسعين سنتاً. وبعد أن انتهينا توجهت هيلدا مباشرة إلى متجر لبيع الفرو بالجملة، وابتاعت مجموعة من أذيال المنك، بعد أن حصلت على تخفيض كبير، ثم توجهت إلى محل (وول ورث) واشترت السلاسل الذهبية، ثم خاطت كل الأشياء معاً في طريق عودتنا عبر الحافلة).

أمعنت النظر في هيلدا التي كانت تجلس في الجهة المقابلة لبتسي، لا ريب أنها كانت ترتدي وشاحاً يبدو باهظ الثمن، مصنوعاً بشكل متقن من أذناب الفرو المعقودة بسلسلة مذهبة تتمايل من جانب لآخر.

لم أتمكن يوماً من فهم شخصية هيلدا، كان طولها ستة أقدام، ولديها انحراف في عيناها الخضراوتين الواسعتين، وشفتين حمراوين غليظتين، كان يفتقر أسلوبها السلافي[10] في التعبير إلى المعنى، وكانت تحترف صنع القبعات. ثم التحقت بالمجلة لتعمل تحت إشراف محررة الموضة، فتميزت عن الأخريات من ذوات الميول الأدبية، كدورين وبتسي وأنا، حيث كنا نكتب مواضيع متخصصة، حتى وإن كانت مواضيع محصورة عن الصحة والجمال، لا أعلم إن كانت هيلدا تعرف القراءة، لكنها كانت تصنع قبعات رائعة. لقد تعلمت ذلك من خلال دراستها في معهد متخصص لتعليم صناعة القبعات في نيويورك، وكانت تعتمر كل يوم قبعة جديدة في طريق ذهابها إلى العمل، قبعة مصنوعة بيديها من بقايا القش، أو الفرو، أو الشرائط المعقودة بخفة ومهارة.

(هذا رائع) قلت (رائع). اشتقت إلى دورين. لو كانت هنا، لهمست لي بتعليقات ساخرة ومسلية حول قطعة الفرو (المعجزة) التي ترتديها هيلدا حتى ترفع من معنوياتي.

شعرت بالحزن. كانت جيسي قد صارحتني بحقيقتي في ذلك الصباح، فأحسست أن كل تلك الشكوك المؤرقة التي كانت تحوم حولي قد اصبحت حقيقة ماثلة أمامي، ولا أستطيع اخفائها لأكثر

من ذلك. فبعد تسع عشرة سنة من الركض خلف أعلى الدرجات المدرسية والجوائز والمنح من كل أنواعها، أصابني الضجر، وانسحبت من ذلك السباق، رافعة راية الإستسلام.

سألتني بتسي: (لماذا لم تأتي معنا إلى معرض الفرو؟) تولد لدي انطباع أنها كانت تكرر نفسها، وأنها قد طرحت نفس السؤال منذ قليل، ولكنني كنت في الحقيقة مشغولة البال ولم أعر انتباهاً لما كانت تقوله.

(هل ذهبت مع دورين؟)

(كلا) قلت (أردت الذهاب إلى معرض الفرو، ولكنني جيسي اتصلت علي، وطلبت مني فيه أحضر إلى المكتب) لم أكن صادقة حيال رغبتي في الذهاب إلى معرض الفرو، ولكنني حاولت إقناع نفسي بعكس ذلك، حتى أجعل من نفسي ضحية لما قامت به جيسي.

أخبرت بتسي كيف كنت ممددة على السرير، في ذلك الصباح، وأنا عازمة على الذهاب إلى معرض الفرو. لم أخبرها أن دورين قدمت إلى غرفتي في تلك الأثناء وقالت لي: (لم تريدين الذهاب إلى ذلك المعرض التافه. سأذهب مع ليني إلى «كوني آيلاند»[11]، فلم لا تنضمين إلينا؟ سوف يطلب ليني من أحد أصدقائه اللطيفين أن يرافقك، ستشعرين بالضجر، على أية حال، إن ذهبت إلى حفل الغداء والفيلم الذي سيعرض في الظهيرة، لن يلاحظ أحد غيابنا).

كدت أن أخضع لرغبتها. فقد بدا المعرض مملاً. كما أن الفرو ليس من اهتماماتي على الإطلاق، ولكن ما عزمت على القيام به، في نهاية المطاف، كان التمدد فوق السرير، أطول وقت ممكن، ثم الذهاب إلى سنترال بارك[12]، وقضاء اليوم بطوله مستلقية على العشب، على أطول عشب يمكن أن أجده في تلك المساحات الجرداء، ذات البرك الضحلة، والمملوءة بالبط.

أخبرت دورين بأنني لن أذهب إلى معرض الفرو، وإلى حفل الغداء والفيلم الذي سيعرض في الظهيرة، كما إنني لا أرغب أيضاً بالذهاب إلى كوني آيلاند. كل ما أريد فعله هو الإستلقاء في الفراش. وبعدما غادرت دورين، تسائلت في نفسي عن الأسباب التي جعلتني أفقد الرغبة في فعل الأشياء التي يتوجب عليّ القيام بها، مثل الذهاب إلى معرض الفرو، فجعلني ذلك التفكير أشعر بالسوء وبالتعب، ثم تسائلت عن الأسباب التي جعلتني أفقد الرغبة في فعل الأشياء التي لا يتوجب عليّ القيام بها، مثل الأشياء التي تفعلها دورين، فجعلني ذلك أزداد حزناً وسوءاً.

فقدت الإحساس بالزمن، ولكنني سمعت أصوات الفتيات وهن يستعجلن بالخروج، وينادين على بعضهن في الرواق، ويتأهبن للذهاب إلى معرض الفرو. ثم انقطعت الأصوات وعم السكون في المكان، وبينما كنت مستلقية على ظهري فوق السرير، محدقة في فراغ السقف الأبيض، بدأ الصمت ينمو أكثر فأكثر، حتى شعرت بأنني فقدت الإحساس بأذني. ثم رن الهاتف. نظرت إليه. كانت السماعة تهتز قليلاً في موضعها الذي بلون العظم، فكان ذلك مؤشراً على أن الهاتف يرن بالفعل. فكرت أنني قد أعطيت رقم هاتفي إلى شخص ما في إحدى الحفلات الراقصة ثم نسيت أمره. رفعت السماعة وقلت بصوت مبحوح:

(مرحبا؟)

(انا جيسي) قالت بشكل سريع ووحشي (هل تفكرين بالحضور إلى المكتب اليوم؟)

تمرغت في الملاءات. لماذا تظن جيسي أنني أفكر بالذهاب إلى المكتب؟ كان لدينا ما يكفينا من البطاقات التي نُسخت عليها جداول أعمالنا حتى نتمكن من معرفة الأنشطة التي يتوجب علينا القيام بها، فكنا نقضي كل أيامنا بعيدين عن المكتب ومنشغلين في حضور بعض الأنشطة المقامة في البلدة. ومما لا شك فيه أن حضور بعض تلك الأنشطة كان اختيارياً.

ترددت. ثم قلت في خضوع: (كنت أفكر بالذهاب إلى معرض الفرو). لم أفكر بذلك في الواقع، ولكنني لم أعرف ماذا أقول.

بعدما أغلقت الهاتف، أخبرت بتسي:(قلت لها أنني أفكر بالذهاب إلى معرض الفرو، لكنها طلبت مني أذهب إلى المكتب، حتى تتحدث إلى قليلاً، ونناقش بعض الأعمال التي يتوجب إنجازها)

(آه، أه!) قالت بتسي بتعاطف. لعلها انتبهت إلى دموعي التي كانت تتساقط في طبق البوظة التي أعطتني إياه بدون أن تتناول منه شيئاً، فجلست آكل فيه وأنا شاردة الذهن، وعندما انتهيت من طبقي، شعرت بالخجل من دموعي، ولكن يكفيني أنها كانت دموعاً حقيقية، فلقد أخبرتني جيسي بأشياء رهيبة.

عندما دخلت إلى المكتب في الساعة العاشرة صباحاً، قامت جيسي من مقعدها، ثم استدارت حول مكتبها وأغلقت الباب. جلست في الكرسي الدوار الموضوع أمام آلة الطباعة، فيما جلست هي

في الكرسي الذي خلف مكتبها المواجه لي، كانت النافذة المطلة على مكتبها مليئة بأصائص النباتات، كذلك كانت جميع الأرفف المجاورة لها، بارزة خلف ظهرها مثل حديقة استوائية

(ألا يهمك عملك، يا إيستر؟)

(أوه، بل يهمني، يهمني)، قلت (إنه يهمني بشدة). شعرت أن الصراخ بتلك الكلمات سوف يجعلها أكثر إقناعاً، لكنني سيطرت على نفسي.

لطالما تخيلت أن الدراسة والكتابة والعمل كمجنونة هو كل أطمح إليه، وبدا ذلك أمراً واقعاً، فلقد أنجزت كل شيء على نحو جيد، فحصلت على علامات كاملة، ولم يعيقني أي شيء عن الإلتحاق بالجامعة.

عملت مراسلة جامعية لصحيفة البلدة، (صحيفة غازيت)، ومحررة في المجلة الأدبية، وسكرتيرة مجلس الشرف، وهو مجلس شعبي يتعامل مع الإنتهاكات الإجتماعية والأكاديمية والعقوبات التي تُفرض جراء ذلك، وكنت على علاقة وطيدة مع شاعرة معروفة تعمل أستاذة في هيئة التدريس، كانت تدعمني لأتخرج من أكبر جامعات الشرق (الأمريكي)، ووعدتني بالحصول على منحة كاملة. وأنا الآن أتمرن محررةً في أفضل مجلة أزياء ثقافية، كنت مثل حصان متعب يجر عربة وراءه.

(إنني مهتمة بكل الأشياء)، هوت الكلمات من الفراغ العميق إلى مكتب جيسي، مثلما تهوي الكثير من القطع النقدية المصنوعة من الخشب.

(تسرني معرفة ذلك) قالت جيسي بطريقة مستفزة (تستطيعين تعلم الكثير مما يتعلق بالمجلة خلال هذا الشهر إن شمرت عن ساعديك. الفتاة التي كانت تعمل في محلك سابقاً، لم تهتم بعروض الأزياء، ولكنها انتقلت من هذا المكتب لتعمل مباشرة في مجلة تايم)

(يا إلهي!) قلت بذات النبرة الكئيبة (كان ذلك سريعاً!)

(بالطبع، مازالت أمامك سنة كاملة لتلتحقي بالجامعة) وصلت جيسي حديثها على نحو أقل حدة (ماذا ستفعلين بعد التخرج؟)

كان الحصول على منحة للتخرج، أو منحة للدراسة في أوروبا، هو الحلم الذي يشغل تفكيري طوال الوقت. حلمت أن أصبح أستاذة جامعية، وأكتب دواوين شعرية، وأكون محررة من طراز معين، كانت هذه الأحلام على طرف لساني، ولكنني سمعت نفسي أقول لها: (لا أعرف تماماً). شعرت بهزة عميقة عندما سمعت نفسي وأنا أقول ذلك، لأن كلامي قد بدا صادقاً في اللحظة التي تلفظت فيها بتلك الكلمات، كان صادقاً، فتعرفت على نفسي، مثل شخص غريب كان يتسكع حول باب بيتك لسنوات طويلة، ثم يأتي فجأة، ويقدم نفسه على أنه والدك الحقيقي، وتكتشف أن لديه نفس ملامحك، فتعرف أنه والدك الحقيقي فعلاً، وأن الشخص الذي كنت تعتقد بأنه والدك طوال حياتك، كان دجالاً.

(لا أعرف تماماً).

(لن تحصلي على مرادك بهذه الطريقة). صمتت جيسي ثم قالت (ما اللغات التي تتقنين التحدث بها؟)

(آه، أعتقد أني أتقن التحدث بالفرنسية قليلاً، وكنت أرغب دائماً في تعلم الألمانية). مضت خمس سنوات وأنا أخبر الناس عن رغبتي في تعلم الألمانية.

كانت أمي تتحدث باللغة الألمانية عندما كانت طفلة في أمريكا، ولكن مجموعة من الأطفال رشقوها بالحجارة خلال الحرب العالمية الأولى، أما أبي، الذي مات وأنا في التاسعة من عمري، فقد قدم من قرية صغيرة، تتوارث الكآبة، تقع في قلب روسيا الأسود، وكان أخي الأصغر في تلك الأثناء يخوض تجربة التعايش العالمي في برلين، متحدثاً الألمانية مثل سكانها الأصليين.

ما لم أقله هو أنني كلما التقطت قاموساً أو كتاباً ألمانياً، فإن تلك الحروف الكثيفة السوداء، تبدو مثل أسلاك شائكة، وتجعل عقلي ينغلق مثلما تنغلق الأصداف على نفسها.

(لطالما فكرت في العمل بمجال النشر). حاولت أن استرجع الخيط الذي يقودني إلى مهارتي القديمة في عالم المبيعات. (أعتقد أن الشي الوحيد الذي يتوجب عليّ القيام به هو التقديم على وظيفة للعمل في إحدى دور النشر).

(يتوجب عليك قراءة الفرنسية والألمانية)، قالت جيسي من دون شفقة، (وربما بعض اللغات الأخرى أيضاً، مثل الأسبانية والإيطالية، ومن الأفضل تعلم الروسية أيضاً. تتوافد مئات الفتيات إلى نيويورك في شهر يونيو، معتقدات أنهن سوف يصبحن محررات. ينبغي عليك أن لا تكوني تافهة. من الأفضل أن تتعلمي المزيد من اللغات).

لم تكن لدي الجرأة الكافية لإخبار جيسي بأن جدول أعمالي مزدحم ولا مكان فيه لتعلم اللغات. كنت ملتحقة بإحدى البرامج الشرفية التي تعلمك التفكير باستقلالية، وأتوقع الإلتحاق بمساق يبحث في أعمال تولستوي ودوستويفكسي، وحلقة دراسية حول الأساليب المعاصرة في كتابة الشعر، بالإضافة أنني سأكون منهمكة في كتابة بعض المواضيع المحيرة التي تدور حول أعمال جيمس جويس. لم أختر الموضوع الذي سوف أكتب عنه بالتحديد، لأنني لم أقرأ (يقظة فينيغان) بعد، لكن أستاذي كان متحمساً لأطروحتي، فوعد أن يزودني ببعض المراجع التي ستساعدني على فهم الصور المتعلقة بالتوأم.[13]

(سأرى ما يمكنني فعله)، أخبرت جيسي. (لعلي ألتحق بدورة مكثفة لتعليم مبادىء اللغة الألمانية). فكرت في تلك الأثناء أن قد أفعل ذلك حقاً. فقد كانت لدي مهارة في إقناع العميدة بالسماح لي بالقيام بنشاطات غير منتظمة، لقد اعتبرتني تجربة مثيرة للإهتمام.

توجب عليّ دراسة الفيزياء والكيمياء في الكلية، بعد أن أنهيت دراسة مساق في علم النبات وأبليت فيه بلاء حسناً. كنت أجيب على جميع الأسئلة بطريقة صحيحة طوال السنة. فخطر ببالي أن أصبح عالمة نبات، وأن أدرس الأعشاب البرية في أفريقيا أو في الغابات المطرية بجنوب أمريكا، بوسع الإنسان أن يحصل على منح دراسية كاملة عندما يتعلق الأمر بدراسة التخصصات الغريبة في الأماكن الغريبة، على نحو أسهل بكثير من الحصول على منح لدراسة الفنون في إيطاليا أو دراسة الأدب الإنجليزي في إنجلتزا؛ فليس هناك الكثير من المنافسة التي تذكر.

كانت دراسة علم النبات رائعة، لأنني أحببت تقطيع الأورق ووضعها تحت المجهر، ورسم مخططات للعفن، والورقة التي تأخذ شكل القلب في دورة حياة السرخس الجنسية، كانت تبدو حقيقية بالنسبة إلي.

كان اليوم الذي حضرت فيه درس الفيزياء لأول مرة، يوماً قاتلاً.

وقف رجل قصير أسود البشرة (يدعى السيد مانزي) يصيح بصوت عال، أمام طلاب الصف، مرتدياً بدلة زرقاء ضيقة، وحاملاً بيده كرة خشبية صغيرة. وضع الكرة على شريحة منحدرة فانزلقت للأسفل. ثم أخذ يتحدث عن أن (أ) تساوي التسارع و(ت) تساوي الزمن، ثم راح يخربش على السبورة أحرفاً وأرقاماً تفصلهم علامة (يساوي)، فتوقف عقلي عن التفكير.

أخذت كتاب الفيزياء إلى مهجعي، كان كتاباً ضخماً منسوخاً على ورق شفاف، - يحتوي على أربعمائة صفحة جرداء بلا صور أو رسوم، الكثير فقط من المعادلات والرسومات التخطيطية - بين دفتي غلاف من الورق المقوى بلون القرميد الأحمر. كان الكتاب من تأليف السيد مانزي ليشرح فيه مبادىء الفيزياء لبنات الكلية، وإذا نجح الكتاب بيننا فسوف يعمد إلى نشره.

حسناً، لقد درست تلك المعادلات، وذهبت إلى قاعة الدرس وشاهدة الكرات وهي تنزلق على المنحدرات، وأنصت إلى الأجراس وهي تقرع في نهاية الفصل الذي أخفقت فيه معظم الفتيات، فيما حصلت على علامة كاملة. سمعت السيد مانزي وهو يقول لمجموعة من الفتيات اللواتي كن يتذمرن من صعوبة الدرو، (كلا، إن الدروس لم تكن صعبة إلى هذا الحد، فقد حصلت إحداكن على علامة كاملة) قالوا (من هي؟ أخبرنا) لكنه اكتفى بهز راسه، ولم ينبس بكلمة، مكتفياً بتوجيه ابتسامة رقيقة ومتآمرة نحوي.

جعلني ذلك أعقد العزم على عدم الإلتحاق بفصل الكيمياء القادم، فقد أكون حققت العلامة الكاملة في مادة الفيزياء، ولكنها جعلتني أشعر بالذعر الشديد، وأصابني التفكير فيها بالمرض طوال الوقت. حتى انتهى بي المطاف وأنا أشمئز من النظر إلى الأرقام. فبدلاً من النظر إلى أشكال أوراق النباتات، والرسومات التخطيطية المضخمة لثقوبها التي تتنفس من خلالها، والإستماع للكلمات ذات الإيقاع الساحر، مثل (الكاروتين واليصفور)، كنا نستمع إلى تلك المعادلات البشعة والعصية على القراءة، ذات الأحرف الشبيهة بالعقارب، التي كان يخطها السيد مانزي بطبشورته الحمراء.

أدركت أن الكيمياء سوف تكون اسوأ حالاً، حيث رأيت جدولاً بيانياً من تسعين عنصراً غريباً كان معلقاً في مختبر الكيمياء. كانت كل الكلمات التي لها إيقاع رائع، مثل الذهب والفضة والكوبالت والألمنيوم، مختصرة بصيغ قبيحة وملحوقة بأرقام عشرية. كنت سأجن لو حشوت عقلي بالمزيد من ذلك الهراء. سأفشل تماماً. لقد بذلت جهداً رهيباً لأجبر نفسي على احتمال نصف السنة الأولى.

وهكذا، ذهبت إلى العميدة، وأنا أحمل معي خطة ذكية.

كانت خطتي تتلخص في حاجتي إلى الوقت لألتحق بحلقة دراسية حول شكسبير، لا سيما وأنني أدرس تخصص الأدب الإنجليزي، كانت تعرف، مثلي تماماً، أنني سوف أحصل على علامة كاملة مرة أخرى في امتحان الكيمياء، فما أهمية أن أخوض الإمتحانات؟ لماذا لا أذهب إلى قاعات الدرس، وانظر، وأدون كل شيء، ثم أنسى أمر العلامات والتقدير؟ كانت مسألة شرف بين مجموعة من الناس الجديرين بالإحترام، إن الجوهر يعني أكثر من المظهر، والعلامات تبدو سخيفة حينما تحصل على العلامة الكاملة دائما، أليس كذلك؟ كانت حقيقة أن الجامعة سوف تلغي مقررات العلوم، للسنة الثانية، معززة لخطتي، فكان صفي آخر الصفوف التي سوف تخضع للأنظمة القديمة.

وافق السيد مانزي على خطتي تماماً. أظنه شعر بالزهو عندما ظن أنني أستمتع بالاستماع إلى دروسه، إلى الحد الذي يجعلني أقبل عليها بدون أن تكون لي أية دوافع مادية، كالحصول على علامة كاملة، بل من أجل جمال الكيمياء في حد ذاتها. أظن بأنني قد تصرفت على نحو بارع عندما اقترحت الإلتحاق بدرس الكيمياء حتى بعد التحول إلى الحلقة الدراسية التي تتناول أعمال شكسبير. فقد كان من غير اللائق أن أظهر لهم مدى سأمي من الكيمياء.

بالطبع، لم أكن لأنجح في هذا المخطط لو لم أحصل على علامة كاملة في المقام الأول، ولو عرفت العميدة كم كنت مذعورة ومكتئبة، وكيف فكرت بجدية بتلك العلاجات اليائسة، كالحصول على شهادة في الطب، رغم أنني لا أستطيع تحمل دراسة الكيمياء. ولا النظر إلى تلك المعادلات التي كانت تصيبني بالدوار، إذا اكتشفت العميدة ذلك، فلن تستمع إليّ أبداً، وسترغمني على الإلتحاق بالدرس، رغم كل شيء.

وحدث أن وافقت هيئة التدريس على التماسي، أخبرتني العميدة بوقت لاحق أن طلبي أثار تعاطف عدد من الأساتذة، فاعتبروه خطوة حقيقية نحو النضج الفكري.

كان الضحك يغمرني كلما فكرت في ما تبقى من تلك السنة، كنت أذهب إلى درس الكيمياء خمس مرات في الأسبوع ولم أتخلف عن حصة واحدة. وكان السيد مانزي يقف في الجزء السفلي من مدرج كبير متهالك، صانعاً ألسنة لهب زرقاء، وأنواراً ساطعة حمراء، وغيوماً من مادة صفراء، ويسكب محتويات أحد أنابيب الاختبارات في انبوب آخر. قاومت وصول صوته إلى أذني،

متظاهرة أنه ليس سوى بعوضة سارحة في المدى، فجلست في الخلف مستمتعة بالأضواء البراقة والنيران الملونة، وكتبت ورقة إثر أخرى، من النصوص والقصائد ثنائية القافية.

كان السيد مانزي يرمقني، بين حين وآخر، ويشاهدني وأنا أكتب، فيبتسم لي ابتسامة عذبة ورقيقة، كان يظنني أدون كل تلك المعادلات - ليس لأجل الإمتحان، مثل الفتيات الأخريات، بل لأن قد سحرني بشرحه حتى كدت أفقد السيطرة على نفسي.

(4)

لا أعلم السبب الذي جعلني أستحضر إنجازي الموفق بالهروب من دروس الكيمياء بينما كنت جالسة في مكتب جيسي.

كنت أشاهد السيد مانزي، أثناء حديث جيسي، وهو يتطاول محلقاً في الهواء خلف رأسها، كما لو خرج من جوف قبعة، ممسكاً بيديه كرته الخشبية الصغيرة، ودورق التجارب الذي كان يشكل غيمة صفراء رفيعة في الهواء كالتي تنطلق في اليوم الذي يسبق احتفالات أعياد الفصح. كانت تفوح من دخانه رائحة البيض الفاسد بينما كان يضحك مع بقية الفتيات بشكل هستيري.

شعرت بالحزن تجاه السيد مانزي، ووددت أن أركع أمامه وأجثو على ركبي متوسلة إليه أن يغفر لي تظاهري بالصدق أمامه.

ناولتني جيسي مجموعة قصص قصيرة، ثم راحت تتحدث إليّ بعطف أكبر. قضيت بقية ذلك الصباح وأنا أطالع القصص، وأطبع الأراء التي راودتني تجاهها على اوراق الملاحظات الوردية الخاصة بالمكتب، ثم أرسلتها إلى مكتب المحررة الذي تتواجد فيه بتسي لتقرأها في اليوم التالي. كانت جيسي تقاطعني، بين حين وآخر، لتخبرني ببعض الأمور العملية، أو لتنقل إليّ بعض الأخبار.

كانت جيسي تنوي تناول طعام الغداء، في ظهر ذلك اليوم، برفقة اثنين من الكتاب المشهورين، كاتب وكاتبة، كان الكاتب قد نشر حديثاً ست قصص قصيرة لمجلة نيو يوركر، وستة قصص أخرى لجيسي. عجبت لذلك الأمر، فلم أكن أتوقع أن المجلات يمكن أن تشتري ذلك الكم من القصص دفعة واحدة، كما أخذت عقلي فكرة المبلغ المهول الذي يمكن أن يحصل عليه الكاتب جراء

نشر قصصه عن طريق مجلة مشهورة. أخبرتني جيسي أنها ستتوخى الحذر خلال حديثها معهما على مائدة الغداء، لأن الكاتبة التي سترافقهم لم تنشر أي من قصصها في مجلة النيو يوركر، ولم تشتر جيسي سوى قصة واحدة من قصصها خلال خمس سنوات. كان يتوجب على جيسي أن تتملق الكتاب المشهور، وأن تحرص في الوقت نفسه ألّا تجرح مشاعر الكاتبة الأقل حظاً في الشهرة.

وقتها رفرفت طيور الملائكة المعلقة في ساعة الحائط الفرنسية، بأجنحتها إلى الأعلى وإلى الأسفل، وهي تنفخ أبواقها الذهبية بين شفاهها، متغنية باثنى عشرة نغمة مختلفة، الواحدة تلو الأخرى، أخبرتني جيسي أنني قد أنجزت ما يكفي من العمل في ذلك اليوم، وأصبح بمقدوري الإنضمام للجولة التي تنظمها مجلة (يوم السيدات)، وبحفلة الغداء التي تقيمها، ومشاهدة الفيلم الذي سوف يعرضونه، وأنها تريد أن تراني مشرقة ومبكرة في الحضور غداً.

ثم تركت معطفها ينزلق على قميصها الأرجواني، واعتمرت على رأسها قبعة بنفسجية مقلدة، ووضعت القليل من البودرة على أنفها، ثم عدلت من وضعية نظارتها السمكية. كانت تبدو بشعة وذكية في ذات الوقت. وعندما هممت بمغادرة المكتب، ربتت على كتفي بيدها المغطاة بقفاز أرجواني.

(لا تدعي المدينة الشريرة تستحوذ عليك).

جلست هادئة لبعض الوقت على الكرسي الدوار، وأنا أفكر في جيسي، محاولة تخيل نفسي مكان (بي جي Be Gee) المحررة الشهيرة، في مكتب محاط بالكثير من المزهريات البلاستيكية المليئة بالنباتات والزنابق الأفريقية التي يتوجب على سكرتيرتي سقايتها كل صباح. تمنيت لو كانت لدي أم مثل جيسي، عندها سيتوجب عليّ أن أعرف ما أريده بالفعل.

أمي لم تكن مصدر دعم بالنسبة لي، كانت تقدم دروساً في لغة الإختزال (الستينوغرافي)[14] وتعمل في الطباعة لتعيلنا بعد وفاة والدي، لقد كانت تكره عملها، مثلما كرهت والدي لأنه مات بدون أن يترك لها المال، فهو لم يكن يثق بوكلاء التأمين على الحياة، كانت والدتي تلح علي باستمرار لأكون خلفاً لها في تعلم لغة الاختزال بعد تخرجي من الكلية، حتى يكون لدي مهارة عملية إضافية إلى جانب الدرجة الجامعية التي سوف أحصل عليها. كانت تقول لي دائما: (حتى الرسل كانوا يصنعنون الخيام). (كان يتوجب عليهم العيش، مثلما يتوجب علينا أيضاً).

قمت بتغطيس أصابع يدي في صحن الماء الدافىء، الذي وضعته إحدى الخادمات العاملات في حفلة مجلة (يوم السيدات) مكان طبق البوظة الفارغ. وجففت كل إصبع على حدا بواسطة منديلي الحريري الذي كان لا يزال نظيفاً على نحو ما. ثم طويت المنديل الحريري ووضعته بين شفتي ثم زممتها عليه. وحين وضعت المنديل على الطاولة، وجدت شكل شفاه وردية مضطربة، مرسومة في وسطه، كقلب صغير.

فكرت في المشوار الطويل الذي أوصلني إلى هنا.

شاهدت صحن غسل الأصابع لأول مرة في منزل السيدة التي كانت تشملني برعايتها. جرت العادة أن يقوم طلاب الكلية بإرسال خطاب شكر إلى الشخص الذي يقدم إليهم المنح الدراسية، إن كان على قيد الحياة ـ كما أخبرتني بذلك السيدة القصيرة ذات الوجه المليء بالنمش عندما تقدمت بطلب منحة في المكتب الذي تعمل فيه.

كنت أستفيد من منحة السيدة (فيلومينا غوينيا)، وهي روائية ثرية درست في الكلية التي أدرس فيها حالياً في أوائل القرن التاسع عشر. تحولت روايتها الأولى إلى فيلم صامت لعبت فيه بيتي ديفس (Bette Davis)[15] دور البطولة، كما تحولت إلى مسلسل إذاعي لا تزال حلقاته تبث حتى الآن. عرفت أنها ما زالت على قيد الحيا، وأنها تقطن في منزل كبير قرب النادي الريفي الذي يعمل فيه جدي. فأرسلت إليها خطاباً مطولاً مكتوباً بالحبر الأسود الداكن، على ورق رمادي نقش عليه اسم الكلية بالحبر الأحمر. أخبرتها كيف تبدو الأوراق جميلة وهي تتساقط في الخريف، حين أركب دراجتي الهوائية نحو التلال، وكم هو جميل العيش داخل حرم الكلية بدلاً من قضاء الوقت في التنقل بين الحافلات، والاضطرار للعيش في أحد المنازل البعيدة، وكيف وجدت أبواب المعرفة تنفتح أمامي، وأنني قد أتمكن ذات يوم، من تأليف كتب عظيمة.

كنت قد قرأت أحد كتب السيدة غوينيا في مكتبة البلدة، فلسبب ما، لم تكن مكتبة الكلية تحتوي على كتبها، كانت صفحات الكتاب تعج من البداية وحتى النهاية، بأسئلة طويلة محيرة، من مثل: (هل تدرك إيفلين أن غلاديس كانت على علاقة سابقة بروجر؟ يتساءل هكتور. وكيف يمكن لدونالد أن يتزوجها عندما يعرف أمر الطفل الذي يتوارى عن الأنظار مع السيدة رولموب بالقرية الريفية المنعزلة؟ وجهت غرزلدا سؤالها إلى وسادتها الباردة المضاءة بنور القمر). هذه النوعية من الكتب

أدرت الملايين والملايين من الدولارات إلى حساب فيلومينا غوينيا، التي أخبرتني لاحقاً، أنها كانت في غاية البلاهة عندما كانت طالبة في الجامعة.

أجابت السيدة غوينيا على رسالتي، ثم دعتني لتناول طعام الغداء في منزلها. هناك، وقعت عيناي لأول مرة على صحن غسل الأصابع.

كانت ثمة أزهار كرز تطفو فوق سطح الصحن، فظننته حساء يابانياً يقدم بعد الغداء. لذلك قضيت على كل ما في الصحن دفعة واحدة، بما في ذلك الأزهار الضغيرة المنعشة. لم تعلق السيدة غوينيا بأي كلمة مطلقاً، ولم أعرف حقيقة الصحن إلا بعد وقت طويل، حيث أخبرتني بذلك فتاة في سنتها الدراسية الأولى تعرفت عليها في الكلية.

عندما غادرنا المنطقة الداخلية المشمسة التابعة لمكاتب مجلة (يوم السيدات)، كانت سحب داخنية تتصاعد من الشوارع الرمادية جراء المطر المنهمر. لم يكن مطراً من النوع الجميل الذي يمكنك أن تغتسل بطهارة ماءه، بل من النوع الذي يغمر غابات البرازيل بكل تأكيد. كانت قطراته التي تتساقط من السماء بحجم فنجاين القهوة، تسقط على نواصي الشوارع الملتهبة، ثم تبعث إلى السماء مرة أخرى سحباً من البخار، تتلوى من الإسفلت الأسود المضيء بصوت يشبه الهسيس.

تبددت آمالي السرية بقضاء فترة ما بعد الظهيرة لوحدي في سنترال بارك، فعندما دخلت إلى الغرفة الزجاجية للأبواب الدوارة الخاصة بمجلة (يوم السيدات). وجدت نفسي أخرج تحت الأمطار الدافئة إلى أن احتميت داخل سيارة أجرة معتمة، برفقة بتسي وهيلدا وإميلي آن أوفنباخ، وهي شابة يافعة أنيقة، تصفف شعرها الأحمر على شكل كعكة فوق العنق، ولديها زوج وثلاثة أبناء يعيشون في (تيينك - نيو جيرسي).

كان الفيلم في غاية الرداءة، كانت البطلة ممثلة شقراء وجميلة تشبه (جون أليسن June Allyson) [16]، كما كانت هناك إحدى الممثلات المثيرات، لديها شعر أسود كالفحم مثل إليزابيث تايلر (Taylor Elizabeth)[17]، وممثلان آخران ضخمان بمناكب عريضة، يحملان اسمين على شاكلة (ريك)، و(جيل).

كان فيلماً رومانسياً بالألوان، يدور حول كرة القدم.

أكره الأفلام الملونة، حيث يبدو كل شخص في هذه الأفلام مضطراً لارتداء أزياء صارخة في كل مشهد جديد والوقوف مثل منشر الغسيل، ناهيك عن لون الأشجار الخضراء جداً، أو الحنطة الصفراء جداً، أو البحر الأزرق جداً، وهو يمتد لأميال وأميال في كل اتجاه.

تجري معظم أحداث الفيلم في مدرجات ملعب كرة القدم، حيث تلوح الفتاتان، وتهتفان مشجعات، ومرتديات ملابس أنيقة تحمل في طياتها أزهار الأقحوان، أو تدور المشاهد الأخرى في قاعات البالية، حيث تتدحرج الفتاتان على الارضية مع عشيقيهما، مرتديات فساتين كالتي ظهرت في فيلم (ذهب مع الريح) ثم تنسحبان بهدوء إلى دورة المياه كي يضعن المساحيق ويتهامسن بأشياء بذيئة.

كان من الواضح أن الفتاة الجميلة سوف تفوز ببطل كرة القدم الوسيم، بينما ستجد الفتاة المثيرة نفسها وحيدة في نهاية المطاف، لأن الرجل الذي يدعى (جيل) كان يرغب، منذ الوهلة الأولى، في عشيقة وليس في زوجة، وكان يلملم أغراضه متجهاً إلى أوروبا بمفرده.

خلال هذه الأثناء، بدأت أشعر بالغرابة. التفت حول طوابير الرؤوس الصغيرة السابحة في عالم آخر، كان شعاع فضي يغمر المقدمة ويغطي كل تلك الرؤوس من الأمام ويخلف الظلال السوداء في المؤخرة، جعلهم ذلك يبدون كمجموعة من الأغبياء.

انتابني شعور مهدد بالقيء. لم أدر إن كان الفيلم الرديء الذي شاهدته هو السبب بمغص معدتي الحاد. أم كان الكافيار الذي تناولته.

همست إلى بتسي في وسط الظلام (سأذهب إلى الفندق)

كانت بتسي تحدق في شاشة العرض بشكل جدي (هل أنت على ما يرام؟) همست وهي لا تكاد تحرك شفتيها.

(كلا، ينتابني شعور جهنمي)

(وأنا أيضاً، سأرافقك إلى الفندق)

انسحبنا من مقاعدنا، ونحن نعتذر للجالسين بجوارنا في الصف لمرورنا من أمامهم، كانوا يحركون مواضع مظلاتهم وأحذيتهم الشتوية ليفسحوا لنا الطريق، فيما كان بقية الأشخاص الذين ورائنا يصدرون أصواتاً تنم عن امتعاضهم. كنت أخطو فوق أكبر عدد ممكن من الأقدام، حتى أصرف تفكيري عن سيطرة تلك الرغبة الملحة بالتقيؤ، التي بدأت تزداد حدة وحضوراً حتى بت لا أفكر بأي شيء سواها.

حين خطونا إلى الشارع، كانت بقايا المطر الفاتر تنهمر، كما ينهمر الماء عبر الغربال.

بدت بتسي مذعورة. ذهبت الأزهار التي كانت تورد وجنتيها، بدا وجهها المستنزف أخضر اللون ومتصبباً بالعرق. وجدنا إحدى سيارات الأجرة ذات المربعات الصفراء، من النوع الذي يقف دائما في زاوية الشارع في انتظار الراكب المتحير الذي لم يحسم قراره في استقلال سيارة الأجرة. كنت قد تقيأت مرة واحدة قبل وصولنا إلى الفندق، فيما تقيأت بتسي مرتين.

كان سائق العربة ينعطف بقوة، فارتمينا في جهة اليمنى من المقعد الخلفي، ثم إلى الجهة اليسرى مرة أخرى، وكلما شعرت واحدة منا بالغثيان، مالت بهدوء إلى الأمام كما لو كانت تحاول التقاط شيء أوقعته، فيما كانت الأخرى تدندن متظاهرة بالنظر خارج النافذة. بدا السائق رغم كل هذه المحاولات، محيطاً بما يجري داخل سيارته.

(مهلاً) قال السائق محتجاً وهو يتجاوز الإشارة الحمراء. (لا يمكنكما فعل ذلك في سيارتي. من الأفضل أن تخرجا، وتفعلا ذلك في الشارع).

لم ننطق بشيء، أظن بأنه اعتقد أننا على وشك الوصول إلى الفندق، فلم يشأ أن يخرجنا قبل أن نتوقف أمام المدخل الرئيس.

لم نجرؤ على انتظار سائق الأجرة ليقدم لنا بقية المبلغ الذي أعطيناه له، قمنا بإعطاءه كومة من العملات الفضية، وألقينا محارم ورقية لتغطية الفوضى التي خلفناها وراءنا، ثم ركضنا عبر الرواق إلى أن وصلنا إلى المصعد الفارغ مباشرة، لحسن الحظ، كان الجو هادئاً في الفندق في اللحظة التي وصلنا فيها، وعندما صعدنا في المصعد تقيأت بتسي فأمسكت رأسها بيدي، ثم تقيأت أنا، فأمسكت بتسي رأسي بيدها.

غالباً ما يسيطر على الإنسان شعور عارم بالراحة بعد أن يتقيأ جيداً. عانقت بتسي وودعتها، ثم ذهبت كل واحدة منا في اتجاه مختلف عبر الرواق، حتى نتمدد على أسرتنا. لا شيء يوطد علاقتك بشخص آخرى أكثر من التقيؤ في حضوره.

غير أنني شعرت، حين أوصدت الباب على نفسي ونزعت ملابسي، ساحبة نفسي إلى السرير، أن حالتي تشتد سوءاً. كان أملي الوحيد وقتها هو الذهاب إلى الحمام. تمكنت بعد عناء، من ارتداء المنشفة البيضاء المزينة برسومات أزهار الذرة، ومشيت بخطى وئيدة.

كانت بتسي قد وصلت إلى الحمام قبلي، استطعت سماع صوت نحيبها من وراء الباب. أسرعت نحو الزاوية لأذهب إلى الحمام الذي يقع في الجانح الآخر، اعقتدت بأنني سأموت قبل أن أصل إلى الحمام، فقد بدا بعيداً جداً.

جلست على مقعد المرحاض، ثم أحنيت رأسي على حافة المغسلة، وأنا أشعر بأنني أفقد أحشائي مع الطعام الذي التهمته في تلك الليلة. كان الألم يكتسحني من الداخل مثل الموج المضطرب، كان الألم يتلاشى - بعد كل موجة - فيتركني خائرة القوى، كورقة مبلولة، تجتاح القشعريرة كل جزء في جسدي. ثم أشعر بتلك الأمواج، في داخلي، مرة أخرى، وكأن البلاط الأبيض لغرفة التعذيب ينسدح تحت قدمي، ومن فوق رأسي، وفي كل الجهات الأربع، يطوقني، ويعتصرني إلى أن أنتثر إلى قطع صغيرة.

لم أعرف كم مضى من الوقت علي وأنا على هذه الحال. تركت الماء البارد ينساب بقوة في الحوض، دون ان أضع السدادة في مكانها، حتى يعتقد من يأتي أنني أغسل ملابسي. وحينما شعرت بالأمان على نحو معقول، تمددت على أرضية الحمام، مستلقية في هدوء التام.

لم يعد الوقت صيفاً، شعرت أن شهر الشتاء يجتاح عظامي، ويضرب أسناني بعنف. كانت المنشفة الكبيرة البيضاء، التي سحبتها معي، ترقد تحت رأسي، خدرة، كقطع ثلج ساقتها الريح.

أعتقد أنه من غير اللائق أن تكون ممداً على أرضية الحمام بسلام ويأتي شخص طارقاً الباب عليك بكل عنف. يمكنه بكل بساطة أن ينعطف عند الزاوية ويبحث عن حمام آخر، مثلما فعلت أنا، ويتركني أنعم بالسكينة، لكن ذلك الشخص واصل الطرق، متوسلاً أن أفتح الباب. بدا الصوت مألوفاً علي. كما لو كان صوت إميلي أوفنباخ في إحدى أطواره.

قلت (أعطيني دقيقة واحدة من فضلك!) بدت الكلمات ثقيلة على لساني مثل دبس السكر.

لملمت أشتاتي ونهضت ببطء، وسحبت سيفون المرحاض للمرة العاشرة، ثم نظفت المغسلة مما علق بها من شوائب، ثم مددت المنشفة حتى لا تظهر بقع القيء على نحو فاضح. فتحت الباب وخطوت نحو الجناح، سيكون الأمر مخزياً لو نظرت إلى إميلي آن، أو أي شخص آخر، فركزت نظري نحو النافذة التي كانت تتجلى عند نهاية الجناح، ثم وضعت قدماً أمام الأخرى.

كان الشيء الآخر الذي وقعت عليه أنظاري، هو حذاء شخص ما.

كان الحذاء قديم الطراز، سميكاً ومصنوعاً من الجلد الأسود المشقق، وفوق أصابع القدمين كانت هناك فتح مدورة للتهوية، ولمعان باهت. كان الحذاء متجهاً نحوي، شعرت بأن رأسي كان منسدحاً على أرضية صلبة خضراء، وفوقه الحذاء وهو يسحق عظام وجنتي.

حافظت على رباطة شأجشي، وانتظرت الوحي الذي سيلهمني لما يتوجب علي فعله، لمحت - إلى يسار الحذاء - كومة غامقة من أزهار الذرة على أرض بيضاء، فشعرت برغبة في البكاء، كانت تلك منشفة الحمام التي كنت أرتديها، وكان يدي شاحبة وهي تمسك بأطرافها مثل سمك القد[18]

(إنها على ما يرام الآن)

جاء الصوت من منطقة باردة وعقلانية فوق رأسي، لم يخطر ببالي، للحظة، أن الصوت غريب علي، لكنه كان كذلك. كان صوت رجل، والرجال ممنوعون من التواجد في الفندق سواء في الليل أو في النهار.

(كم من الفتيات مثلها؟) واصل الصوت.

أصغيت السمع. بدت الأرضية صلبة على نحو رائع. كان عزائي الوحيد إدراك أنني قد سقطت على الأرض، ولن أسقط من جديد.

(إحدى عشرة فتاة، على ما أظن) أجاب صوت امرأة، أعتقد أنها صاحبة الحذاء الأسود. (أعتقد بوجود إحدى عشرة فتاة إلا واحدة، وبذلك يكون المجموع عشر فتيات).

(حسناً، خذي هذه إلى السرير. سأتولى أمر الأخريات).

سمعت طنيناً أجوفاً في أذني اليمنى، ثم أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً. ثم انفتح باب بعيد، وسمعت أصوات أنين وتأوهات، ثم انغلق الباب مرة أخرى.

امتدت يد إلى تحت إبطي، فسمعت المرأة تقول: (هيا، هيا عزيزتي، نستطيع القيام بذلك). شعرت بأنني أعلو قليلاً، ثم راحت الأبواب تتحرك ببطء، باباً تلو الآخر، حتى وصلنا إلى باب مفتوح، فدخلنا من خلاله.

كانت ملاءة سريري مطوية، فساعدتني المرأة على التمدد وغطت كامل جسدي حتى ذقني. ثم جلست في المقعد المجاور للسرير، وراحت تحرك المروحة بيدها الممتلئة الوردية، واضعة نظارة ذهبية، ومعتمرة قبعة ممرضات بيضاء.

(من أنت؟) سألت بصوت خافت.

(أنا ممرضة الفندق)

(ماذا حل بي؟)

(لقد تعرضت للتسمم)، أجابت بامتعاض. (تسممت، وتسمم الجميع. لم أشاهد أمراً كهذا من قبل. مريضة ملقية هنا، ومريضة هناك. والقيء في كل مكان. ما هو الطعام الذي تورطتن في أكله، أيتها السيدات الشابات؟)

(هل الجميع مرضي؟) سألت، يأخذني الأمل بحصول ذلك.

(جميعكن) أكدت باستمتاع (مريضات كالكلاب، تصرخن مناديات: يا ماما).

كانت الغرفة تحوم حولي بلطف بالغ، كما لو كانت الكراسي والطاولات والجدران تحتفظ بثقلها متعاطفة مع وهني المفاجىء.

(لقد حقنك الطبيب)، قالت الممرضة وهي تقف عند عتبة الباب. (ستغطين في نوم عميق الآن).

ثم احتل الباب مكانها مثل صفحة بيضاء، ثم احتلت صفحة بيضاء مكان الباب، فانسقت نحوها، مبستمة، حتى أنام.

وجدت شخصاً يقف عند وسادتي حاملاً فنجاناً أبيضاً.

(اشربي هذا)

هززت رأسي. فأخرجت الوسادة صوتاً مثل خشخشة القش.

(اشربي هذا، سوف تشعرين بالتحسن).

اقترب فنجان أبيض سميك من أسفل أنفسي، تأملت في الضوء الشاحب، ربما كان الوقت نهاراً أو ليلاً، كانت قطع الزبدة تطفو فوق سطح السائل الكهرماني الشفاف. ورائحة دجاج خفيفة تتصاعد إلى أنفي.

تحركت عيني صوب التنورة التي وراء الفنجان. (بتسي) قلت.

(لست بتسي، إنها أنا).

رفعت ناظري إلى الأعلى، فأبصرت رأي دورين مظللاً على النافذة الشاحبة، وأطراف شعرها الأشقر مضاءة مثل هالة من نور، احتل الظلام وجهها، فلم أتمكن من تمييز ملامحها، لكنني شعرت بحنان احترافي يتدفق من حنايا أصابعها. لعلها كانت بتسي، أو أمي، أو ممرضة متعطرة برائحة السرخس.

حنيت رأسي وارتشفت الحساء، شعرت بأن فمي ممتلىء بالرمال. ثم ارتشفته ثانية وثالثة ورابعة حتى أنهيته.

شعرت بالطهارة والقداسة. وأنني مستعدة لحياة جديدة.

وضعت دورين الفنجان على حافة النافذة، وغاصت في الكرسي المجاور، لاحظت أنها لم تتخذ أي خطوة لإخراج سجائرها، عجبت لذلك، فقد كانت مدخنة شرهة للغاية.

قالت أخيراً: (حسناً، لقد كنت على مشارف الموت)

قلت:(أظن أن ذلك كان بسبب الكافيار)

(ليس الكافيار! إنه لحم السلطعون. لقد قاموا بفحصه، ووجدوا أنه ممتلىء بالتومائين[19]).

تراءت في خيالي مطابخ مجلة (يوم السيدات)، البيضاء السماوية، الممتدة إلى ما لا نهاية. وحبات الأفوكادو المحشوة - حبة حبة - بلحم السلطعون والمايونيز، وأضواء الكاميرا تلتقط صوراً لها تحت الأنوار البراقة. رأيت مخالب السلطعون المرقشة بالقرنفلي وهي تخرج، بطريقة مثيرة، من طبقة المايونيز التي تغطيها، وكوب الكمثرى الصفراء بإطاره الأخضر الداكن الذي كان يحتضن كل تلك الفوضى (السم)

(من قام بالفحص؟)

اعتقدت بأن الطبيب قد أفرغ محتوى معدة إحدى الفتيات، ثم قام بتحليل ما عثر عليه في مختبر الفندق.

(أولئك الأغبياء بمجلة (يوم السيدات). فعندما سقطتن على الأرض، الواحدة تلو الأخرى، مثل قناني البولينغ، هرع أحدهم إلى مكتب المجلة، ثم توجه العاملون في المكتب في حفلة يوم السيدات، وقاموا بفحص كل ما تبقى من طعام على مأدبة الغداء الكبيرة. ها!)

(ها!) تردد صدى صوتي في الأرجاء، كانت عودة دورين أمراً جيداً.

(لقد أرسلوا بعض الهدايا) أضافت. (وضعوها في صندوق كبير، هناك في الرواق)

(كيف وصلت تلك الهدايا بهذه السرعة)

(عبر البريد السريع، ماذا تظنين؟ لن يحتملوا أن يسمع الناس أنكن قد تعرضتن للتسمم في حفلة مجلة يوم السيدات. بإمكانكن مقاضاتهم حتى آخر فلس يملكونه لو قمتن بتوكيل محام بارع)

(ما هي الهدايا؟) لو كانت هدية جيدة فلن أكترث بما حصل، لأنني شعرت بالارتياح جراء ذلك.

(لم يفتح أحد العلب حتى الآن، جميعها ممدة هناك، يتوجب عليّ أن أنقل الحساء إلى جميع المريضات عبر عربة الطعام، فأنا الوحيدة التي مازالت تقف على قدميها، لكنني أحضرت حساءك أولاً).

(أنظري ما الهدية) رجوتها. ثم تذكرت فقلت لها: (لدي هدية لك أيضاً).

غادرت دورين الغرفة إلى الرواق. كان يمكنني سماع صوت خطواتها حولي، ثم صوت تمزيق الغلاف الورقي، أخيراً عادت حاملة بيدها مجلداً ثقيلاً له غلاف لامع مطبوع عليه في كل الجهات، الكثير من أسماء المؤلفين.

(أفضل ثلاثين قصة قصيرة لهذا العام) ألقت الكتاب في حجري. (ثمة إحدى عشرة نسخة أخرى في الصندوق. أظنهم فكروا في إهدائكن شيئاً تقرأوه وأنتن ممدات في الفراش). ثم توقفت فجأة وقالت (أين هديتي؟)

تحسست بيدي حقيبة الكتف، وناولت دورين المرآة التي تحمل اسمها وأزهار الربيع. تبادلنا النظرات، ثم انفجرنا بالضحك.

(تستطيعين تناول حسائي إن رغبت) قالت (لقد وضعوا اثني عشر طبقاً من الحساء فوق العربة بالخطأ. تناولت مع ليني سندويشات سجق بينما كنا ننتظر توقف الأمطار. لا أستطيع تناول شيء آخر الآن)

(أحضريه إلي) قلت. (إنني أتضور جوعاً).

(5)

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، رن الهاتف.

أفقت من عمق الغيبوبة، كانت جيسي قد أرسلت إليّ رسالة وعلقتها في المرآة، تخبرني فيها ألا أتجشم عناء الذهاب إلى العمل، وأن أستريح هذا اليوم حتى تتحسن صحتي على نحو جيد. كما أبدت أسفها تجاه ما سببه لحم السلطعون الفاسد، لذلك لم أستطع توقع هوية الشخص المتصل.

عندما مددت يدي نحو سماعة الهاتف، انعقد السلك مع الوسادة، فأصبح الجزء المخصص للكلام أسفل رقبتي، بينما أصبح الجزء المخصص للإستماع فوق كتفي.

(مرحباً؟)

(الآنسة إيستر غرينوود؟) قال صوت رجولي، يبدو أن له لكنة أجنبية خاصة.

(إنها أنا طبعاً)

(أنا قسطنطين...) وقال اسم عائلته الذي لم أستطع تمييزه، لكثرة حرفي الكاف والسين. لم أعرف شخصاً بهذا الاسم من قبل، لكنني لم أجرؤ على قول ذلك.

تذكرت، حينئذ، السيدة (ويلارد) ومترجمها الفوري.

(بالطبع، بالطبع) صحت، وأنا أحاول الجلوس ممسكة السماعة بكلتا يدي.

لم أصدق أن السيدة ويلارد استطاعت أن تعرفني إلى شخص يدعى قسطنطين.

عرفت مجموعة من الرجال في حياتي، كان لكل واحد منهم اسماً مثيراً للإهتمام، كنت على علاقة سابقة بشخص يدعى (سقراط). كان فارع القامة، وقبيح الوجه، ويمتلك ثقافة واسعة. كما أنه الابن الأكبر لمنتج سينمائي معروف في هوليوود، ولكنه كان كاثوليكياً، فافترقنا. بالإضافة إلى سقراط، كنت على علاقة برجل آخر من روسيا البيضاء يدعى (أتيلا). كان يدرس إدارة الإعمال في كلية بوسطن.

أخذت أدرك تدريجياً أن قسطنطين كان يحاول ترتيب موعد معي خلال ذلك اليوم.

(أترغبين في رؤية مقر الأمم المتحدة بعد الظهيرة؟)

(أستطيع رؤية الأمم المتحدة) أخبرته وأنا أضحك على نحو هستيري، فبدا ذلك مربكاً له.

(يمكنني رؤيتها من خلال نافذتي). ظننت أنني أتكلم الإنجليزية بطريقة أسرع مما يستطيع أن يفهمه.

عم صمت طويل.

ثم قال: (قد ترغبين في تناول شيء ما بعد ذلك).

كانت تلك نفس المفردات التي تستعملها السيدة ويلارد، فانقبض قلبي، كانت السيدة ويلارد من نوعية الأشخاص الذين يدعونك دائماً إلى (تناول شيء ما). تذكرت أن هذا الرجل قد حل ضيفاً على السيدة ويلارد في منزلها عندما قدم إلى أمريكا لأول مرة، حيث كانت السيدة ويلارد تفتح منزلها للأجانب. بموجب شروط معينة، فعندما تسافر هي إلى الخارج يستضيفونها في منازلهم بالمقابل.

بدا واضحاً ببساطة، أن السيدة ويلارد قامت بمقايضة بيتها المفتوح في روسيا مقابل أن (أتناول شيء ما) في نيويورك.

(بلى، أرغب في تناول شيء ما) قلت بصوت خشن. (متى ستحضر؟)

(سأمر عليك بسيارتي في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، تقيمين في فندق الأمازون، أليس كذلك؟)

(بلى)

(آه، أعرف أين يوجد).

انتابني شعور مفاجىء بأن نبرة صوته تنطوي على دلالة خاصة، فخمنت أن بعض الفتيات اللواتي يقمن في الأمازون يعملن سكرتيرات في الأمم المتحدة، وأنه قد اصطحب إحداهن لقضاء بعض الوقت. تركته يغلق هاتفه أولاً، ثم أغلقت هاتفي، واستلقيت على الوسائد، شاعرة بالانقباض.

عدت مرة أخرى لإطلاق العنان لمخيلتي، حالمة بشخص سيحبني بشغف من النظرة الأولى، بموقف نقوم فيه بعمل أشياء مبتذلة، جولة عمل الأمم المتحدة، ثم تناول وجبة خفيفة بعد ذلك!

حاولت أن أرفع من معنوياتي.

ربما يكون هذا المترجم قبيح المنظر، قصير القامة، فأضطر إلى النظر إليه في نهاية المطاف، بنفس الطريقة التي كنت أنظر فيها إلى (بدي ويلارد)، منحتني هذه الفكرة شعوراً بالراحة، لأنني حين نظرت إلى بدي ويلارد للمرة الأولى أدركت استحالة زواجي به حتى لو كان آخر رجل على وجه الأرض، رغم اعتقاد الجميع أنني سوف أتزوجه حينما يغادر المكان الذي يتعالج فيه من داء السل.

كان بدي ويلارد منافقاً.

بالطبع لم أكن أعرف حقيقته في أول الأمر. كنت أظنه أروع شخص عرفته في حياتي، كنت أعشقه رغم البعد، طوال خمس سنوات مضت، دون أن يعيرني أي إهتمام، كم كان وقتاً جميلاً عندما أحببه وبدأ ينتبه إلى وجودي. ثم اكتشفت بالصدفة، حين أخذ يهتم بي أكثر فأكثر، أنه منافق كبير، وها هو الآن يريد الزواج بي، كم أكره تلك الجرأة.

قررت عدم الذهاب إلى الكافتيريا لتناول طعام الإفطار. كان الأمر بالنسبة لي يتطلب ارتداء الثياب من جديد. وما جدوى ذلك إن كنت سأقضي الصباح وأنا أتقلب في السرير، كان بإمكاني الإتصال عليهم، طالبة إرسال الطعام إلى غرفتي، غير أنني سأضطر إلى دفع بعض البقشيش إلى

الشخص الذي سيحضره، لم تكن لدي أدنى فكرة عن المقدار الذي يتوجب عليّ دفعه، فقد عانيت من تجارب فاشلة من جراء تقديم البقشيش إلى العاملين في نيويورك.

حين قدمت إلى نيويورك أول مرة، حمل خادم الفندق الأصلع والقيصر، والذي كان يرتدي زيه الرسمي، حقيبتي إلى المصعد، ثم فتح باب الغرفة بالمفتاح. فأسرعت نحو النافذة لأرى المناظر التي تطل عليها، ثم تنبهت إلى أنه لم يغادر الغرفة بعد. في كان يفتح صنبور الماء الساخن مع الماء البارد في حوض الغسيل، قائلاً: (هذا للماء الساخن، وهذا للبارد). ثم إدار المذياع، وأخبرني بكل أسماء المحطات الإذاعية وتردداتها، فشعرت بعد الإرتياح. فأدرت ظهري ثم قلت بحزم: (أشكرك على حمل حقيبتي).

(شكراً، شكراً، أشكرك، ها!) قال بنبرة صوت مضمرة وشريرة. ثم اختفى وصفق الباب وراءه بقوة قبل أن أعرف ما كان يضمره من ذلك الكلام.

لاحقاً، حين أخبرت دورين عن سلوكه الغريب، قالت: (يالك من ساذجة، كان يريد أن يأخذ إكراميته).

سألتها عن مقدار البقشيش الذي كان من المفترض أن أقدمه له، قالت: (ربع دولار على الأقل، وخمسة وثلاثين سنتاً إن كانت الحقيبة ثقيلة جداً.) كان بإمكاني حمل الحقيبة على نحو جيد من دون مساعدته، لكنه أبدا استعداداً للقيام بذلك عن طيب خاطر، كنت أظن أن هذه الخدمة تدخل ضمن ما دفعته لقاء إقامتي في الفندق.

أكره تقديم النقود لقاء أعمال أستطيع القيام بها لوحدي بكل سهولة، يشعرني ذلك بالتوتر.

أخبرتني دورين أن الإنسان يدفع عشر المبلغ كبقشيش عندما يتلقى أي خدمة من أي نوع، غير أنه لم يكن لدي ذلك المبلغ بالتحديد، وكنت سأشعر بالسخافة إن أعطيته نصف دولار، وقلت له: (خذ خمسة عشر سنتاً، وأرجع إليّ الباقي من فضلك).

وعندما ركبت سيارة الأجرة لأول مرة في نيويورك، أعطيت السائق إكرامية من عشر سنتات، إذ كان المبلغ الذي يجب عليّ أن أدفعه لقاء توصيلي هو دولار واحد، فرأيت أن مبلغ عشر سنتات سيكون مبلغاً مناسباً جداً. ناولت السائق قطعة نقود بابتسامة وتلويحة صغيرة من يدي، ولكن

ما إن وضعها في يده حتى حدق طويلاً. وحينما خطوت إلى خارج السيارة، راجية ألا أكون قد أعطيته عملة كندية عن طريق الخطأ، صرخ بصوت عالٍ، (عليّ أن أعيش كما تعيشين أنت وباقي البشر أيتها الآنسة). كان صوته يدوي بقوة، فارتجفت أطرافي، وأطلقت قدماي للريح. من حسن الحظ أن إشارة المرور كانت حمراء، وإلا كان سيتبعني بسيارته، صارخاً عليّ بتلك الطريقة المحرجة

وحينما سألت دورين عن سبب ذلك قالت بأن نسبة البقشيش قد ارتفعت على الأغلب إلى ما يصل إلى خمسة عشر في المئة منذ آخر مرة كانت فيها في نيويورك، أو أن ذلك السائق كان وغداً بشكل خاص.

مددت يدي، وتناولت الكتاب الذي أهدتني إياه مجلة (يوم السيدات)، وحين فتحته سقطت من طيات أوراقه بطاقة صغيرة، مرسوم على ورقتها الأمامية كلب شعره كثيف وأجعد ويرتدي قميص نوم تزينه الورود، كان مستلقياً بحزن في سلة الكلاب أما في داخل البطاقة كان الكلب نفسه مستلقياً في السلة وترتسم على وجهه ابتسامة بينما هو نائم بعمق وتحت الرسمة كانت هناك عبارة منمقة تقول: (ستصبحين على ما يرام حين تأخذين قسطاً وافياً من الراحة) فيما كتب أحدهم بخط أرجواني شاحب هذه الكلمات: (استردي عافيتك سريعاً! أصدقاؤك بفريق مجلة يوم السيدت).

تصفحت الكتاب، قصة تلو الأخرى، حتى وصلت في النهاية إلى قصة تحكي عن شجرة التين.

نمت شجرة التين على مسطح أخضر يقع في المنتصف بين منزل رجل يهودي وبين دير[20]. اعتاد الرجل على الالتقاء براهبة سمراء جميلة عند تلك الشجرة لالتقاط ثمارها الناضجة، إلى أن جاء اليوم الذي شاهدا فيه بيضة تفقس في عش طائر على أحد غصون الشجرة. هكذا، وهما يشاهدان الطائر الصغير وهو يشق طريقه خارج البيضة، تلامست ايديهما معاً. منذ ذلك الوقت لم تعد الراهبة تأتي لالتقاط التين مع الرجل اليهودي، بل حلت مكانها خادمة مطبخ كاثوليكية خبيثة الملامح، كانت هذه الخادمة تلتقط الثمار، وتعد الحبات التي يلتقطها الرجل اليهودي، حتى تتأكد أنه لم يلتقط أكثر منها، فكان الرجل يشتعل غضباً.

بدت القصة رائعة للغاية، خاصة فيما يتعلق بالجزئية التي تتحدث عن شجرة التين وهي تحت الثلج في الشتاء، وعن ثمارها الخضراء ومنظرها الجميل في فصل الربيع. شعرت بالأسف عندما وصلت للصفحة الأخيرة، وودت لو كان بإمكاني أن أزحف بين خطوط الكتاب السوداء كما يزحف المرء عبر السياج، وأن أخلد للنوم تحت ظل تلك الشجرة الخضراء، الضخمة والجميلة.

بدا لي أنني و(بدي ويلارد) نشبه ذلك اليهودي وتلك الراهبة، رغم أننا لم نكن يهودين أو كاثوليكين، بل موحدين.[21] كنا قد التقينا تحت أغصان شجرة التين المتخيلة، ولم يكن ما شاهدناه طائراً يخرج من البيضة، بل طفلاً يخرج من رحم امرأة، ثم حدث شيء مرعب، فذهب كل واحد منا إلى طريقة.

الآن وأنا ممدة فوق سرير الفندق الأبيض، شاعرة بالكآبة والوحدة، تخيلتني ممدة هناك، فوق سرير المصحة بأديرونداكس، فشعرت بأسوأ أنواع الكآبة. كان بدي يواضب على إخباري في رسائله بأنه يقرأ قصائد شاعر يعمل كطبيب، وأنه عثر على كاتب قصص روسي كان يزاول مهنة الطب أيضاً، فربما كان الأطباء والكتاب متوائمين رغم كل شيء.

لقد اختلفت طريقة كلام بدي عما كان عليه في العامين اللذين كنا فيهما التعرف على بعضنا. أذكر اليوم الذي ابتسم فيه إلي، قائلاً: (أتعرفين ما هي القصيدة، يا إيستر؟)

(كلا، ما هي؟)

(إنها قطعة من هباء) بدا فخوراً لأنه توصل إلى تلك الإجابة، لدرجة أني حدقت في شعره الأشقر وعينيه الزرقازين وأسنانه البيضاء - كانت له أسنان بيضاء، قوية وطويلة - ثم قلت:(أظن ذلك).

لم أعثر على إجابة لذلك السؤال إلا بعد نصف سنة كاملة في نيويورك.

قضيت الكثير من الوقت في إجراء محادثات مع بدي ويلارد في مخيلتي. كان يكبرني بعامين، ويتمتع بحس علمي يسعفه على إيجاد البراهين في كل مرة. وعندما أكون برفقته، كان عليّ أن أجتهد في الحفاظ على توازني كي لا أفقد السيطرة على الأشياء.

دائماً ما كانت هذه المحادثات المتخيلة تكرر المحادثات التي خضتها فعلاً مع بدي، إلا أنها كانت تنتهي في خيالي وأنا أجيب منتصرة على بدي بإجابات صارمة وقاطعة، بدل الانزواء في مكاني، قائلة: (أظن ذلك).

أتخيل بدي الآن، وأنا مستلقية في السرير، وهو يقول: (أتعرفين ما القصيدة، يا أسيتر؟)

(كلا، ما هي القصيدة؟)

((قطعة من هباء)

ثم يبتسم بفخر فأقول له: (كذلك هي الجثث التي تمثل بها، والأشخاص الذين تعتقد أنك تعالجهم. إنهم هباء، هباء، هباء. إنني أؤمن بأن القصيدة الجيدة تحيا لفترة أطول من مئة مريض من الذين تعالجهم).

وبالطبع لن يستطيع بدي الإجابة على ذلك، لأنني قد واجهته بالحقيقة. فالناس مجرد مخلوقات من تراب، وليست العناية الطبية بكل ذلك التراب أفضل من كتابة قصائد سيذكرها الناس إلى الأبد، ويعيدون قراءتها على أنفسهم حين يشعرون بالحزن، أو حين يجعلهم المرض طرحى الفراش ويجافي النوم أعينهم.

كانت مشكلتي أنني أخذت كل ما كان يقوله بدي ويلارد على محمل الجد. أذكر الليلة التي قبلني فيها لأول مرة. كان ذلك عقب الحفلة التي أقامها طلاب السنة قبل الأخيرة في جامعة ييل.

كانت غريبة تلك الطريقة التي دعاني بها بدي إلى تلك الحفلة.

جاء إلى منزلي فجأة، في إحدى عطل أعياد الميلاد، مرتدياً سترة بيضاء بياقة مدورة، فبدا في غاية الوسامة لدرجة انني لم أتوقف عن التحديق فيه، ثم قال: (قد آتي لأراك في الكلية يوماً ما، أليس كذلك؟).

أصبت بالذهول. لم أكن أشاهد بدي إلا يوم الأحد في الكنيسة، ونحن عائدين إلى منزلنا من الكلية. وكنت لا أراه إلا عن بعد، لذلك لم أستطع تخمين سبب مجيئه، جرياً إلى المنزل، حتى يراني - إذ كان يزعم أنه قطع مسافة ميلين بين منزلينا ركضاً، كتمرين رياضي.

كانت تربط أمهاتنا صداقة قديمة، فقد ارتادا نفس المدرسة، كما تزوجت كل واحدة بأستاذها واستقرت في البلدة نفسها. غير أن بدي كان بعيداً عن منزله أغلب الأوقات، إما بسبب المنحة المدرسية التي كان يستفيد منها في فترة الخريف، أو يعمل على مكافحة (بثرة الصنوبر) [22]في مونتانا Montana في فترة الصيف، لذا لم تفض الصداقة القديمة التي جمعت أمهاتنا إلى أي نتيجة تذكر.

انقطعت أخبار بدي بعد تلك الزيارة المفاجئة، إلى أن جاء صباح يوم سبت رائع في أوائل شهر آذار. كنت في غرفتي بسكن الجامعة، أتهيأ لدراسة حياة بطرس الناسك وولتر المفلس، من أجل امتحان مادة التاريخ المتعلقة بالحروب الصليبية، والذي يصادف يوم الاثنين، حينها رن هاتف الرواق.

كان من المفترض أن يتناوب الجميع للرد على الهاتف، ولكن بما أنني كنت الطالبة المستجدة الوحيدة في سكن يضم مجموعة من الطالبات اللواتي كن على وشك التخرج، فقد توليت القيام بتلك المهمة في أغلب الأحيان. انتظرت قليلاً قبل أن أسرع إلى الهاتف منتظرة أن ترد إحداهن عليه. ثم قدرت أنهن يلعبن السكواش في الخارج، أو خرجن بعيداً للإستمتاع بعطة نهاية الأسبوع، فرددت على الهاتف بنفسي.

(أهذه أنتِ، يا إيستر؟) قالت الحارسة المسؤولة عن حراسة مبنى السكن في الأسفل، وحين أجبتها بنعم، قالت: (يوجد رجل هنا يريد مقابلتك).

عجبت لسماع ذلك، فلم يكن هناك رجل من بين كل الذين واعدتهم في تلك السنة، قد اتصل علي مرة أخرى ليحدد موعداً جديداً معي. لم أكن محظوظة بما يكفي. كنت أكره هبوط السلالم ويدي مبللة بالعرق، منتظرة مساء كل سبت، لواحدة من الطالبات اللواتي على كن وشك التخرج أن تعرفني على ابن أعز صديقات خالتها، والذي غالباً ما يكون ضخماً وشاحباً، ولديه أذنان كبيرتان تخرج من وجهه، أو أسنان سوداء تبرز من فمه، أو مصابٍ بالعرج في إحدى قدميه. لم أكن أستحق ذلك، على أية حال، فأنا لا أعاني من أي مشكلة. ولكنني كنت أدرس بكل إجتهاد، لدرجة أنني لم أعرف كيف أتوقف عن فعل ذلك.

حسناً، صففت شعري، ووضعت شيئاً من أحمر الشفاه، ثم أخذت كتاب التاريخ - حتى أتمكن من قول إنني كنت في طريقي إلى المكتبة إن كان الشخص قبيحاً - ثم نزلت السلالم. ووجدت (بدي) متكئاً على طاولة البريد، وهي يرتدي معطفاً أخضراً مغلقاً بالسحاب، وسروالاً أزرقاً، وينتعل حذاء رياضياً بالياً في قدميه، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال:

(جئت لإلقاء التحية فقط).

كان من الغريب أن يقطع كل تلك المسافة من ييل إلى هنا، سيراً على الأقدام، حتى يوفر نقوده، لمجرد إلقاء التحية فقط.

أجبت: (مرحبا، دعنا نخرج ونجلس على الشرفة)

أردت الخروج إلى الشرفة لأن الحارسة كانت فضولية جداً، كانت تنظر إلي بنظرات مرتابة ومزعجة. من الواضح أنها أعتقدت أن بدي يفتعل المصائب.

جلست على كرسي هزاز بجواره، كانت الجو صافياً بلا ريح، وحاراً بعض الشيء.

(لا أستطيع البقاء لأكثر من بضع دقائق).

(أوه، هيا، ابق حتى الغداء)

(أوه، لن أستطيع ذلك، لقد جئت لحضور حفلة طلبة السنة الثانية مع جوان)

شعرت أنني كنت حمقاء على نحو تام.

(كيف حال جوان؟) سألته ببرود.

كانت جوان غلنغ إحدى بنات قريتي. كانت ترتاد كنيستنا باستمرار، كما كانت طالبة متميزة في صفها فنصبوها رئيسة للصف، كانت تسبقني بسنة في الجامعة. درست في قسم الفيزياء، وأصبحت بطلة رياضة الهوكي بالجامعة. كنت أشعر بالإحباط كلما نظرت النظر عينيها الجاحظتين بلون البلور الصخري، وأسنانها اللامعة كالقبر، وصوتها المهيب. كانت ضخمة كالفرس. من الواضح أن ذوق بدي في غاية التدني.

(أوه، جوان)، قال (لقد دعتني إلى هذه الحفلة الراقصة منذ شهرين، كما طلبت أمها من أمي أن أرافقها، فما عساي أن أفعل؟)

سألته بخبث (حسناً، لم قلت إنك سترافقها إن لم تكن راغباً في ذلك من الأساس؟)

(أوه، أنا معجب بجوان، فهي لا تهتم إن دفعت المال من أجلها أم لا، كما أنها تستمتع بالقيام بالأشياء في الهواء الطلق. كنا قد قمنا، في المرة الأخيرة التي جاءت فيها إلى ييل، بنزهة على متن دراجتينا الهوائيتين متوجهين إلى إيست روك خلال عطلة نهاية الأسبوع، كانت هي الفتاة الوحيدة التي لم أكن مضطراً إلى دفعها إلى أعلى التلال. إن جوان فتاة مناسبة)

كنت سأفقد عقلي من الغيرة، فلم يسبق لي أن ذهبت إلى ييل من قبل، لقد كانت ييل أفضل مكان ترغب طالبات السنة الأخيرة، اللواتي يقمن معي، في الذهاب إليه لقضاء عطل نهاية الأسبوع. قررت ألا أتوقع شيئاً من بدي ويلارد. فالإنسان الذي لا يتوقع شيئاً من أحد، لا يشعر بالخيبة مطلقاً.

(من الأفضل أن تذهب الآن، وتعثر على جوان) قلت بنبرة واقعية (لدي موعد مع شخص ما قد يأتي في أية لحظة، ولا أحب أن يراني جالسة معك).

(موعد مع شخص ما؟) بدا الاندهاش واضحاً على بدي (من هو هذا الشخص؟).

(إنهما شخصان في الواقع) قلت (بطرس الناسك وولتر المفلس).

لم ينطق بدي بشيء، فواصلت الحديث: (هذه هي ألقابهما).

ثم أضفت: (إنهما من دارتموث[23])

أعتقد أن بدي لم يكن ملماً بالتاريخ، لأن فمه قد تصلب فجأة، وتأرجح من فوق الكرسي الهزاز، دافعاً إياه بطريقة عنيفة وبلا معنى. ثم ألقى مظروفاً أزرقاً، يحمل شعار جامعة ييل، في حجري، ثم قال:

(هذه رسالة كنت أود أن أتركها لك لو لم تكوني موجودة. إنها تتضمن سؤالاً يمكنك الإجابة عليه بالبريد. لا أشعر برغبة في طرحه عليك مباشرة في هذه اللحظة).

فتحت الرسالة فور مغادرته. كانت دعوة لحضور حفل الطلبة الجدد بجامعة ييل.

وقتها أخذتني الدهشة، فصرخت بصوت عال، وركضت خلفه في الشارع وأنا أصيح: (سأذهب، سأذهب). ثم حل ظلام دامس بعدما كانت أشعة الشمس الساطعة تغمر الشرفة، فلم أعد أميز شيئاً أمامي. وجدتني أعانق الطالبة التي كانت تتولى الحراسة. وحين علمت أنني سوف أحضر حفل الطلبة الجدد بجامعة ييل، أخذت تعاملني باحترام وإكبار.

ثم تبدلت الأحوال في السكن على نحو عجيب. فأصبحت طالبات السنة الأخيرة يتحدثن معي، فيما تولت إحداهن مهمة الرد على الهاتف بين الحين والآخر، بطريقة مهذبة، ولم أعد أسمع التعليقات البذيئة التي كنا تطالني قرب باب غرفتي عندما كانت الفتيات يتحدثن عن سخافة الأشخاص الذين يبددون أجمل سنوات حياتهم الجامعية حاشرين أنوفهم بين صفحات الكتب.

كان بدي يعاملني كرفيقة أو قريبة أثناء حفل الجامعة.

كنا نرقص متباعدين، وكأن مسافة ميل تفصل بيننا، إلى أن صدحت أغنية (الأيام الخوالي) فاقترب مني فجأة، وأراح ذقنه على منكبي، مثل العاشق المتعب، ثم قطعنا مسافة خمسة أميال، وسط الرياح الباردة السوداء، التي كانت تعتري السماء في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، كنا نمشي الهوينا عائدين إلى سكني الجامعي، حيث كنت أنام على أريكة منخفضة للغاية مقابل خمسين سنتاً لليلة، بدلاً من أن أتكلف دولارين للنوم في إحدى الأماكن التي تضم أسرة مناسبة.

شعرت بأنني مملة وتافهة، ومليئة بالآمال المحطمة.

تخيلت أن بدي سيقع في حبي في تلك الليلة، ولن أقلق بعد ذلك بشأن الأشياء التي يتوجب عليّ فعلها كل ليلة سبت طيلة ما تبقى من أيام السنة.

عندما اقتربنا من الوصول إلى السكن الذي كنت أقيم فيه، أخبرني بدي: (هيا نذهب إلى مختبر الكيمياء).

أصابتني الدهشة. (مختبر الكيمياء!)

(أجل) مد بدي يده ليمسك يدي (ثمة منظر جميل أريدك أن تشاهديه خلف مختبر الكيمياء).

كنت على يقين بأن ثمة مكان مطل على التلال، خلف مختبر الكيمياء، يمكننا من أعلاه رؤية منازل نيو هيفين المضيئة.

وقفت متظاهرة بالإستمتاع بذلك المنظر، فيما كان بدي يثبت أقدامه ليقف مستقيماً على الأرض الوعرة. وحينما استقر في مكانه، قبلني، فأبقيت عيني مفتوحة، حتى لا تغيب المسافة بين أضواء المنازل عن ذاكرتي أبداً.

أخيراً، تراجع بدي إلى الخلف وقال: (مذهل!)

قلت مندهشة: (ما المذهل؟). لقد كانت قبلة قصيرة، جافة وباردة، كان من سوء التدبير أن نقطع مسافة خمسة أميال مشياً على الأقدام وسط تلك الريح الباردة التي جعلت شفاهنا تتشقق.

(من المذهل أن أشعر بالسعادة وأنا أقبلك).

شعرت بالخجل، فلم أقل شيئاً.

ثم قال: (أظنك تخرجين مع شبان كثر)

(أظن ذلك). أعتقد أنني كنت أخرج في جميع عطل نهاية الأسبوع، مع شاب مختلف في كل مرة.

(حسناً، ينبغي أن أركز على دراستي كثيراً).

(وأنا كذلك)، أجبت بسرعة. (يجدر بي أن أحافظ على منحتي الدراسية مهما تطلب الأمر).

(ولكنني مع ذلك، أستطيع تدبر أمر رؤيتك كل ثلاثة أسابيع)

(يبدو هذا رائعاً) كنت على وشك أن أفقد وعيي، وأتحرق شوقاً للعودة إلى الجامعة لإخبار الجميع بما حصل.

قبلني بدي مرة أخرى أمام عتبة المنزل. ومرة ثالثة في الخريف، عندما أنهى منحته في كلية الطب، وذهبت لرؤيته، بدل الذهاب إلى ييل. حينها اكتشفت كيف كان يخدعني طيلة تلك السنوات، وكم هو رجل منافق.

كان ذلك هو اليوم الذي شاهدنا في الطفل وهو يولد.

(6)

كنت أتوسل بدي باستمرار أن يريني بعض المشاهد المثيرة للإهتمام في المستشفي، وبعد طول انتظار، ذهبت إليه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، تاركة دروسي وراء ظهري، ومتطلعة للتعرف على طبيعة عمله.

قمت بارتداء معطف أبيض، ثم جلست على كرسي لا ظهر له ولا ذراعين، في غرفة تضم أربعة جثث، فيما كان بدي ورفاقه منكبين على تشريحهها. كانت ترتسم على تلك الجثث ملامح غير إنسانية فلم أشعر بالإنزعاج منها. كانت جلودها صلبة، ذات لون أرجواني يميل إلى السواد، ولها رائحة نتنة مثل الرائحة التي تنبعث من جرار المخلل القديمة.

بعد ذلك أخذني بدي إلى قاعة يحتفظون فيها بقوارير كبيرة مصنوعة من زجاج، مليئة بأجنة أطفال الذين ماتوا قبل ولادتهم. كان للجنين المحفوظ في القارورة الأولى رأس أبيض كبير يتكور على جسد منكمش على نفسه بحجم ضفدع صغير. ثم كان للجنين الذي يليه رأس أكبر، والذي بعده كان يفوقهما بالحجم، حتى وصلت إلى القارورة الأخيرة فوجدت أن الجنين كان بحجم طفل متكمل النمو، وكان يبدو أنه ينظر إليّ مبتسماً مثل خنزير صغير.

كنت أشعر بالفخر من شجاعتي في النظر إلى تلك الأشياء المرعبة بكل هدوء. كانت المرة الوحيدة التي فزعت فيها وقفزت من مكاني، حين أحنيت مرفقي على بطن الجثة التي كان بدي يشرحها، لأشاهد كيف سيقوم بتشريح رئتيها، شعرت بعد دقائق، بحرارة تخترق مرفقي، فجزعت من فكرة أن تكون الجثة ما زالت تحتفظ بشيء من الحياة، لأنها ما تزال دافئة. فانتفضت من مكاني وعلامة تعجب صغيرة ترتسم على محياي، حينها قال بدي أن سبب دفء الجثة يعود إلى سائل تحنيط الجثث الذي وضع عليها، فعدت للجلوس في مكاني القديم.

في الساعة التي سبقت الغداء، أخذني بدي إلى محاضرة تدور حول مرض فقر الدم المنجلي، وبعض الأمراض الأخرى التي تسبب الإكتئاب. كانو يدفعون المرضى بكراسي متحركة فوق المنصة، فيطرحون عليهم الأسئلة، ثم يدفعونهم في ذات الكراسي إلى الخارج، ويعرضون بعض الصور الملونة على الحائط.

أذكر أنهم عرضوا صورة فتاة جميلة، ضاحكة الثنايا، كانت لها شامة سوداء على خدها، أشار الطبيب عليها ثم قال: (بعد عشرين يوماً من ظهور تلك الشامة، ماتت الفتاة) عم الصمت لمدة دقيقة بين الحاضرين، ثم قرع الجرس. لم أعرف يوماً ما هي طبيعة تلك الشامة، أو لماذا ماتت تلك الفتاة.

في فترة ما بعد الظهيرة، ذهبنا لحضور عملية ولادة.

في البداية عثرنا على خزانة ملابس مصنوعة من الكتان، فأخرج بدي منها قناعاً أبيضاً وبعض الشاش، كان هناك طالب سمين يدرس الطب، ضخم البنية مثل سدني غرينستريت [24]، يجلس في الجوار، ويرقب بدي وهو يلف الشاش حول رأسي حتى غطى وجهي بشكل كامل، ولم تبق سوى عيناي لأنظر منهما من وراء القناع الأبيض، ضحك الطالب السمين من بطنه، ثم قال: (على الأقل أمك تحبك).

كنت سرحة البال، متفكرة في هول بدانته، وكيف يكون الرجل تعيساً حين يكون بديناً، لا سيما لو كان في ريعان شبابه. فكيف يمكن أن تميل امرأة على تلك البطن الكبيرة لتقبله، لم أدرك أن ما قاله ذلك الطالب كان إهانة إلا بعد مضي بعض الوقت، فقد اعتقدت أنه يعتبر نفسه شخصاً لطيفاً، فكرت في أن أرد عليه ساخرة، أن الأمهات لا يعشقن سوى البدناء، ولكنه رحل.

كان بدي يتفحص لوحة خشبية غريبة معلقة على الحائط، كانت مليئة بالثقوب التي تترواح من ثقب بحجم دولار إلى ثقب بحجم صحن طعام.

(رائع، رائع، ثمة امرأة على وشك الولادة الآن). صاح طالب طب نحيف ورقيق، كان على معرفة ببدي.

(أهلاً ويل) قال بدي (من يقوم بالعمل هنا؟).

(أنا) قال ويل عابساً، فلاحظت قطرات عرق صغيرة تتكور فوق جبينه الشاحب العالي. (أنا، إنها المرة الأولى لي).

أخبرني بدي أن ويل طالب في السنة الثالثة، وعليه أن يشرف على ولادة ثمانية أطفال ليستكمل متطلبات التخرج.

ثم استمعنا إلى صوت صاخب قادم من الطرف البعيد للممر، حيث كان رجال يرتدون معاطف باللون الأخضر الليموني، وأغطية ضيقة على رؤوسهم، وعدد من الممرضات يهرولن متجهات نحونا على نحو محتدم، يدفعن عربة تحمل كتلة بيضاء ضخمة.

(لا ينبغي أن تشاهدي هذا المنظر)، همس ويل في أذني. (لن ترغبي في إنجاب طفل إن نظرت. عليهم أن يمنعوا النساء من مشاهدة ذلك، وإلا ستكون نهاية الجنس البشري).

انفجرت وبدي ضاحكين، ثم صافح يد ويل، ودخلنا جميعاً إلى الغرفة.

هالني منظر الطاولة، حيث كانوا يرفعون المرأة، فعجزت عن الكلام. بدت كأنها طاولة تعذيب مرعبة، بكل تلك الدعامات المعدنية المعلقة في الهواء في إحدى الجهات، وأنواع المعدات والأسلاك والأنابيب التي لا أستطيع تمييزها، في الجهة الأخرى.

وقفت مع بدي عند النافذة، على مسافة قريبة من المرأة، حظينا بزاوية نظر إستراتيجية.

كان بطن السيدة يتطاول إلى الأعلى، فلم أستطع رؤية وجهها، أو حتى الجزء الأعلى من جسدها، كانت تبدو مثل أنثى العنكبوت ببطنها الكبير، وساقيها البشعتين والنحيلتين، كانت كل قدم منهما مثبتة في الدعامة المعدنية المتدلية من السقف، لم تتوقف للحظة، طيلة فترة المخاض، عن إثارة الضجيج الهمجي والمزعج.

أخبرني بدي لاحقاً أنها كانت تحت تأثير مخدر من شأنه أن ينسيها كل آلامها، وأنها لم تكن واعية لنفسها حين كانت تصرخ شاتمة ومتألمة، لأنها كانت غارقة بآثار التخدير.

بدا لي أن هذا المخدر هو اختراع رجولي بامتياز، ليجعل المرأة التي تكابد آلاماً عظيمة، في كل جزء تشعر فيه من جسدها، أن تعود إلى المنزل مباشرة وتفكر بالحمل مرة الأخرى، لأن العقار

سوف يجعلها تنسى كيف كانت آلامها، وكأنها تعيش طيلة حياتها لتنتظر انفتاح ممر الألم، الطويل القاتل، ثم انغلاقه مرة أخرى في جزء سري من جسدها.

كان الطبيب الذي يترأس الإشراف على عمل ويل والآخرين يحث المرأة باستمرار: (ادفعي إلى الأمام، سيدة توموليلو، ادفعي، أنت فتاة قوية، ادفعي للأمام). حتى شاهدت أخيراً شيئاً أسوداً مليئاً بالزغب يخرج عبر الموضع الحليق المنفرج بين ساقيها، والمتبقع من كثرة المطهرات.

(إنه رأس الطفل)، همس بدي بينما كان أنين المرأة يطغى على صوته.

ولكن، لسبب ما، علق رأس الطفل، فأخبر الطبيب ويل بضرورة إحداث شق في المكان سمعت صوت المقص وهو يقترب من جلد المرأة كما لو كان ثوباً، فأخذت الدماء تسيل من بين قدميها - دماء قوية وزاهية، ثم خرج الطفل دفعة واحدة وسقط بين يدي ويل. كان بلون خوخة زرقاء، تعلوه مادة بيضاء ممزوجة ببعض بالدم، فاستمر ويل بالقول بصوت مرعوب: (سأوقعه، سأوقعه، سأوقعه).

(كلا، لن تفعل)، قال الطبيب، وأخذ الطفل من بين يدي ويل، وبدأ في تدليكه، فزال عنه اللون الأزرق، وبكى الطفل بصوت بائس ومبحوح، كان صبياً.

أول شيء فعله طفل هو التبول في وجه الطبيب. سألت بدي، لاحقاً، كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا، فقال إن ذلك ممكن رغم ندرته.

وما إن ولد الطفل، حتى تفرق جميع الأشخاص الذين في الغرفة إلى مجموعتين. كانت الممرضات يضعن علامة في معصم المولود، ويمسحن عينيه بقطن ملفوف على طرف عود، ثم دثرنه ووضعنه في سرير نقال مغطى بالقماش، فيما أخذ ويل والطبيب بخياطة شق المرأة بواسطة إبرة حادة وخيط طويل.

أعتقد أنني سمعت أحداً يقول: (إنه صبي، سيدة توموليلو)، لكن المرأة لم تجب بشيء أو ترفع رأسها.

(حسناً، كيف كان الأمر؟)، سألني بدي بطريقة تنم عن الرضا، ونحن نعبر الساحة الخضراء المحيطة بالبنايات من كل جهة، متوجهين إلى غرفته.

(كان ذلك رائعاً) قلت (لا أمانع أن أرى شيء كهذا كل يوم).

لم أرغب في سؤاله إن كان هناك ثمة طرق أخرى لإنجاب الأطفال، لأن الشيء الوحيد الذي كان يهمني، هو رؤية الطفل يخرج من أحشائي، لأتأكد أنه جزء مني فعلاً. ولو كان يتوجب عليّ أن أكابد كل ذلك الألم، فلا بد أن أظل مستيقظة لأرى ذلك.

كنت أتخيل نفسي دائماً، ممدة على سرير الولادة، بعد أن ينتهي كل شيء، وقد أنهكني التعب، وبدا وجهي شاحباً بدون أية مساحيق تجميلية، جراء تلك التجربة الرهيبة، ولكنني مع كذلك أجلس مبتسمة ومشرقة، وشعري يسترسل حتى يصل إلى خصري، وأحاول الوصول إلى طفلي الأول وهو يتمغط في سريره، منادية عليه باسمه، أياً كان ذلك الاسم.

وحتى لا ينقطع خيط الحديث، سألت بدي: (لماذا كان الطفل مغطى بالطحين؟). فأخبرني عن المادة الشمعية التي تحمي جلد المولود.

وحين وصلنا إلى غرفة بدي، تخيلت صومعة راهب أمامي، بجدرانها العارية، وسريها العاري، وأرضيتها العارية، والمكتب المكتظ بمجلدات غراي للتشريح[25]، والكثير من الكتب السميكة والمخيفة، أشعل بدي شمعة وفتح زجاجة دوبوني. ثم تمددنا، جنباً إلى جنب، على السرير، وراح بدي يرتشف نبيذه، فيما قرأت بصوت مرتفع قصيدة (في مكان ما لم أرحل إليه من قبل) وقصائدة أخرى من كتاب جلبته معي.

قال بدي أنه لا بد أن يكون في الشعر سحر ما حتى تقضي فتاة مثلي كل أيامها منكبة على قراءته، لذلك كنت أقرأ له في كل مرة نلتقي فيها، بعض الأشعار، مفسرة له ما تحمله من معان وجماليات. كانت تلك فكرته. كان دائماً يرتب لقاءاتنا في العطل كي لا نندم على إهدار وقتنا أبداً.

كان والد بدي معلماً، وأظنه يستطيع أن يصبح مثل والده أيضاً، فقد كان يحاول تفسير الظواهر لي وتعريفي على أشياء جديدة في كل مرة.

فجأة بعد أن أنهيت قراءة إحدى القصائدة، قال بدي: (إيستر، هل رأيت رجلاً من قبل؟)

كانت طريقته في الكلام توحي بأنه لا يقصد (رجلاً) بالمعنى الحرفي للكلمة، بل يقصد رجلاً عارياً.

أجبته: (كلا، مجرد تماثيل فقط).

(حسناً، هل ترغبين في مشاهدتي؟).

لم أعرف بماذا أجيبه. كانت أمي وجدتي تلمحان لي كثيراً في الآونه الأخيرة، عن مثالية بدي ويلارد، وكيف أنه صبي رقيق ومهذب، ينحدر من عائلة رائعة ومحترمة، وأن كل من يرتاد الكنيسة يشهد على أخلاقه، وكيف أنه بار بوالديه وبكبار السن، ناهيك عن أنه رياضي ووسيم وذكي.

في الواقع، كان كل الذي سمعته عنه يسير في ذلك الإتجاه، ويؤكد على أنه من ذلك النوع من الرجال الذين يتوجب على الفتاة أن تبقى رائعة وطاهرة من أجله. لذلك لم أمانع بتقبل أي شيء صادر منه.

(حسناً، أعتقد أنه لا بأس في ذلك) قلت.

حدقت في بدي وهو يفك أزرار بنطاله المصنوع من قماش التشينو، وكيف نزعه ثم وضعه على الكرسي، وبعدها خلع سرواله الداخلي المصنوع من شيء شبيه بشبكة صيد السمك.

(إنه رائع) راح يبرر (تقول أمي إنه سروال قابل للغسل بسهولة).

ثم وقف أمامي، فواصلت التحديق فيه. كان الشيء الوحيد الذي تخيلته وأنا أنظر إليه، هو عنق ديك رومي وحوصلته، فاستولت عليّ الكآبة.

بدا بدي متألماً لأنني لم أقل شيئاً: (عليك أن تعتادي على رؤيتي هكذا)، قال (دعيني أراك الآن).

أثارتني فكرة التعري أمام بدي. لقد كان الأمر شبيهاً بالتقاط صورة لي في الكلية بمختلف الوضعيات، حيث سيتوجب عليّ أن أقف عارية أمام الكاميرا، مدركة - طيلة الوقت - أن صورتي العارية، سواء كانت كاملة أم صورة جانبية، ستأخذ مكانها في الملصقات الجدارية المعلقة في حجرة الألعاب الرياضية، حيث يكتب على أسفل كل وضعية أحرف (أ، ب، ت، ث) اعتماداً على درجة استقامة الوضعية التي اتخذتها.

قلت: (أوه لا، في وقت آخر).

(لا بأس). ارتدى بدي ثيابه مرة أخرى.

ثم تبادلنا القبلات وتعانقنا قليلاً فشعرت ببعض التحسن. ثم احتسيت ما تبقى من نبيذ دوبوني، وأنا أجلس القرفصاء على حافة سرير بدي، ثم طلب منه أن يعطني مشطاً. رحت أسرح شعري تاركة إياه أن ينسدل فوق وجهي حتى لا يراه بدي. ثم سألته فجأة: (هل سبق وأن أقمت علاقة عاطفية مع إحداهن يا بدي؟).

لم أعرف مالذي دفعني إلى قول ذلك، لكن الكلمات خرجت من فمي من تلقاء نفسها. لم يخطر ببالي أبداً أن يكون لبدي ويلارد علاقة عاطفية سابقة مع فتاة ما. توقعت أن يقول: (كلا، لقد صنت نفسي، حتى يجيء موعد زواجي من فتاة عفيفة وعذراء مثلك).

ولكنه لم يقل شيئاً، بل احمر وجهه من شدة الخجل.

(حسناً، هل سبق وأن فعلت ذلك؟)

(ماذا تقصدين بعلاقة عاطفية؟) سأل بدي بنبرة فارغة من أي معنى.

(أنت تعلم، أعني، هل سبق وأن ذهبت إلى السرير مع إحداهن؟) ثم واصلت تسريح شعري على نحو عشوائي فوق وجهي، فشعرت بالشعيرات الصغيرة المكهربة وهي تلتصق بوجنتي حتى رغبت في أن أصرخ وأقول له: (توقف، توقف، لا تخبرني، لا تقل شيئاً). لكنني لم أفعل، بل وقفت ساكنة من دون حراك.

قال بدي أخيراً: (حسناً، نعم، كانت لي علاقة بإحداهن).

كاد يغمى علي. لقد جعلني بدي أتوهم - منذ الليلة الأولى التي قبلني فيها، وأخبرني أنه واثق من أنني خرجت مع الكثير من الشبان - أنني أكثر إثارة وخبرة منه، وأن كل شيء قام به، كالعناق والتقبيل والمداعبة، كان لي الفضل به، بدون أن يبدو أنه قد بادر لحصول ذلك.

عرفت الآن أنه كان يتظاهر بالبراءة طيلة الوقت.

(حدثني عن ذلك). سرحت شعري على مهل، تارة بعد أخرى، حتى شعرت بأن أسنان المشط تنغرس في خدي عند كل حركة (من كانت؟).

بدا بدي مرتاحاً لأنني لم أغضب، لعله بدا أكثر ارتياحاً لوجود شخص آخر يستطيع مشاركته التجربة التي تعرض فيها للغواية.

إنني واثقة تماماً من أن إحداهن قد قامت بإغوائه، فهو لم يبادر لحصول ذلك، ولم يكن ذنبه. كانت تلك هي نادلة الفندق الذي كان يعمل فيه كسائق باص أثناء العطلة الصيفية الماضية في «كيب كود»[26]، لاحظ بدي أنها كانت تواصل التحديق فيه على نحو مريب، وتدفع نهديها نحوه في وسط الفوضى التي كانت تعتري المطبخ، في النهاية، جاء أحد الأيام وسألها عن سبب هذه التصرفات، فنظرت مباشرة في عينيه، وقالت: (أريدك).

(حتى تقدميني مع بعض البقدونس؟) ضحك بدي ببراءة.

(كلا) قالت. (لنقضي إحدى الليالي معاً).

وهكذا فقد بدي براءته وعذريته.

اعتقدت في البداية أن بدي أقام علاقة مع النادلة لمرة واحدة فقط، ولكنني عندما سألته عن عدد المرات، من أجل التثبت، قال إنه لا يذكر بالتحديد، لعلها كانت عدة مرات في الأسبوع طيلة ما تبقى من الصيف. ضربت ثلاثة بعشرة فكانت ثلاثين مرة، لم أر سبباً منطقياً لكل هذه المرات.

ثم تجمد في داخلي شيءٌ ما.

وحين عدت إلى الجامعة، رحت أسأل الطالبات الأكبر مني سناً، الواحدة تلو الأخرى، عما ستفعله لو صارحها شاب تعرفه، في منتصف علاقتهما، قائلاً إنه قد ضاجع نادلة على هيئة عاهرة، ثلاثين مرة في إجازة الصيف. غير أنهن قلن إن معظم الشبان يفعلون ذلك، ولا تستطيع الفتاة أن توجه أصابع الاتهام له بشكل صريح إلا إذا كانت على علاقة جادة به أو مخطوبة منه.

في الواقع، لم تكن فكرة مضاجعة بدي لإحداهن هي التي أزعجتني. فقد كنت أقرأ الكثير حول الأشخاص الذين يقيمون علاقات مع الآخرين. ولو كان الأمر يتعلق بشخص آخر غير بدي

لسألته عن أدق التفاصيل الممتعة التي اختبرها، وربما كنت سأنام مع شخص آخر حتى أكون متعادلة معه، لكنني لم أعد أفكر في ذلك أبداً.

ما لم أستطع احتماله هو إدعاء بدي الدائم بأنني جذابة ومثيرة، وأنه يمثل دور العفيف الطاهر، فيما كان طوال ذلك الوقت يقيم علاقة مع تلك النادلة العاهرة، أشعرني ذلك أنني كنت أضحوكته.

(ما هو انطباع والدتك عن تلك النادلة؟) سألت بدي في تلك العطلة.

كانت علاقة بدي بوالدته قوية على نحو مدهش. فقد كان يستشهد دائماً بأقوالها التي تخص علاقة الرجل بالمرأة، كما كنت على يقين بأن السيدة ويلارد من النساء المتعصبات بشأن عذرية المرأة والرجل على حد سواء، فعندما ذهبت لمنزلها لأول مرة لتناول طعام العشاء، جلست ترمقني بنظرات فاحصة وماكرة، فأدركت أنها تحاول معرفة إن كنت ما أزال محافظة على عذريتي أم لا.

وحصل مثلما توقعت، شعر بدي بالحرج. لكنه سرعان ما اعترف قائلاً: (لقد سألتني أمي عن غلاديس).

(حسناً، ماذا قلت لها؟)

(أخبرتها أنها عزباء، وبيضاء، وفي الحادية والعشرين من عمرها).

أدركت بالفور أن بدي لن يتحدث مع والدته بمثل تلك الوقاحة من أجلي، وهو الذي كان يردد قولها دائماً: (يرغب الرجل في رفيقة، وترغب المرأة في الأمان اللانهائي) و(ليس الرجل سوى سهم يشير نحو المستقبل، والمرأة هي المكان الذي ينطلق منه ذلك السهم)، حتى جعلتني كلماته المكررة أشعر بالتعب.

وفي كل مرة حاولت فيها مجادلته، كان يقول: (إن أمي لا تزال تجد المتعة مع أبي، أليس ذلك رائعاً بالنسبة إلى أناس في مثل سنهم؟ هذا يعني أنها تدرك تماماً ما تتحدث عنه).

حسناً، قررت في تلك اللحظة أن أترك بدي ويلارد من دون رجعة، ليس لأنه قد أقام علاقة مع تلك النادلة، وإنما لعدم امتلاكه الشجاعة الكافية للاعتراف بذلك بشكل مباشر، أمام الجميع،

ومواجهة الأمر باعتباره جزء من شخصيته.

في إحدى الأيام رن الهاتف الذي في رواق السكن، فقالت فتاة بصوت غنائي قليل المعرفة: (إنها لك يا إيستر، إنها من بوسطن).

شعرت على الفور أن هناك خطباً ما، فبدي هو الشخص الوحيد الذي أعرفه في بوسطن، ولم يسبق له أن هاتفني من مكان بعيد، لأن ذلك يكلف الكثير قياساً بالرسائل. حتى عندما أراد أن يرسل إلى ذات مرة برسالة مستعجلة، سأل كل من يعرفهم في كليته إن كان هناك ثمة من سيذهب إلى كليتي في نهاية الإسبوع، وبالتأكيد وجد شخصاً ما، فسلم إليه الرسالة التي تسلمتها في نفس اليوم، فلم يضطر لدفع أي شيء، بما في ذلك الطابع البريدي.

كان المتصل هو بدي على أية حال. أخبرني أنه أجرى فحص الأشعة السنوى لصدره، فكانت نتيجة الفحص أنه مصاب بداء السل، وأنه سيذهب إلى مكان ما في آيدروونداكس Adirondacks [27] تحت نفقة منحة علاجية تمنح لطلبة كلية الطب المصابين بداء السل. ثم سألني عن السبب الذي جعلني أتوقف عن الكتابة إليه منذ تلك العطلة، آملاً أن يكون كل شيء على ما يرام بيننا، كما ناشدني أن أكتب إليه مرة واحدة في الإسبوع على الأقل. وأن أذهب لزيارته في المصح في عطل الأعياد.

لم يسبق لي أن سمعت صوت بدي وهو يعبر عن استياءه من قبل. كان يفتخر دائماً بصحته المثالية، وكان يقول بأنني أعاني من مشكلة (نفسجسمية)[28] عندما أصاب بالتهاب الجيوب الأنفية وانسدادها فأعجز عن التنفس. كنت أرى أن ذلك تشخيص غريب بالنسبة إلى طبيب، فربما كان عليه أن يدرس ليصبح طبيباً نفسياً بدلاً من الطب العام، غير أنني لم أجرؤ على إخباره بالأمر.

عبرت عن حزني الشديد لبدي لما أصابه من داء السل، ووعدته أن أكتب إليه، ولكنني عندما أغلقت السماعة لم أشعر بشيء من الأسى أبداً، كل ما شعرت به كان عبارة مزيج رائع من الإرتياح.

ربما كان داء السل هو مجرد عقاب أصاب بدي نتيجة الحياة المزدوجة التي كان يعيشها، وشعوره بالتفوق على الآخرين. ثم فكرت أنه من غير اللائق أن أعلن لكل من في الكلية عن قطع علاقتي ببدي لأعود إلى ذلك العمل الممل (مواعدة الشبان الغرباء) مرة أخرى.

قمت بإخبار الجميع أن بدي مصاب بداء السل، وأننا قد أبرمنا الخطوبة رسمياً، وحين كنت ألازم غرفتي للقراءة الحرة في ليالي السبت، كانت الطالبات يتصرفن في غاية اللطف معي، معتقدات أن توحدي ينم عن شجاعة تخفي وراءها قلباً منفطراً وحزين.

(7)

كان قسطنطين، بلا شك، قصيراً جداً، لكنه كان وسيماً على طريقته الخاصة، بشعره البني اللامع، وعيون شديدة الزرقة، وتقسميات وجهة جذابة، مفعمة بالحياة. كان يبدو أمريكياً ببشرته شديدة السمرة، وأسنانه الرائعة، لكنني على ثقة بأنه لم يكن كذلك، فقد كان يمتلك ما لم يمتلكه أي أميركي سبق أن التقيت به، ألا وهو الحدس.

لقد خمن قسطنطين، منذ البداية، أنني لم أكن موالية للسيدة ويلارد. كنت أرفع حاجباً هنا، وأطلق ضحكة صغيرة جافة هناك، وسرعان ما أخذنا ننتقد السيدة ويلارد بقسوة، ثم فكرت في نفسي (لن يكترث هذا القسطنطين إن كنت فارعة الطول أم لا، أو أنني لا أعرف ما يكفي من اللغات، ولم يسبق لي أن سافرت إلى أوروبا، سيعرف - من خلال كل هذه الأشياء - أية فتاة هي أنا).

قادني قسطنطين إلى مبنى الأمم المتحدة بسيارة الخضراء القديمة، ذات السقف المكشوف، والمقاعد البنية المتشققة والمريحة والمكسوة بالجلد. حدثني أنه اكتسب سمرته جراء لعب التنس. وعندما جلسنا قرب بعضنا، بعد أن حلقنا في شوارع المدينة في واضحة النهار، أمسك يدي واعتصرها، فغمرتني سعادة لم أختبر مثلها منذ أن كنت طفلة في التاسعة من عمري، أركض على طول الشواطىء البيضاء الساخنة مع والدي، في الصيف الذي سبق وفاته.

وعندما جلسنا بإحدى القاعات الهادئة في مقر الأمم المتحدة، قرب صبية روسية مفتولة العضلات، لا تضع أية مساحيق تجميل، والتي كانت تعمل مترجمة فورية مثل قسطنطين، تبادر إلى ذهني كم هو غريب أنني لم أشعر بالسعادة الحقيقية إلا عندما كنت في التاسعة من عمري. فلا أذكر بعدها أنني شعرت بشعور مماثل، رغم كل فرق الكشافة ودروس البيانو والرسم بالالوان المائية

ودروس الرقص، ومخيم رحلة الإبحار بالمراكب الشراعية (والتي جاهدت أمي كي لا أرحم منها)، والكلية، حيث كنا نحتشد بمجموعات من ضباب قبل الإفطار، وكعك الشوكلاته، والأفكار الجديدة التي تلمع في رؤوسنا ثم تخبو كل يوم.

تأملت في الصبية الروسية، في معطفها المزرر الرمادي، كانت تلفظ الجمل تلو الأخرى، على نحو سريع، بلغتها المجهولة - أخبرني قسطنطين أن ذلك هو الجزء الأصعب، لأن الروس لا يمتلكون نفس التعابير التي نمتلكها - فتمنيت من كل قلبي أن أتسلل إلى داخلها، وأقضي ما تبقى من حياتي وأنا أردد التعابير تلو الأخرى. لن يجعلني ذلك أكثر سعادة، ولكنه سيكون حجر أساس في سجل إنجازاتي بالإضافة إلى مختلف الإنجازات الأخرى.

ثم جلست لمشاهدة قسطنطين، والمترجمة الروسية، وزمرة الرجال السود والبيض والصفر، الذين كانوا يتجادلون في الطابق الأسفل، خلف ميكروفوناتهم التي تحمل تصنيفات خاصة، كانت أفواههم تعلو وتنخفض بدون صوت، كما لو كانوا يجلسون على متن سفينة مغادرة، تاركينني، وحيدة وسط الصمت الثقيل.

رحت أعدد كل الأشياء التي لم أكن أجيدها.

بدأت بالطبخ.

كانت جدتي وأمي طباختين من الدرجة الأولى، فاتكلت عليهما في إعداد الطعام. مع أنهما كانتا تحاولان تعليمي طريقة إعداد هذا الطبق أو ذاك، لكنني كنت أكتفي دائماً بالنظر والقول: (حسناً، حسناً) فيما تنساب التعليمات عبر رأس كالماء. وعادة ما كنت أفسد الطعام الذي أعددته حتى لا يُطلب مني القيام بإعداده مرة أخرى.

أذكر جودي، صديقتي المقربة الوحيدة، حينما كنا في السنة الدراسية الأولى في الكلية، زرتها ذات صباح في منزلها فأعدت لي بيضاً مخفوقاً. بدا الطبق شهياً بشكل استثنائي، وحين سألتها إن وضعت شيئاً إضافياً في مكوناته، قال إنها أضافت الجبن ونكهة الثوم. سألتها عمن علمها ذلك، فقالت لا أحد، ولكنه خطر ببالها فنفذته على الفور. كانت جودي من الأشخاص العمليين الذين يدرسون علم الإجتماع.

كما أنني لم أكن أجيد لغة الاختزال.

وكان ذلك يعني أنني لن أحظى بوظيفة جيدة بعد التخرج طبقاً لأمي التي كانت تخبرني دائماً أن لا أحد سيرغب في توظيف فتاة حاصلة على شهادة في اللغة الإنجليزية فقط. ولكنها إذا أجادت لغة الإختزال بالإضافة إلى شهادتها، فسوف يرغب الجميع في توظيفها. وسيقع عليها الاختيار من بين كل الشبان المتفوقين الذين تقدموا للوظيفة، كما ستدون (بلغة الاختزال) رسائل مثيرة بلا انتهاء.

كانت المشكلة تكمن في أنني أبغض فكرة خدمة الرجال بأي شكل من الأشكال. كنت أرغب في إملاء رسائلي المثيرة الخاصة بي. كما أن تلك الرمز الإختزالية الصغيرة، التي شاهدتها في الكتاب الذي أعطتني إياه أمي، بدت مزعجة مثل معادلات السيد منازي، حيث (أ) تساوي التسارع و(ت) تساوي الزمن.

أخذت قائمتي تطول شيئاً فشيئاً.

كنت راقصة سيئة. فلم تكن لي المقدرة على مجاراة الإيقاع. كما لم يكن لدي أي إحساس بالتوازن، فعندما كانوا يجبروننا في حصة الرياضة على المشي فوق لوح خشبي وأيدينا ممدودة بشكل أفقي واضعين كتاب فوق رؤوسنا، كنت أسقط في كل مرة. كنت أيضاً عاجزة عن ركوب الخيل أو التزحلق على الجليد (وهما الشيئان اللذان لطالما رغبت القيام بهما بشدة) لأن دروسهما تكلف مالاً كثيراً. ولم أستطع التحدث بالألمانية أو القراءة بالعبرية أو الكتابة بالصينية. حتى أنني كنت أجهل المكان الذي تقع فيه تلك البلدان البعيدة، التي يمثلها رجال الأمم المتحدة الجالسون أمامي.

بينما كنت جالسة في قلب بناية الأمم المتحدة العازل للصوت، بين قسطنطين الذي يجيد لعب التنس والترجمة الفورية على حد سواء، والصبية الروسية التي تعرف الكثير من العبارات، شعرت بالسوء العارم على نفسي لأول مرة في حياتي. المشكلة هي أنني كنت دائما أشعر بالسوء على نفسي، ولكن من دون أدرك ذلك.

كان الشيء الوحيد الذي أتقنه في حياتي هو حصد الجوائز والمنح الدراسية، وكانت تلك الفترة على وشك الإنتهاء.

كنت أشعر بأنني حصان سباق في عالم لا توجد فيه حلبات سباق، أو أنني مثل بطل من أبطال كرة القدم في الجامعة، وهو يخرج إلى عالم وول ستريت وينصدم برجال الأعمال الذين يرتدون البدلات، ويرى أيام مجده قد ولت من أمامه، لتصبح مجرد كأس ذهبية صغيرة موضوعة على إحدى الرفوف، ومنقوش عليها تاريخ شبيه بالتواريخ التي تنقش على شواهد القبور.

شاهدت حياتي وهي تتفرع أمام مثل أغصان شجرة التين التي كانت في تلك الحكاية. وفي طرف كل غصن كان مستقبل رائع يومىء إلى ويغمز لي بعينه مثل تينة أرجوانية ممتلئة. كانت إحدى التينات زوجاً وأطفالاً ومنزلاً سعيداً، والأخرى شاعرة ذائعة الصيت، والثالثة أستاذة جامعية متميزة، والرابعة المحررة المدهشة (بي جي)، والخامسة أوروبا وأفريقيا وجنوب أمريكا، والسادسة قسطنطين وسقراط وأتيلا وحفنة عشاق آخرين بأسماء غريبة ومهن غير مألوفة، والسابعة بطلة الفريق الأولمبي للسيدات، وكانت فوق كل تلك الثمار ثمار أخرى لم أستطع تمييزها.

رأيتني جالسة في مقدمة شجرة التين تلك، أتضور جوعاً حتى الموت، لأنني لم أقرر أي ثمرة سوف أختار. فقد كنت راغبة في كل واحدة منها، واختيار واحدة يعني التخلي عن الأخريات. جلست هناك، عاجزة عن اتخاذ القرار المناسب، فراحت الثمار تذبل ويتغير لونها حتى سقطت من بين قدمي على الأرض، الواحدة تلو الأخرى.

كان للمطعم الذي اصطحبني له قسطنطين رائحة الأعشاب والتوابل والقشطة الحامضة. لم يسبق لي، طيلة فترة إقامتي في نيويورك، أن صادفت مطعماً مماثلاً له. كل ما عثرت عليه كان مطعم (هفنلي هامبرغر Heavenly Hamburger) الذي يقدم شطائر الهامبرغر الضخمة وحساء يومي وأربعة أصناف من الحلويات الفاخرة على منضدة نظيفة جداً مواجهة لمرآة مطويلة ومصقولة بعناية.

كان علينا أن نهبط تسع درجات منارة بضوء خافت في مكان يشبه القبو، حتى نصل إلى ذلك المطعم.

كانت ملصقات الرحلات تغطي الجدران المطلية باللون الأسود كالدخان، مثل العديد من النوافذ التي تطلع على البحيرات السويسرية والجبال اليابانية والمروج الأفريقية. وكانت هناك شموع مضيئة في قوارير زجاجية مغبرة، كما لو كانت تذرف منذ قرون شمعها الملون بالأحمر ثم

الملون بالأزرق ثم الملون بالأخضر، محاطة بشريط مخرم ثلاثي الأبعاد، وتنشر هالة من الضوء حول جميع الطاولات المزدحمة بالوجوه التي تتورد وتتوهج مثلها.

لم أدر ما أكلت، لكن شعوراً بالتحسن غمرني بعدما تناولت اللقمة الأولى. تبادر إلى ذهني أن رؤياي المتعلقة بشجرة التين، وكل تلك الثمار الممتلئة التي ذبلت وسقطت على الأرض، كانت ناجمة عن الخواء الكبير لمعدة خاوية تماماً.

ظل قسطنطين يعيد ملء كأسينا بنبيذ إغريقي لذيذ، له طعم شبيه بلحاء الصنوبر، ووجدت نفسي أخبره كيف كنت عازمة على تعلم اللغة الألمانية والسفر إلى أوروبا لأصبح مراسلة حربية مثل ماغي هنغز Maggie Higgins[29].

انتابني شعور رائع عندما حان وقت تناول الزبادي المحلى بمربى الفراولة فقررت أن أتيح المجال أمام قسطنطين لإغوائي.

فمنذ أن أخبرني بدي ويلارد عن علاقته بتلك النادلة، وأنا أفكر بإقامة علاقة مع شخص آخر. فالنوم مع بدي لن يغير في الأمر شيئاً لأنه سيكون متفوقاً علي، لذا يجب أن أفعل ذلك مع شخص غيره.

كان الشخص الوحيد الذي تحدثت معه بموضوع إقامة علاقة جنسية، هو فتى متهور قادم من الجنوب، لديه أنف أفطس، ويدرس في كلية ييل، جاء لزيارة كليتنا في إحدى عطل نهاية الإسبوع، ليجد أن رفيقته قد هربت مع سائق تاكسي في اليوم الذي يسبق العطلة، وبما أن الفتاة كانت تقطن في نفس السكن الذي كنت أعيش فيه، وبما أنني كنت الفتاة الوحيدة الموجودة هناك في تلك الليلة، فرأيت أنه من الواجب عليّ أن أخفف عنه.

احتسينا عدة فناجين من القهوة، الواحد تلو الآخر، في مقهى شعبي، يقع في كشك متوار عن الأنظار، وله جدران خشبية عالية حفرت عليها أسماء مئات الأشخاص، هناك في ذلك المقهي، تحدثنا بصراحة عن الجنس.

قال ذلك الشاب (والذي كان يدعى إيريك) أنه يشعر بالإشمئزاز من الطريقة التي تقف فيها فتيات كليتي في الشرفات، أو تحت أضواء الشارع أو تحت الأشجار، وهن يتعانقن بطريقة جنونية،

على مرأى الجميع، قبل موعد حظر التجوال في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حتى يلفتن إليهن أنظار جميع من يمر بالجوار (مضت ملايين السنين من التطور البشري) قال إيريك بامتعاض (وما نحن؟ حيوانات!).

ثم أخبرني إيريك عن أول علاقة كانت له مع امرأة.

كان قد التحق بمدرسة تحضيرية في الجنوب متخصصة في تعليم الرجال مبادىء الشخصية المثالية، حيث كان يتوجب على الطالب ـ وفقاً للقانون المتعارف عليه ـ أن يتعرف على إمرأة ما قبيل التخرج. (أن يتعرف عليها وفق التفسير المسيحي للكلمة) قال إيريك.

هكذا، وفي أحد أيام السبت، استقل إيريك وبعض زملائه في الدراسة حافلة للذهاب إلى أقرب مدينة، وقاموا بزيارة ماخور سيء السمعة. فلم تتجشم العاهرة التي تولت أمره عناء خلع ملابسها. كانت امرأة سمينة، في منتصف عمرها، كانت لديها شعر أحمر، وشفتين غليظتين على نحو مريب، وبشرة بلون جلد الفئران. لم ترغب في إطفاء الضوء، فضاجعها أسفل مصباح بقوة خمسة وعشرين واط، يتطاير الذباب من حوله. لم يكن الأمر مثلما تخيله. كان مضجراً كالذهاب إلى المرحاض.

قلت له أن الأمر سيكون مختلفاً لو فعل ذلك مع امرأة يحبها، لكنه قال إن تلك المثالية سوف تنهار حين يتخيل أنها مجرد حيوانة مثل الأخريات، لذا فإنه لن يذهب إلى السرير مع المرأة التي سوف يحبها. بل سيذهب إلى عاهرة إن لزم الأمر، مبقياً المرأة التي يحبها بمنأى عن كل تلك العملية القذرة.

حينها، خطر ببالي أن إيريك سوف يكون الشخص المناسب لإقامة علاقة، لاسيما وأنه قد جرب ذلك من قبل. لم يكن بذيئاً ولا سخيفاً عندما تحدث عن الجنس، مثلما يفعل الشبان العاديون. غير أن إيريك كتب لي رسالة في وقت لاحق يقول فيها أنه يعتقد بإمكانية أن يقع في حبي، فأنا فتاة ذكية ومرحة ولي ملامح توحي بالطيبة، مثل ملامح أخته الكبرى على نحو مدهش، فعرفت أنه لا فائدة من المحاولة، فأنا من النوع الذي لن يذهب معه إيريك إلى الفراش أبداً، فكتبت له رسالة أقول فيها إنني على وشك الزواج بالشخص الذي أحببته منذ أيام الطفولة.

وكلما تفكرت في الأمر، راقع لي فكرة أن يغويني مترجم فوري يعمل في مدينة نيويورك. بدا قسطنطين رجلاً ناضجاً ويعطي اهتماماً كبيراً بمشاعر الآخرين. فهو لن يتفاخر في الحديث عن علاقتنا أمام الأشخاص الذين يعرفهم مثلما يفعل شبان الكلية أمام من يسكنون معهم، أو أمام أصدقائهم في فريق كرة السلة، كلما أقاموا علاقة مع فتاة في مقاعد السيارة الخلفية. كما ستكون هناك مفارقة لطيفة في النوم مع رجل عرفتني إليه السيدة ويلارد، حتى تبدو ملامة على ذلك بطريقة غير مباشرة.

وحين سألني قسطنطين إن كنت راغبة في الذهاب إلى شقته للإستماع لبعض اسطوانات موسيقى (البالالايكا[30])، تبسمت في سري. فلطالما نصحتني أمي بعدم الذهاب - تحت أي ظرف كان - إلى شقة رجل أمضيت الليل بالسهر معه، فذلك لن يعني سوى شيء واحد فقط.

قلت (أنا مغرمة بموسيقى البالالايكا).

كانت لشقة قسطنطين شرفة مطلة على النهر، كان بإمكاننا الإستماع إلى صوت حركة أشرعة الزوارق المبحرة في الظلام. فشعرت بمزيج من الإثارة والغنج والثقة التامة بشأن ما أنا عازمة على القيام بفعله.

فكرت باحتمالية أن أصبح حاملاً، غير أن تلك الفكرة كانت تبدو بعيدة وغير مؤرقة بالنسبة لي. فلا توجد طرق مؤكدة لمنع الحمل، مثلما أشارت إلى ذلك المقالة التي اقتطعتها أمي من مجلة ريبدرز دايجست Readers Digest[31]، وأرسلتها إلي عبر البريد الموجه إلى الكلية. كانت تلك المقالة بعنوان (في الدفاع عن العفة) كتبتها محامية متزوجة ولديها عدد من الأطفال.

ذكرت تلك المقالة كل الأسباب الممكنة كي لا تنام الفتاة مع أي أحد سوى زوجها، ولا يكون ذلك إلا بعد الزواج فقط.

تركزت المقالة حول فكرة أساسية مفادها أن عالم الرجال مختلف عن عالم النساء، وأن عواطف الرجل مختلفة عن عواطف المرأة، ولا يوحد العالمين المتضادين والعواطف المختلفة معاً، سوى الزواج. قالت أمي أن الفتيات لا يدركن ذلك إلا بعد فوات الأوان، لذا يتوجب عليهن الأخذ بنصيحة من جربوا ذلك، مثل امرأة متزوجة على سبيل المثال.

ترى المحامية أن أفضل أنواع الرجال هم من يرغبون في المحافظة على عفتهم لأجل زوجاتهم، وحتى إن كانوا غير ذلك، فإنهم يرغبون في أن يكونوا أول من يعلموا زوجاتهم بكل ما يخص الجنس. ومما لا شك فيه أنهم سيحاولون استدراج فتاة لممارسة الجنس وإقناعها أنهم سيتزوجونها لاحقاً، ولكنها فور أن تستسلم لرغباتهم سيفقدون إحترامهم لها، ثم يشرعون في القول إنها ما دامت قد مارست ذلك معهم، فإنها سوف تمارسه بكل بساطة مع الآخرين، ولن يتوقفوا عن ذلك حتى يحيلو حياتها إلى جحيم تام.

ثم تختم المرأة مقالتها قائلة إن الشعور بالأمان أفضل من الندم بعد فوات الأوان، كما لا توجد هناك أي طرق ناجحة تحول دون أن تتورط الفتاة في الإنجاب، مما يضعها أمام مأزق حقيقي.

الشيء الوحيد الذي لم يأخذه ذلك المقال بعين الإعتبار هو شعور الفتاة الحقيقي.

قد يكون من الجميل أن تتزوج فتاة عفيفة من رجل عفيف، ولكن ماذا لو اعترف لها، فجأة، بعد الزواج، أنه ليس كذلك، مثلما فعل بدي؟ لا أحتمل فكرة أن يُفرض على المرأة أن تحيا عفيفة، فيما يستطيع الرجل أن يحيا حياة مزدوجة، واحدة تتسم بالعفة والأخرى عكس ذلك.

وأخيراً قررت أنه يستحيل العثور على رجل ذكي، ومفعم بالحيوية، ولا يزال محافظاً على عذريته بحلول سن الحادية والعشرين، فإنه يجدر بي أن أنسى مسألة أن أبقى عفيفة، وأن أتزوج رجلاً ليس عفيفاً أيضاً. حيث أستطيع أن أنغص عليه صفو حياته في الوقت الذي يشرع فيه بالتغنيص علي.

عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري، كانت مسألة العذرية هي القضية الكبرى.

فبدلاً من أن ينقسم العالم إلى كاثوليك وبروتستانت، أو جمهوريين وديموقراطيين، أو رجال بيض وسود، أو حتى رجالاً ونساءً، رأيت أن العالم قد انقسم إلى فريق قد أقام أعضاءه علاقة مع أشخاص آخرين، وفريق آخر لم يقم أعضاءه بإقامة علاقة بعد، وقد بدا هذا هو الفارق الجوهري الوحيد، الذي نستطيع من خلاله تمييز شخص عن آخر.

كنت أظن بأن تغيراً مثيراً سوف يطرأ على حياتي في اليوم الذي أتجاوز فيه ذلك الحد الفاصل.

ظننته سيكون مثل الشعور الذي سأشعره عندما أزور أوروبا، وأعود إلى منزلي، محدقة في المرآة، ومستحضرة منظر جبل الألب الأبيض الذي ارتسم صغيراً خلف عيني. فكرت أنني إذا نظرت في المرآة غداً، سوف أرى قسطنطين صغيراً، بحجم الدمية، يجلس في عيني ويبتسم إلي.

حسناً، مكثنا ساعة في شرفة شقة قسطنطين، فوق كريسيين مريحين ومنفصلين، فيما كنا نستمع إلى الموسيقى الصادرة من آلة تشغيل الاسطوانات، من ماركة (فيكتورلا)، وأسطوانات البالالايكا مكدسة بيننا. انبعث ضوء لبني خافت من خارج الشرفة، لعله كان ضوء الشارع أو ضوء القمر، أو السيارات، أو النجوم، لم أستطيع تمييز شيء، غير أن قسطنطين (فيما عاد إمساكه بيدي) لم يبد أي رغبة تُذكر في إغوائي.

سألته إن كان على علاقة بفتاة أخرى، معتقدة أن ذلك سبب تردده، لكنه نفى قائلاً إنه قد عقد العزم على الابتعاد عن مثل تلك العلاقات.

ثم شعرت بخدر يسري في عروقي جراء النبيذ الذي كان بطعم لحاء الصنوبر.

(أعتقد أنني سأذهب للإستلقاء في الداخل)، قلت.

اتجهت من دون تخطيط إلى غرفة النوم، ثم انحنيت لأخلع حذائي. كان السرير النظيف يهتز أمامي مثل القارب الذي يهتز فوق المياه، تمددت عليه وأغلقت عيني. ثم سمعت صوت قسطنطين يتنهد وهو يغادر الشرفة نحو الداخل. وسقطت فردتا حذائه على الأرض، الأولى ثم الثانية، محدثة صوتاً مكتوماً، ثم استلقى إلى جانبي.

اختلست النظر إليه من خلال شعري المتساقط.

كان ممدداً على ظهره، متوسداً يديه، وعيناه تتفحصان سقف الغرفة. كان مشمراً قميصه الأبيض إلى مرفقيه، فبدت أكمامه لامعة وسط الظلام على نحو غريب، وبدت بشرته المسمرة سوداء تقريباً. لقد كان أجمل رجل شاهدته في حياتي

تمنيت أن تكون لديّ تقاسيم حادة ورائعة، أو أن تكون لدي المقدرة في مناقشة السياسة بمكر ودهاء، أو أن أصبح كاتبة مشهورة، ربما كان قسطنطين سوف يرغب في النوم معي حينها.

ثم تساءلت إن كان سيغرقه الملل إذا أحبني، أو إن كنت سأكتشف عيوبه، الواحدة تلو الأخرى، مثلما كان الأمر مع بدي والشبان الآخرين الذين سبقوه.

إن هذا الشيء يكرر نفسه في كل مرة،

قد ألمح شخصاً يظهر بلا خطايا من بعيد، لكنني سرعان ما أكتشف أنه بخلاف ذلك حينما يقترب مني.

كان ذلك واحداً من الأسباب الذي جعلتني أرفض فكرة الزواج. كان آخر شيء أفكر فيه هو الأمان اللانهائي الذي يركن إليه المتزوجون، وأن أكون المكان الذي ينطلق منه السهم. لقد رغبت دائماً في التغيير والإثارة، وأن أنطلق في كل الإتجاهات، مثل السهام الملونة للإلعاب النارية التي تنطلق في احتفالات الرابع من يوليو.[32]

أيقظني صوت المطر.

كان الظلام دامساً، استطعت أن أتبين بعد لحظات، الحدود الباهتة لنافذة غير مألوفة. بين كل حين وآخر كان يلتمع في الأفق شعاع لامع، ينفذ في الجدار مثل إصبع شبح استطلاعي، ثم يتبدد مرة أخرى.

ثم تناهى إلي صوت أنفاس شخص ما.

ظننت في البداية أنه صوت أنفاسي، وأنني كنت مستلقية في العتمة في غرفتي بالفندق بعد تعرضي للتسمم. حبست أنفاسي، لكن صوت الأنفاس لم يتوقف.

توهجت عين خضراء بجانبي على السرير. كانت مقسمة أرباعاً مثل بوصلة. مددت يدي نحوها ببطء وأطبقتها عليها. ثم رفعتها. كانت معلقة بذراع رجل، ثقيلة مثل رجل ميت، لكنها دافئة مع النوم.

كانت عقارب ساعة قسطنطين تشير نحو الثالثة.

كان ممدداً في قميصه وسرواله وجورابه مثلما تركته حين خلدت إلى النوم، وعندما اعتادت عيناي على الظلام، تبينت جفونه الشاحبه وأنفه المستقيم، وفمه المتسامح الجميل، لكنها بدت خيالية

كما لو كانت تطفو فوق الضباب. انحنيت فوقه، لدقائق معدودة، درست ملامحه جيداً، لم يسبق لي أن نمت بجوار رجل أبداً.

حاولت تخيل كيف سيكون عليه الأمر لو كان قسطنطين زوجي.

سيعني ذلك النهوض في الساعة السابعة صباحاً، وقلي شرائح اللحم المقدد مع البيض، وإعداد الخبز المحمص والقهوة، وأن أبدد الوقت بقميص النوم، وشعري المعقوص بمجعدات الشعر بعد ذهابه إلى العمل، فأغسل الصحون المتسخة تارة، وأرتب الأسرة تارة أخرى. حتى يعود إلى المنزل، بعد يوم آسر مفعم بالحياة، متأملاً أنني قد أعددت له عشاءً من النوع الفاخر، ثم أقضي بقية المساء في غسل المزيد من الصحون المتسخة، إلى أن أسقط على السرير وقد هدني التعب.

بدت تلك الحياة مهدرة، وباعثة للكآبة، بالنسبة إلى فتاة حصلت على أعلى العلامات الدراسية طوال خمس عشرة سنة، لكنني عرفت أن هذه هي حقيقة الزواج، لأن الطبخ والتنظيف والغسيل كانت هي نفس الأشياء التي تقوم بها السيدة ويلارد منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس، رغم أنها كانت تعمل كمعلمة في مدرسة خاصة وزوجة أستاذ جامعي.

في إحدى المرات التي زرت فيها منزل بدي، وجدت السيدة ويلارد تحيك سجادة من بقايا الستر الصوفية العتيقة التي تخلص منها السيد ويلارد. أمضت عدة أسابيع وهي تصنع تلك السجادة، أعجبت بالطريقة التي كانت تعقد فيها الخيوط البنية والخضراء والزرقاء معاً، وبعد أن أنهت السيدة ويلارد السجادة، لم تعلقها على الحائط مثلما كنت سأفعل، بل وضعتها بدلاً من ممسحة المطبخ القديمة. فلم تمض بضعة أيام حتى اتسخت وصارت باهتة اللون، ولا يمكن التفريق بينها وبين أية ممسحة يستطيع المرء شراءها بأقل من دولار، من إحدى المراكز التجارية التي تبيع المواد الرخيصة.

كنت أعرف أنه رغم كل الورود والقبلات وحفلات العشاء التي يغدقها الرجل على المرأة قبل الزواج، إلا أنه ما يتوق إليه، في سره، بعد انتهاء مراسيم الزواج، هو أن تسجد زوجته تحت قدميه، مثل ممسحة مطبخ السيدة ويلارد.

ألم تخبرني أمي أنه ما إن غادرت هي وأبي من مدينة (رينو Reno) التي قضوا فيها شهر العسل (كان أبي متزوجاً من قبل، فتوجب عليه الحصول على الطلاق) حتى قال لها والدي: (يا

للعجب! يا لها من راحة، نستطيع الآن التوقف عن الإدعاء، وأن نتصرف على سجيتنا)، ومنذ ذلك اليوم لم تنعم أمي بدقيقة راحة واحدة.

كما تذكرت بدي ويلاردة، وهو يقول بطريقة شريرة، إن شعوراً مختلفاً سوف يسيطر عليّ بعد الإنجاب، ولن تعود لي الرغبة في كتابة قصائد أبداً، هكذا أخذت أفكر باحتمالية أن تكون المرأة المتزوجة والمعيلة لأطفالها، قد تعرضت لغسيل دماغ، حتى أصبحت متبلدة الحس، مثل أمه، في واحدة من البلدان المضطهدة.

كنت أنظر إلى قسطنطين، مثلما ينظر المرء إلى حجر لامع في قعر بئر عميقة، لا يمكنه الوصول إلى قاعه، رفع جفنيه ونظر إليه، فكانت عيناه مليئتان بالحب. نظرت إليه بصمت، اقراراً له بالفضل، كقفل انغلق بحنان، حينها لمعت حدقة عينيه، حتى أصبحت أكثر عمقاً، مثل إمتياز محاط بالجلد.

نهض قسطنطين متثائباً. (كم الساعة الآن؟).

(الثالثة صباحاً) قلت بصوت هامس (من الأفضل أن أذهب الآن. عليّ أن أذهب إلى العمل باكراً).

(سأقلك بالسيارة).

جلسنا متجاورين على حافة السرير، نتحسس أحذيتنا من خلال الضوء الأبيض البراق لمصباح السرير، ثم استدار قسطنطين نحوي وقال: (هل شعرك على هذه الشاكلة دائماً؟)

(أية شاكلة؟)

لم يجب، لكنه مد يده نحو منابت شعري، ومرر أصابعه، ببطء، حتى أطرافها، كما لو كانت مشطاً. أصابتني رعشة، فبقيت هادئة تماماً، فمنذ طفولتي وأنا أحب أن يمشط شعري شخص ما. فذلك يجعلني أشعر بالسكينة والرغبة في النوم.

(آه، عرفت سر ذلك) قال قسطنطين. (لقد قمت بغسله حديثاً).

ثم انحنى ليعقد رباط حذائه الرياضي.

وبعد ساعة، تمددت في سريري بالفندق، مصغية إلى صوت المطر، لم يبدو الصوت مثل صوت تساقط الأمطار، بل كان أشبه بصوت الماء الذي ينبعث من حنفية جارية. فجأة شعرت بالألم في منتصف عظم ساقي اليسرى، فصار النوم قبل الساعة السابعة أمراً مستحيلاً، كان منبه ساعة الراديو هو من يتولى أمر إيقاظي بنغماته القوية التي تحاكي ألحان الموسيقار (جون فيليب سوزا[33])

كلما أمطرت، بدا كسر الساق القديم يتذكر نفسه، فتقفز إلى الذاكرة ذكرى الجراح المضجرة.

ثم فكرت: (لقد جعلني بدي ويلارد أكسر تلك الساق).

(كلا أنا التي كسرتها. كسرتها عمداً لأعاقب نفسي على دناءتي).

(8)

أقلني السيد ويلارد بسيارته إلى مصحة بدي في جبال الأيدروندداكس[34].

كان ذلك في اليوم الذي تلا عطلة عيد الميلاد، كنا نسير تحت سماء رمادية محملة بالثلج، فشعرت بالامتلاء والغثيان وخيبة الأمل، مثلما يحصل لي دائماً، في الأيام التي تلي أعياد الميلاد، كما لو كانت كل أغصان الصنوبر، والشموع، والهدايا المغلفة بشرائط فضية وذهبية، والنيران المشتعلة من خشب البتولا، والديك الرومي، وأصوات الترانيم المغناة على ألحان البيانو - لم تحصل أبداً.

كنت أتمنى في أعياد الميلاد لو أنني ولدت كاثوليكية.

في البداية، تولى السيد ويلارد أمر قيادة السيارة، ثم قمت أنا بالقيادة، لا أعلم بالتحديد ما هي الأشياء التي تحدثنا عنها، ولكن عندما علقنا في الريف المطمور تحت طبقات الثلج القديم. والمحاط بأشجار التنوب[35] الذي بدت سوداء اللون لخضرتها الداكنة، تصاعد شعوري بالكآبة أكثر فأكثر.

شعرت برغبة ملحة في إخبار السيد ويلارد أن يواصل الطريق بمفرده، فيمكنني أن أتدبر أمر الحصول على توصيلة مجانية إلى البيت.

ولكن نظرة واحدة إلى وجه السيد ويلارد (بشعره الفضي المصفف بطريقة شبابية شبيهة بموضة شعر جنود البحرية، وعينيه الزرقاوين الصافيتين، وخديه المتوردين، كخدي فتاة جميلة وبريئة على وشك الزواج) جعلتني أدرك مدى استحالة ذلك. عليّ تحمل الزيارة حتى النهاية.

في منتصف النهار، تلاشى لون السماء الرمادي قليلاً. فأوقفنا السيارة عند منعطف جليدي، وتشاركنا فطائر التونة وبسكويت الشوفان وثمار التفاح والترمس، ثم احتسينا القهوة التي أعدتها السيدة ويلارد لغدائنا.

كان السيد ويلارد ينظر إليّ بلطف. ثم أخرج صوتاً شبيهاً بالسعال حتى ينقي مجرى حنجرته، يمكنني التكهن بأنه كان على وشك التلفظ بشيء جدي لأنه كان في غاية الخجل، فقد سمعته ذات مرة يسعل بهذه الطريقة قبل أن يهمَ بإلقاء محاضرة مهمة في الإقتصاد.

(لطالما رغبنا، أنا ونيلي، في إنجاب طفلة).

فكرت لمدة دقيقة جنونية، أن السيد ويلارد كان سيعلن أن السيدة ويلارد حامل، وتتوقع إنجاب طفلة. ثم قال: (لكنني لا أعرف كيف يمكن لفتاة أخرى أن تكون أجمل منك).

لا بد أن السيد ويلارد قد اعتقد أن بكائي كان ناجماً عن سعادتي لرغبته في أن يكون أباً لي. (هناك، هناك) ربت على كتفي، وسعل مرة أخرى، أو مرتين، ثم قال: (أظن أننا نفهم بعضنا البعض).

ثم فتح باب السيارة المجاور له، ومشى نحو الجهة التي كنت أجلس فيها. كانت أنفاسه تشكل سحابات دخان متعرجة في الهواء الرمادي. تحركت إلى المقعد الذي كان يجلس عليه، بادلنا الأدوار، ثم أدار محرك السيارة، وانطلقنا من جديد.

لا أعرف ما هو الشيء الذي كنت أتوقع أن تكون عليه المصحة التي يتعالج فيها بدي.

توقعت أن تكون واحدة من الأكواخ الخشبية التي تم بنائها فوق قمة جبل صغير، يقيم فيها شبان وشابات بخدود وردية، وبملامح في غاية الجاذبية، ولكن عيونهم كانت تلمع بالحمى، مستلقين في الشرفات الخارجية، ومتدثرين بأغطية ثقيلة.

كتب لي بدي ذات مرة: (أن تكون مريضاً بالسل يعني أن تعيش مع قنبلة في رئتيك)، (عليك أن تمدد في هدوء على أمل ألا تنفجر في داخلك).

كنت أجد صعوبة في تخيل بدي طريح الفراش. كان مفاد فلسفته في الحياة، أن الإنسان يجب أن يكون واقفاً على قدميه ويعمل في كل ثانية. كان دائم النشاط، حتى عندما ذهبنا في رحلة إلى الشاطىء في الصيف، لم يأخذ قيلولة تحت الشمس مثلما فعلت أنا. كان يركض، جيئة وذهاباً، أو يلعب بالكرة، أو يقوم بأداء سلسلة سريعة من التمارين الرياضية، ليتسغل بها وقته.

بدا لون ديكور المصحة بأكمله محاكياً للون الكبد. أعمال خشبية متوهجة، مقاعد جلدية باللون البني الغامض، جدران كانت بيضاء ذات يوم، ثم تغير لونها بسبب تفشي العفن والرطوبة. وكان هناك مشمع بني مرقط يفرش كل الأرضية.

كانت هناك طاولة قهوة منخفضة العلو في غرفة الإنتظار، حُفِرت على قشرتها الداكنة بقع دائرية ونصف دائرية، تعلوها بضعة أعداد مهترئة من مجلة تايم Time ومجلة لايف Life، تصفحت المجلة الأقرب إلى حتى وصلت إلى منتصفها. التمع أمامي وجه أيزنهاور Eisenhower[36] بملامحه الخالية من التعبير ورأسه الأصلع، مثل رأس جنين محفوظ في القارورة.

بعد مضي القليل من الوقت، انتبهت إلى صوت ضجيج أخذ يتسلل إلى مسامعي على نحو خبيث، ظننت في البداية أن الجدران أخذت بتصريف الرطوبة التي تشبعت بها. ثم اكتشفت أن مصدر صوت الضجيج كان من نافورة صغيرة في إحدى زوايا الغرفة.

كانت المياه المنبعثة من النافورة تتطاول بضع بوصات في الهواء، مندفعة من أنبوب صلب، ومطلقة سراح ذراعيها، لتنهار قطراتها المبعثرة، وتستقر في حوض حجري ممتلىء بالمياه المصفرة. كانت حجار القرميد، السداسية الأضلاع، مرصوفة بنظام على جوانب الحوض، مثل التي ترتصف على جدران دورات المياه العمومية.

رن جرس كهربائي، فانفتحت الأبواب ثم أغلقت من بعيد، ثم وجدنا بدي أمامنا.

(مرحباً أبي).

عانق بدي والده، ثم تحول بريق عينيه المرعب نحوي، ومد يديه. فصافحته. حتى شعرت بالدهون والعرق الذي كان عالقاً بها. جلسنا أنا والسيد ويلارد، على أريكة جلدية. بينما جلس بدي

مواجهاً لنا على طرف كرسي أملس بذراعين. واصل الابتسام، كما لو كان طرفا فمه مربوطين بسلك غير مرئي.

كان آخر شيء توقعته أن أجد بدي سميناً إلى هذا الحد. كنت أتخيله طوال الوقت في المصحة وقد حفر التعب ظلالاً تحت عظام وجنتيه، واحترقت عيناه في تجويف يخلو من اللحم.

ولكن كل الأشياء المقعرة التي كان عليها جسد بدي، استحالت محدبة فجأة. تدلى بطنه المنتفخ من تحت قميص أبيض ضيق مصنوع من النايلون، وبدت عيناه مدورتين ومتوردتين مثل حلوى المرصبان التي تأتي على هيئة الفاكهة. حتى أن صوت ضحكاته غدا منتفخاً من التخمة.

تبادلنا النظرات. (إنه الطعام) قال بدي (يتخموننا بالطعام يوماً بعد يوم، ثم يتركوننا لنستلقي في أماكننا. لكنهم الآن سمحوا لي بالخروج والتنزه لساعات، فلا تقلقي، سوف يخف وزني خلال أسبوعين). ثم قفز في مكانه، وابتسم مثل مضيف سعيد (هل ترغبان برؤية غرفتي؟)

تبعت بدي، وسار السيد ويلارد خلفي، فعبرنا من خلال باب متحرك صنعت ألواحه من الزجاج المصقول، نحو رواق معتم بلون الكبد، تفوح منه رائحة شمع الأرضيات والليزول[37]، ورائحة أخرى أشد غرابة، مثل رائحة أزهار الغاردينيا المجففة.

دفع بدي باباً بنياً، فدخلنا إلى غرفة ضيقة.

كان هناك سرير ضخم قد احتل أغلب مساحة الغرفة، تغطيه ملاءة بيضاء مقلمة بالأزرق. وكانت هناك طاولة بجانب السرير، عليها أبريق زجاجي وكأس لشرب الماء، فيما كان مؤشر ميزان الحرارة، المصنوع على شكل غصن فضي، يتدلى من قارورة وضع فيها مطهر وردي اللون. وثمة طاولة أخرى، مغطاة بالكتب والأوراق والجرار الفخارية غير المتوازنة (والتي تم تسخينها بالفرن ثم طليها، غير أنها لم تكن مصقولة على نحو جيد) كانت الجرار محشورة بين قائمة السرير وباب الخزانة.

(حسناً) همس السيد ويلارد، (تبدو مريحة تماماً).

ضحك بدي.

(ماهذه؟) التفطت منفضة سجائر مصنوعة من الفخار على شكل ورقة زنبق، حيث كانت تفاصيل العروق مرسومة، بعناية، باللون الأصفر على خلفية باللون الأخضر الداكن. لم يكن بدي مدخناً.

(تلك منفضة سجائر) قال بدي (إنها لكِ).

أعدت المنفضة إلى مكانها. (لكنني لا أدخن).

(أعرف)، قال بدي. (ظننت أنها قد تعجبك على أية حال).

(حسناً) لعق السيد ويلارد شفاهه الجافة ثم قال (يجدر بي الإنصراف الآن. سأتركما معاً أيها الشابين...)

(لا بأس، يا أبي. يمكنك الذهاب).

كان الأمر مفاجئاً لي. ظننت أن السيد ويلارد سوف يبقى معنا لهذه الليلة حتى يصحبني في سيارته إلى المنزل في اليوم التالي.

(هل آتي معك؟).

(كلا، كلا). أخرج السيد ويلارد بعض الأوراق النقدية من محفظته وناوالها إلى بدي.

(كن حريصاً على أن تنعم إيستر بمقعد مريح في القطار. لعلها سوف تقضي يوماً أو أكثر).

رافق بدي والده إلى الباب.

شعرت أن السيد ويلارد قد تخلى عني. لا بد أنه قد خطط لكل ذلك منذ البداية، لكن بدي أنكر الأمر، وقال إن والده بكل بساطة، لا يحتمل منظر المرض خاصة مرض ابنه، فهو يعتقد أن المنشأ الوحيد لجميع الأمراض هو الإرادة. لم يمرض السيد ويلارد في حياته أبداً.

جلست على سرير بدي. فلم يكن ثمة مكان آخر لأجلس فيه.

أخذ بدي يتفحص أوراقه على طريقة رجال الأعمال. ثم ناولني مجلة رمادية رقيقة (افتحيها على الصفحة الحادية عشرة).

كانت المجلة مطبوعة في إحدى دور النشر التي في ولاية مين Maine، مليئة بالقصائد وفقرات سردية مطبوعة بواسطة (المرسام[38])، وتفصلها عن بعضها بعضاً بضعة رموز نجمية (إجامات[39]). وجدت قصيدة في الصفحة الحادية عشرة تحت عنوان (فجر فلوريدا). تنقلت من صورة إلى أخرى تصف أضواء البطيخ وأشجار النخيل البنية وأصدافاً مسننة مثل قطعٍ مستوحاة من العمارة اليونانية.

(ليست سيئة) قلت، مع أنني رأيت أنها قصيدة فظيعة.

(احزري من كتبها؟) سأل بدي مبتسماً على نحو غريب وساذج.

وقعت عيني على الاسم المدون في أسفل الزاوية اليمنى من الصفحة: بي. إس. ويلارد.

(لا أعرف). ثم قلت: (بالطبع أعرف من كتبها يا بدي، إنه أنت).

اقترب بدي مني، فتراجعت إلى الخلف. لم أكن محيطة بمعرفة كافية عن مرض السل، لكنه بدا لي مرضاً شديد الخطورة، ينتشر على نحو غير مرئي. فكرت باحتمالية أن يكون المكان الصغير الذي يجلس فيه بدي مليئاً بجراثيم السل المميتة.

(لا تقلقي) ضحك بدي. (فمرضي من النوع الحميد).

(حميد؟)

(لن تتنقل إليك العدوى).

توقف بدي ليلتقط أنفاسه، مثلما يفعل المرء في خضم تسلقه لمرتفع شاهق.

(أريد أن أطرح عليك سؤالاً ما). كان قد اكتسب عادة جديدة مزعجة، تكمن في النظر إلى عيني مباشرة، كما لو كان يريد أن يخترق رأسي فعلياً ليعرف ما يدور في داخله.

(فكرت أن أطرح الأمر في رسالة ما).

تجلت أمامي رؤية خاطفة لمظروف أزرق باهت يحمل شعار جامعة بيل.

(لكنني عدلت عن ذلك. وقررت انتظار مجيئك لأطرح عليك السؤال بشكل مباشر). ثم توقف عن الكلام لبرهة (حسناً، ألا ترغبين في معرفة الأمر؟).

(ما هو؟) قلت بنبرة صوت منخفضة توحي بالخيبة.

جلس بدي ملاصقاً لي، واضعاً ذراعه حول خصري، وممسداً باليد الأخرى الشعر المتدلي على أذني. تسمرت في مكاني. ثم سمعته يهمس: (ما رأيك في أن تصبحي زوجة بدي ويلارد المصون؟).

انتابتني رغبة ملحة في الضحك.

فكرت كيف كان لذلك السؤال أن يقلب حياتي، رأساً على عقب، لو سألني إياه في تلك السنوات الخمس، أو الست، التي عشقت فيها بدي ويلارد عن بعد.

لاحظ بدي ترددي.

(آه، أعلم أن مظهري يبدو مزرياً) قال متداركاً (ما زلت تحت المراقبة، وقد أفقد ضلعاً أو اثنين، لكنني سأعود إلى كلية الطب بحلول الخريف القادم. بعد سنة من فصل الربيع على الأقل...)

(أعتقد أنني يجب أن أخبرك بشيء هام يا بدي).

(أعرف) قال بدي بطريقة صارمة (لقد قابلت شخصاً غيري).

(كلا، ليس الأمر كذلك).

(ما هو إذن؟).

(لن أتزوج أبداً).

(أنت مجنونة). أشرق وجه بدي. (سوف تغيرين رأيك لاحقاً).

(كلا، لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه).

غير أنه واصل التحديق في وجهي بسعادة.

(هل تذكر عندما حصلنا على توصيلة مجانية إلى الكلية عقب ليلة عرض المسرحية الهزلية؟)

(نعم، أذكر ذلك).

(وهل تذكر سؤالك لي، عن المكان الذي أفضل العيش فيه، الريف أم المدينة؟).

(قلتِ...)

(قلت إنني أرغب في العيش فيهما معاً).

هز بدي رأسه موافقاً.

ثم واصلت الحديث بقوة مفاجأة: (ولكنك ضحكت وقلت إنني أتمتع بكامل الخصال التي تؤهلني لأصبح شخصية عصابية بامتياز، وأن ذلك السؤال كان واحداً من عدة أسئلة تضمنها استبيان طُرح في حصة علم النفس الذي حضرتها في ذلك الأسبوع)

أخذت ابتسامة بدي بالتلاشي.

(حسناً، لقد كنت محقاً. فأنا عصابية. لا يمكنني تقبل فكرة الإستقلال على الإطلاق، سواءً كان ذلك في المدينة أو في الريف).

(يمكنك العيش بينهما) اقترح بدي من باب المساعدة. (وقتها، سوف تستطيع الذهاب إلى المدينة لبعض الوقت، وإلى الريف في أوقات أخرى).

(حسناً، أين العصابية في ذلك؟)

لم يجب بشيء.

(حسناً؟) قلت بعنف، وأنا أفكر في استحالة أن يتعامل الإنسان برفق مع هؤلاء المرضى، فذلك أسوأ شيء بالنسبة إليهم، سينهارون إثره تماماً.

(لا شيء)، قال بدي بصوت متعب.

(قلت لي عصابية، ها!) ضحكت ساخرة. (إن كان العصابي يرغب في القيام بشيئين متضادين، يلغي كل واحد منهما الآخر، في الوقت ذاته، ومرة واحدة، فأنا أعلن نفسي عصابية حتى النخاع. سأواصل التحليق، ذهاباً وإياباً، بين هذين القطبين، حتى آخر يوم من أيام حياتي).

وضع بدي يده على يدي.

(دعيني أحلق معك).

وقفت على قمة منحدر التزلج بجبل (الفسجة)[40]، ناظرة إلى الأسفل. لم يكن هناك أي داعٍ لوجودي هناك. فلم يسبق لي أن قمت بالتزلج من قبل. ولكن فكرت مع ذلك، أن أستمتع برؤية المنظر لأستغل الفرصة التي سنحت لي.

على يساري كان هناك حبل معلق في الهواء يجر متزلجاً إثر متزلج فوق القمة الثلجية، التي غدت صلبة ومصقولة كالزجاج، لكثرة عبور المتزلجين، وذوبان الثلج الخفيف تحت شمس الظهيرة. أنزل الهواء البارد عقابه على رئتي وأنفي، حتى استيقظت حواسي على وضوح مثالي.

وفي كل مكان من حولي، كان المتزلجون بتستراتهم الحمراء والزرقاء والبيضاء يهبطون على المنحدر الذي يبهر الأبصار مثل علم أمريكي حائر. وفي سفح مسار التزلج، كانت تصدح من الكوخ الخشبي أغنيات شعبية لتزيح شيئاً من عبء الصمت المخيم في الأجواء.

«محدقاً صوب يونغفراو [41] من الكوخ السويسري..

الذي كان لا يتسع إلا لاثنين..»[42]

كان هدير الإغنيات المرحة يلفني كطوفان غير مرئي في صحراء ثليجية. كانت إيماءة واحدة، رائعة وطائشة، كفيلة بأن تدفعني عبر المنحدر، صوب بقعة خضراء صغيرة تركن على الطرف، حيث يجلس المتفرجون، ويجلس بدي ويلارد من بينهم.

قضى بدي الصباح بأكمله وهو يعلمني كيف أتزلج.

في بادىء الأمر، قام بدي باستعارة لوحي تزلج، وعصياً مخصصة للتزلج من صديق له في القرية، كما استعار حذاء تزلج من زوجة طبيب كان قياس قدميها أكبر من قياس قدمي قليلاً، مع

سترة تزلج حمراء من طالبة تدرس التمريض. كان استمراره في مواجهة التحديات أمراً مثيراً للإعجاب.

ثم تذكرت أن بدي حاز ذات مرة على جائزة مقدمة من كلية الطب لجهوده في إقناع معظم أقارب المتوفين بالموافقة على تشريح جثث أقربائهم سواء كان ذلك ضرورياً أم لا، خدمة للعلم. نسيت ماذا كانت الجائزة بالتحديد، لكن بإمكاني تخيل بدي، مرتدياً معطفه الأبيض، والسماعة متدلية من طرف جيبه كجزء من تكوينه البيولوجي. وهو يبتسم وينحني محدثاً أولئك الأقارب الذين فقدوا القدرة على الحركة أو الكلام، حتى يوقعوا الأوراق المتعلقة بفحص الجثة بعد الوفاة.

ثم استعار عربة من طبيبه الخاص الذي كان يعاني هو الآخر من داء السل، كان متفهماً للغاية، ثم انطلقنا بالعربة عبر ردهات المصحة الخالية من أشعة الشمس، إلى أن أعلن الجرس الكهربائي بدء ساعة التنزه مشياً على الأقدام.

لم يسبق لبدي أن مارس التزلج من قبل، غير أنه أخبرني أن القواعد الأساسية للتزلج بسيطة للغاية، وبما أنه كان غالباً ما يشاهد مدربي التزلج وهم يعطون دروساً لتلامذتهم، فإنه أصبح مؤهلاً لتعليمي كل ما أحتاج إليه.

خلال نصف الساعة الأولى، تمرنت على التزلج فوق منحدر صغير، كنت أضغط على عصا التزلج، وأهبط مباشرة إلى الأسفل. بدا بدي سعيداً بما أحرزت من تقدم.

صاح: (هذا رائع يا إيستر) فيما كنت أحاول الإنتصار على المنحدر للمرة العشرين. (فلنجرب الآن، وضعك على حبل المتحرك)

توقفت في مساري، لاهثة، ومتوردة الوجه.

(ولكنني، يا بدي، لا أعرف كيف أتزلج على نحو متعرج بعد، كل هؤلاء الأشخاص الهابطين من أعلى الجبل، يعرفون كيف يتزلجون على نحو متعرج).

(أوه، كل ما تحتاجين إليه هو الوصول إلى منتصف الطريق. حينها لن تحتاجي إلى بذل جهد كبير).

رافقني بدي نحو الحبل المتحرك، وأطلعني على الطريقة التي يمكنني بها جعل الحبل يمر من خلال يدي، ثم أخبرني أن أقبض عليه بأصابعي ثم أصعد.

لم يحدث أن قلت (كلا) في حياتي.

أطبقت يدي على الحبل الخشن الذي كان شبيهاً بثعبان خطير، فراح يتلوى بين أصابعي، ثم صعدت إلى أعلى.

غير أن الحبل سحبني، وهو يتهادى، متوازناً، بسرعة كبيرة، ففقدت الأمل بفصل نفسي عنه في منتصف الطريق. كان ثمة متزلج آخر أمامي، وآخر خلفي، وكنت سأقع، أسفل ألواح التزلج والعصي، لو أرخيت قبضة يدي عن الحبل، فلم أشأ التسبب بأية مشاكل، فبقيت متشبثة بالحبل بكل هدوء.

ورغم ذلك، راودتني في الأعلى أفكار أخرى.

ميزني بدي، مترددة في الأعلى بسترتي الحمراء، شقت ذراعاه الهواء مثل طاحونتي هواء خضراوتين. ثم رأيته يشير إليّ أن أهبط عبر ممر انفرج وسط المتزلجين المراوغين. غير أنني عندما وازنت نفسي، مرتبكة مع حلق جاف، بدا الممر الأبيض الممهد الممتد من قدمي حتى قدميه غائماً.

عبر متزلج من اليسار، وعبر آخر من اليمين، فيما كانت ذراعا بدي تلوحان بوهن مثل هوائيات من الجانب الآخر لحقل محتشد بحييوينات[43] مجهرية بالغة الصغر كالجراثيم. أو كعلامتي تعجب منحنيتين ساطعتين.

رفعت عيني عن ذلك المدرج المزدحم، ناظرة إلى الأفق البعيد.

كنت عين السماء الرمادية العظيمة تبادلني النظر، وكانت شمسها الضبابية ترتكز وسط مسافات صامتة من البياض، منسابة من كل جهة أسفل قدمي.

كان ثمة صوت في داخلي يلح عليّ بألّا أتصرف كحمقاء، وأن أنزع زلاجتي وأهبط المنحدر، تحجبني أشجار الصنوبر المنخفضة التي تحيط به، وألوذ بالفرار مثل بعوضة مغلوبة على

أمرها. وكانت فكرة أن أقتل نفسي قد رسخت في عقلي، بهدوء، مثل شجرة أو زهرة.

قست بعيني المسافة التي تفصلني عن بدي.

كان قد طوى ذراعيه، فبدا الجزء المتهالك من السياج الذي خلفه، مخدراً وداكناً، ولا معنى لوجوده.

مقتربة من حافة قمة التل، غرزت عصا التزلج في الثلج، وانطلقت محلقة، موقنة بأن لا شيء يعجز عن إيقافي، لا المهارة، ولا أفعال الإرادة المتاخرة.

توجهت إلى الأسفل مباشرة.

لفحت فمي ريح قوية كانت تخفي نفسها. ورتبت شعري بشكل أفقي على رأسي. كنت أهبط، لكن الشمس البيضاء ظلت في مكانها. تدلت، فوق أمواج التلال، كأنها محور الحياة التي لا يوجد العالم من دونها.

كانت نقطة استجابة صغيرة في جسدي تحلق نحوها، شعرت برئتي تنتفخان مع تدفق المناظر الطبيعية - الهواء والجبال والأشجار والناس. فكرت: (هذا هو معنى السعادة).

هبطت بشكل رأسي، متجاوزة المتزلجين المتعرجين والتلاميذ والخبراء، ومتجاوزة سنوات وسنوات من الإزدواجية والإبتسامات والحلول الوسطى، القادمة من أعماق حياتي الماضية.

انحسرت الأشجار وجموع الأشخاص من حولي، مثل ما تنحسر جدران النفق المعتمة، وأنا أندفع صوب النقطة المضيئة الهادئة عند نهايته، كما أندفع إلى حصاة في قاع البئر، أو طفلة بيضاء جميلة مندفعة من رحم أمها.

شعرت بالحصى تطحن أسناني، وتساقطت مياه مثلجة عبر حلقي.

ترنح وجه بدي فوقي، على نحو قريب وهائل، مثل نجم حائر. وتراءت وجوه أخرى خلفه، واحتشدت خلفهم نقط سوداء على سطح أبيض. قطعة قطعة - مثلما هو الحال مع وقع ضربات صولجان عرابة بليدة، تداعى العالم القديم مرة أخرى إلى مكانه.

(كنت تبلين بلاء حسناً) أخبرني صوت مألوف. (حتى اعترض ذلك الرجل طريقك).

قام بعض الأشخاص بفك أحزمتي، وجمعوا عصي التزلج، من المواقع التي غرسوها فيها، ثم نزعوها بانحراف، نحو السماء، فانفصلت ضفاف الثلج من حولها. كان سياج الكوخ الخشبي يسند ظهري.

انحنى بدي ليخلع حذائي والجوارب الصوفية العديدة التي كانت تبطنه. أحاطت يده اليمنى بقدمي اليسرى، ثم امتدت إلى كاحلي، تشد وتجس، كما لو كانت تسعى إلى إخراج سلاح مطمور.

أشرقت شمس بيضاء فاترة في أعلى السماء. رغبت في شحذ نفسي عليها، حتى أصير طاهرة، ونحيلة، ومثالية، كسكين حادة.

(سأصعد) قلت (سأصعد ثانية).

(كلا، لن تفعلي).

لاحت على ملامح وجه بدي نظرة غريبة تنم عن الرضا

(كلا، لن تفعلي) كرر كلامه بابتسامة حاسمة. (لقد كسرت ساقك في موضعين. ستوضع في جبيرة لعدة شهور).

(9)

(أشعر بسعادة كبيرة لأنهم سيموتون).

أخذت هيلدا تقوس أطرافها وتتثاءب مثل قطة كسولة، ثم دفنت رأسها بين ذراعيها على طاولة قاعة المحاضرات، ثم عادت للنوم من جديد. كانت تنحني على رأسها قبعة قش خضراء براقة كطائر استوائي.

خضراء مائلة إلى الصفرة. كانوا يروجون لمثلها لموسم الخريف، وحدها هيلدا (كما العادة) تسبق موضة الجميع بنصف سنة. خضراء مائلة إلى الصفرة مع شيء من الأسود، خضراء مائلة إلى الصفرة مع شيء من الأبيض، خضراء مائلة إلى الصفرة مع شيء من الأخضر النيلي، أفضل الألوان التي تليق معها.

أطلقت الملصقات الدعائية لمجلة الأزياء المليئة بالترهات، فقاعاتها المحيرة في دماغي. طفت على السطح محدثة صوت فرقعة جوفاء.

أشعر بسعادة كبيرة لأنهم سيموتون

لعنت الحظ الذي جعل وقت وصولي إلى الفندق يصادف وقت وصول هيلدا. وبعد سهرة امتدت حتى وقت متأخر من الليل، تبلدت أحاسيسي، فلم أقوى على اختراع عذر يعيدني إلى غرفتي لتناول القفاز والمنديل والمظلة الشمسية ودفتر اليوميات التي نسيتها هناك. كان جزائي أن أمشي مسافة طويلة على نحو مميت، من خلال أبواب الزجاج المصقول لفندق الأمازون، حتى الأرضية المبلطة برخام وردي لمدخل جادة ماديسن.

كانت هيلدا تتحرك مثل عارضة أزياء على طول الطريق.

(هذه قبعة جميلة، هل صنعتها بنفسك؟)

توقعت لسبب ما، أن تستدير هيلدا نحوي وتقول (تبدين مريضة) لكنها مدت عنقها الطويل ثم أمالته إلى الوراء.

(صحيح).

شاهدت في الليلة السابقة مسرحية تتحدث عن بطلة تمتلك روح متقمصة[44]، وحين تتكلم تلك الروح، فإن صوتها يبدو آتياً من كهف عميق، فلا تعرف إن كان صوت رجل أو امراة. حسناً، كان صوت هيلدا شبيها بصوت تلك الروح المتقمصة.

كانت تحدق في صورتها المنعكسة على زجاج نوافذ المحلات التجارية، كما لو كانت تريد أن تتأكد - كل لحظة وأخرى - من أنها لا تزال على قيد الحياة. كان الصمت الذي يحيط بنا عميقاً، فاعتقد أنني اتحمل مسؤولية ذلك.

لذلك قلت: (أليس أمر آل روزنبيرغ مرعباً؟)

كان آل روزنبيرغ على وشك الموت بالإعدام صعقاً بالكهرباء، في ساعة متأخرة من تلك الليلة.

(بلى!) قالت هيلدا. حينها شعرت إنني قد لمست وتراً إنسانياً في مهد القطة [45] الذي في داخل قلبها. كان الأمر شبيهاً بالوقت الذي كنا نقضيه في انتظار الأخريات ليقدمن إلى غرفة المحاضرات في كآبة الصباح، التي تشبه القبر، حتى أسهبت هيلدا بالكلام مفسرة كلمة (بلى).

(من المرعب أن يظل أمثال هؤلاء الناس على قيد الحياة).

ثم تثاءبت، فكشف فمها البرتقالي الشاحب عن عتمة هائلة. حدقت، مشدوهة، في الكهف المحجب بالظلام خلف وجهها، حتى انطبقت الشفتان وتحركتا، فنطقت الروح المتقمصة من مكانها المستتر: (أشعر بسعادة بالغة لأنهم سيموتون).

(هيا ابتسمي).

جلست على الأريكة المخملية الوردية بمكتب جيسي، ممسكة بوردة ورقة أمام كاميرا مصور المجلة. كنت أنا آخر الفتيات اللواتي التقطن صورهن. حاولت التواري عن الأنظار في حمام النساء، ولكنني أخفقت في ذلك، فقد لمحت بتسي قدمي من تحت الباب.

لم أرغب في أن يأخذوا صورة لي لأنني كنت على وشك البكاء. لم أعرف سبب ذلك بالتحديد، لكنني كنت أعرف أن الدموع سوف تفر من عيني إن كلمني شخص ما، أو نظر في وجهي عن قرب، وإن النشيج سوف ينبعث من حلقي، وأستمر في البكاء لمدة أسبوع كامل. كأنني كنت ممتلئة بالبكاء، والدموع تنهمر من عيني مثل كأس يطفح بالماء إلى أن ينضح منه.

كانت تلك هي جلسة التصوير الأخيرة قبل طبع المجلة وعودة الفتيات إلى تولسا، أو بيلوكسي، أو تيينك، أو كووس باي، أو إلى أي مكان آخر قدمنا منه. كان من المفترض أن تلتقط صورنا ونحن نقف في وضعيات توحي إلى ما نرغب في أن نكون عليه في المستقبل.

حملت بيتسي كوز ذرة بيديها، إشارة لرغبتها في أن تكون زوجة مزارع. وأمسكت هيلدا الرأس الأصلع الخالي من الملامح لدمية العرض[46] المخصصة لصناعة القبعات، إشارة لرغبتها في أن العمل كمصممة قبعات، فيما أمسكت دورين برداء هندي مطرز بالذهب، لتظهر رغبتها في أن تصبح عاملة اجتماعية (أخبرتني أنها لم تكن راغبة في ذلك بالحقيقة، ولكنها أردات أن تضع يديها على الساري فقط).

وعندما سألوني عن رغبتي، أخبرتهم أنني لا أعرف.

قال المصور: (أوه، بل تعرفين).

ثم قالت جيسي: (إنها ترغب في أن تكون كل شيء).

أخبرتهم برغبتي في أن أصبح شاعرة.

حينها راحوا يبحثون عن شيء أحمله.

اقترحت جيسي أن أحمل كتاب قصائد، لكن تلك الفكرة لم تعجب المصور، لأنها بدت في غاية الوضوح. فيما يفترض بها أن تشير إلى مصدر الإلم الذي استوحي منه قصائدي. وفي نهاية

المطاف، نزعت جيسي الوردة الورقية، ذات الساق الطويلة، من آخر قبعة اشترتها.

عبث المصور بمصابيحه البيضاء الساخنة: (دعينا نرى كيف تجعلك كتابة القصيدة سعيدة).

حدقت بأوراق نبات المطاط عبر إفريز نافذة جيسي إلى صفحة السماء الزرقاء التي تحده من الخلف. كانت بضع سحب دخانية تتحرك من اليمين إلى اليسار كما لو كانت ترقص على خشبة المسرح. ركزت عيني على أكبر سحابة، آملة أن تنقشع وتحمل معها الحظ السعيد لي.

شعرت بضرورة أن أبقي فمي على استقامة واحدة.

(هيا ابتسمي).

أخيراً، مثل فم دمية متحدثة من بطنها، أخذ فمي ينحني طواعية.

(مهلاً) احتج المصور على نحو مفاجيء (يبدو أنك على وشك البكاء).

لم أستطع التوقف.

دفنت رأسي في الواجهة المخملية الوردية لأريكة لجيسي، وبكل ارتياح، تدفق سيل الدموع المالحة والنواح الذي كان يترصد بي منذ الصباح.

وحين رفعت رأسي، وجدت أن المصور قد اختفى، مثلما اختفت جيسي أيضاً. شعرت أني منهكة، وقد تخلى الجميع عني، مثلما يتحرر حيوان مرعب من جلده. غمرني الإرتياح حينما تحررت من ذلك الحيوان، لكنني شعرت بأنه قد أخذ روحي معه، وكل شيء استطاع أن يضع براثنه عليه.

بحثت في محفظتي عن العلبة الذهبية الصغيرة، التي تحتوي على ماسكرا وفرشاة مكياج وقلم كحل وثلاثة أصابع أحمر الشفاه ومرآة جانبية. بدا الوجه الذي يتطلع إلي عبر المرآة، كوجه شخص يترقب من وراء قضبان السجن بعج فترة طويلة من التعذيب. كانت متورماً، تعلوه الكدمات، ويخلو من أي ألوان تنبض بالحياة. كان يحتاج إلى الكثير من الماء والصابون، وبعض من التسامح المسيحي.

وبفؤاد واهن، شرعت بصباغة وجهي.

عادت جيسي بعد برهة، حاملة معها رزمة من المخطوطات.

(ستمنحك هذه بعض التسلية)، قالت (استمتعي بقراءتها).

كانت تتكاثر في كل صباح مجموعة ضخمة باردة من المخطوطات، بين أكوام الملفات الرمادية التي يعلوها الغبار فوق مكتب محرر الأعمال القصصية. لا بد من وجود بعض الأشخاص الذين يقومون بكتابة كل ذلك على نحو سري، في المكاتب والشرفات وغرف المحاضرات في جميع أنحاء أمريكا. لنفترض أن شخصاً واحداً ينجز مخطوطة واحدة في كل دقيقة، هذا يعني أن خمس مخطوطات سوف تتكوم على مكتب المحرر كل خمس دقائق، وستون مخطوطة كل ساعة، تتكدس فوق بعضها البعض على الأرضية. وخلال عام...

تبسمت وأنا أتخيل مخطوطاً أصيلاً، يطفو في الهواء، وقد ارتسم في جانبه الأعلى على اليمين اسم (إيستر غريينوود). بعد الشهر الذي قضيته في المجلية، قدمت طلباً للالتحاق بحلقة دراسية صيفية يقدمها كاتب مشهور. كان يجب على الملتحق أن يرسل مخطوط قصة ليقرأه الكاتب، ومن ثم ينتقى الأسماء، وفقاً لجودة النص.

بالطبع، كانت حلقة دراسية صغيرة، كنت أرسلت قصتي عبر البريد منذ وقت طويل، ولكن يكن رد الكاتب قد وصلني إلى ذلك الوقت، لكنني كنت متأكدة من أنني سأجد رسالة القبول تنتظرني في منزلي على طاولة البريد.

قررت أن أفاجىء جيسي وأرسل لها قصتين من بين القصص التي كتبتها في تلك الحلقة، تحت اسم مستعار. ذات يوم، سيأتي المحرر إلى مكتب جيسي شخصياً، ويلقي القصتين بقوة على مكتبها، ثم يقول: (هناك شيء مميز في هذه القصص). ستوافقه جيسي الرأي، ثم تقبل نشرهما، وتدعو المؤلف - الذي سوف يكون أنا - إلى الغداء.

(بصراحة) قالت دورين (هذا الشخص سيكون مختلفاً).

(حدثيني عنه) قلت ببرود.

(إنه من البيرو).

(إنهم قصار القامة) قلت (وبشعون كالآزتك [47]).

(لا، لا، لا، لقد قابلته يا عزيزتي).

كنا جالستين، على سريري، وسط فوضى عارمة من الفساتين القطنية المتسخة، وجوارب نايلون متنسلة، وملابس داخلية رمادية. استمرت دورين، عشر دقائق، في محاولة اقناعي أن أرافق أحد معارف ليني إلى حفلة راقصة في ناد ريفي، حيث كانت تصر على أنه يختلف تماماً عن أصدقاء ليني الآخرين. وبما أنني كنت سأستقل قطار الساعة الثامنة، في صباح اليوم التالي، لأعود إلى البيت، فقد شعرت بضرورة محاولة جمع أمتعتي.

كما خطر ببالي فكرة غامضة في أن أجول شوارع نيويورك، طيلة الليل لوحدي، حتى أكتشف سر هذه المدينة وسحرها أخيراً.

لكنني عدلت عن ذلك.

صرت أواجه صعوبة في عمل أي شيء في تلك الأيام الأخيرة لي في المجلة. فكلما قررت القيام بشيء ما، كتوضيب حقيبة السفر مثلاً، فإنني أسحب الثياب المتسخة، الباهظة الثمن، من الخزانة وأدراج الثياب، وأنثرها على الأريكة والكرسي والأرض، ثم أجلس محدقة فيها، محتارة تماماً. بدت كما لو أنها تحتفظ بهويات عنيدة ومستقلة، رافضة أن تتعرض للطي أو الغسيل أو الترتيب.

(إنها هذه الثياب)، أخبرت دورين (لا أحتمل مواجهتها حين أعود).

(لا عليك. هذا أمر بسيط).

وبطريقتها المباشرة الجميلة، شرعت دورين في التقاط السراويل الداخلية والجوارب وحمالات الصدر المتقنة الصنع والمشدودة بزنبركات بدون أحزمة - والتي كانت هدية مجانية من شركة (برمروز Primrose) المتخصصة بصناعة حمالات الصدر، والتي لم أمتلك الشجاعة على إرتداء منتجاتها أبداً - وفي النهاية، كانت مجموعة الملابس الغريبة الحزينة التي تساوي أربعين دولاراً قد رتبت، ثوباً تلو الآخر...

(ضعي ذلك الثوب جانباً يا دورين، أريد ارتداءه).

سحبت دورين قطعة سوداء من الصرة، وألقتها في حضني، ثم كومت بقية الثياب ووضعتها في كتلة واحدة تحت السرير.

طرقت دورين الباب الأخضر بمقبضه الذهبي.

كانت ثمة حركة في الداخل وصوت ضحكات رجولية توقفت بعد برهة. ثم انفرج الباب قليلاً ليظهر شاب طويل القامة يرتدي لباساً عادياً وقد قص شعره الأشقر مثل مشاة البحرية وأخذ يحدق فينا.

(حبيبتي!) قال بصوت صاخب.

غابت دورين بين ذراعيه. ظننته الشخص الذي يعرفه ليني.

وقفت هادئة عند مدخل الباب في ردائي الأسود الضيق ووشاحي الأسود الذي تحولت أطرافه إلى لون شديد الإصفرار أكثر من أي وقت مضى. غير أن توقعاتي بدأت تنخفض شيئاً فشيئاً. (سأراقب ما يجري)، قلت في نفسي، وأنا أشاهد دورين تتنقل في الغرفة من ذراع الشاب الأشقر إلى ذراع رجل آخر طويل القامة، ولكنه أكثر سمرة وأطول شعراً. كان هذا الرجل يرتدي سترة ناصعة البياض وقميصاً أزرق كالحاً مع ربطة عنق صفراء حريرية يعلوها دبوس لامع.

لم أستطع إزاحة عيني عن ذلك الدبوس.

بدا كأن نوراً أبيض هائلاً ينبثق منه ليضيء الغرفة، ثم يرتد النور إلى مكانه، تاركاً قطرة ندى على حقل من الذهب.

وضعت قدماً فوق الأخرى.

(تلك ماسة)، قال أحدهم، فاندفع كثير من الناس بالضحك.

نقرت بظفري على سطح زجاجي صغير.

(إنها ماستها الأولى).

(أعطها لها يا ماركو).

انحنى ماركو ووضع الدبوس في راحة يدي.

كان بريقها يخطف الأبصار، يتراقص تحت الضوء مثل مكعب ثلج سماوي. وضعتها بسرعة في حقيبتي المسائية المرصعة بحجار الكهرمان الأسود المزيف، ونظرت من حولي. كانت الوجوه فارغة مثل الأطباق، ويبدو أن الجميع قد توقفوا عن التنفس.

(لحسن الحظ) طوقت يد جافة قاسية أعلى كتفي (أنا من سيرافق الآنسة لباقي السهرة. كما آمل) انطفأ البريق الذي كان في عيني ماركو فازداد سوادهما (سأسدي لها خدمة صغيرة...)

ضحك أحدهم.

(... لتستحق الماسة)

اشتدت قبضة اليد حول ذراعي.

(أخ!)

أبعد ماركو يده. ألقيت نظرت على ذراعي، كانت بصمة ابهامه قد خلفت علامة ارجوانية عليها. نظر ماركو إلي. ثم أشار إلى الجانب السفلي من ذراعي.

(انظري إلى هذا).

نظرت فرأيت آثار أربعة أصابع باهتة ومتشابهة.

(كما ترين، أنا جاد تماماً).

ذكرتني ابتسامة ماركو القصيرة المترددة بثعبان قمت باستفزازه في حديقة برونكس Bronx للحيوانات. وقتها نقرت بإصبعي على قفص زجاجي صلب، ففتح الثعبان فكيه على آخرهما، فبدا كأنه يبتسم. ثم راح يضرب ويضرب باللوح الزجاجي الشفاف، واستمر بالضرب، حتى لذت بالفرار.

لم يسبق لي أن قابلت رجلاً يكره النساء من قبل.

أستطيع القول إن ماركو كان رجلاً يكره النساء، فرغم كل عارضات الأزياء والممثلات المبتدئات اللواتي كانت تعج بهن الغرفة، فهو لم يبد اهتماماً إلا بي. لم يفعل ذلك من باب التصرف بلطف، ولا حتى بدافع الفضول، بل لأنه رأى أنني كنت من نصيبه، كورقة لعب ضمن مجموعة أوراق متماثلة.

قفز أحد أعضاء فرقة النادي الريفي إلى المايكروفون، وأخذ يهز تلك الآلات الموسيقية المخشخشة، المستوحاة من فلكلور أمريكا الجنوبية.

مد ماركو يده ليمسك يدي، لكنني بقيت مستمسكة بكأس الدايكيري[48] الرابع. لم يسبق لي أن احتسيت الدايركي من قبل. ولم أرغب بكأس منه لولا أن ماركو قد طلبه من أجلي. شعرت بالامتنان لأنه لم يسألني عن نوع الشراب الذي أرغب في تناوله، فبقيت صامتة، احتسي كأساً تلو الآخر.

نظر ماركو إلي.

(لا) قلت.

(ماذا تقصدين بلا؟)

(لا أستطيع الرقص على هذه الموسيقى).

(لا تكوني غبية).

(أريد أن أجلس هنا، وأنهي شرابي).

انحنى ماركو نحوي بابتسامة متمرسة، وبحركة سريعة من يده ألقى بشرابي في حوض شجرة النخيل. ثم قبض على يدي بقوة، فلم يبقى أمامي سوى خيارين، إما أن أتبعه إلى حلبة الرقص، أو أن ينزع ذراعي من مكانها.

(إنها موسيقى التانغو). حركني ماركو بين جموع الراقصين (أحب التانغو)

(لا أعرف كيف أرقص).

(لا عليك. سأرقص أنا).

طوق ماركو خصري بذراعه، وجذبني إليه بقوة، فالتصقت ببدلته البيضاء المبهرة. ثم قال: (تظاهري بالغرق).

أغمضت عيني، فاجتاحت الموسيقى أعماقي مثل عاصفة مطرية. انزلقت ساق ماركو إلى الأمام، لتلتقي بساقي التي كانت تتراجع إلى الخلف، فبدوت منجذبة إليه، ساقاً إلى ساق، أتحرك كلما تحرك، بلا إرادة أو معرفة مني، ثم فكرت بعد برهة: (لا تحتاج الرقصة إلى شخصين، بل إلى شخص واحد) ثم تركت جسدي يعلو، وينثني، مثلما تتمايل الشجرة مع الريح.

(ماذا قلت لك؟). شعرت بأنفاس ماركو وهي تخترق أذني. (أنت مثال لراقصة جديرة بالاحترام).

بدأت أدرك لماذا يجعل كارهو النساء من المرأة أضحوكة. كارهو النساء يتقمصون دور الآلهة: يتمتعون بالقوة، ولا يمكن إيذاؤهم، يتنزلون ومن ثم يغيبون، لا يمكنك أن تمسك بأحدهم.

حظينا بإستراحة بعد انتهاء موسيقى أمريكا الجنوبية.

قادني ماركو عبر الأبواب الفرنسية نحو الحديقة. انبعثت الأضواء من نافذة قاعة الرقص، وتعالت منها الأصوات، ولكن على بعد ياردات قليلة كانت العتمة قد أرخت ستارها، وطوقت الساهرين. وتحت ضياء النجوم اللامتناهي، كانت الأشجار والأزهار تنشر شذاها المنعش، بدون أن يكون هناك قمر يظللها في السماء.

انطبق باب الحديقة من خلفنا. كان مضمار غولف مهجور يمتد نحو أشجار التلال، فشعرت بالألفة المتوحدة مع كل تفاصيل ذلك المشهد: النادي الريفي، وحفلة الرقص، والمضمار الوحيد على ذلك المرج.

لم أعرف أين كنت، غير أن المكان كان يقع بإحدى ضواحي نيويورك الثرية.

أخرج ماركو سيجاراً رفيعاً وولاعة فضية على شكل رصاصة. وضع السيجار بين شفتيه وانحنى على شعلة اللهب المنبثقة من الولاعة. بدا وجهه - بظلاله المفرطة، والضوء المتمركز في منتصفه من الولاعة - غريباً وكئيباً، كوجه لاجىء.

نظرت إليه، ثم قلت (من هي الفتاة التي أنت واقع في حبها؟)

لبرهة، لم يقل ماركو شيئاً، فتح فمه وأخرج حلقة دخان زرقاء.

(رائع!) ضحك.

أخذت الحلقة تتسع، وتغدو ضبابية، شبحية، في الجو المعتم.

ثم قال: (أحب ابنة عمي).

لم أشعر بالدهشة.

(لماذا لا تتزوجها؟)

(مستحيل)

(لماذا؟)

هز ماركو كتفيه. (إنها ابنة عمي. ستصبح راهبة).

(هل هي جميلة؟)

(لن يلمسها أحد).

(أتعلم أنك تحبها؟)

(طبعاً)

لم أنطق بشيء، بدت العقبة التي تمنع زواجهما غير واقعية بالنسبة لي.

(إن كنت تحبها) قلت (فإنك سوف تحب امرأة أخرى في يوم من الأيام).

سحق ماركو السيجار بطرف حذائه.

ارتفعت الأرض واصطدمت بها صدمة خفيفة، كان الوحل ينساب من بين أصابعي. انتظر ماركو حتى ارتفعت مجدداً. ثم وضع كلتا يديه على كتفي وألقى بي في الوحل مرة أخرى.

(فستاني...)

(فستانك!). تدفق الوحل حتى صار بمستوى كتفي (فستانك!) انحنى وجه ماركو القاتم فوقي، فتساقطت بضع قطرات من لعابه على شفتي. (فستانك أسود، والوحل كذلك أسود).

ثم ألقى بجسده ووجهه إلى الأسفل، كما لو كان يريد صهر جسده من خلالي في الوحل.

(سيحدث الأمر) فكرت (سيحدث... إن بقيت مستلقية هنا ولم أفعل شيئاً، سيحدث)

غرس ماركو أسنانه في عنق ثوبي، ثم مزقه حتى وصل إلى خصري. رأيت بصيصاً من الجسد العاري، مثل حجاب شاحب، يفصل بين خصمين لدودين.

(عاهرة!)

تردد صدى الكلمة في أذني.

(عاهرة!)

انقشع الغبار، فتجلى أمامي مكان العراك على نحو جيد.

رحت أرفس بقدمي، وأعض.

رماني ماركو على الأرض.

(عاهرة!)

رفست ساقه بكعب حذائي الحاد. التفت، وأخذ يتحسس موضع الألم. ثم كورت أصابعي، على شكل قبضة، ولكمت أنفه بقوة. مثلما يضرب شخص صفيحة فولاذية لسفينة حربية. جلس ماركو. ثم أخذت أبكي.

سحب ماركو منديلاً ابيض ومسح أنفه. كان السواد ينتشر كالحبر على ثوبي الباهت.

رحت ألعق مفاصل أصابعي المالحة.

(أريد دورين)

حدق ماركو عبر منعرجات ملعب الغولف.

(أريد دورين، أريد أن أعود إلى المنزل).

(عاهرات، كلهن عاهرات) كان يبدو وكأنه يحدث نفسه (كلهن متشابهات، شئن أم أبين).

لكزت كتف ماركو.

(أين دورين؟)

قال ماركو متذمراً: (اذهبي إلى موقف السيارات. ابحثي عنها في المقاعد الخلفية لجميع السيارات).

ثم استدار بقدميه

(ماستي).

نهضت، واستعدت وشاحي من الظلام. رحت أخطو بعيداً. قفز ماركو على قدميه واعترض سبيلي. ثم مرر إصبعه، على نحو مقصود، تحت أنفه المدمى، ولطخ وجنتي بإصبعيه مرتين (إنني أستحق أن تعاد إليّ ماستي بعد هذا الدم. أعيديها إلي)

(لا أعلم مكانها)

كنت أعلم تماماً أنني وضعت الماسة في حقيبتي المسائية، وحين أوقعني ماركو على الأرض، حلقت الحقيبة بعيداً في الظلام المطبق، مثل طائر ليلي. رحت أفكر في أن أبعده عن المكان، ثم أعود وأفتش عنها.

لم تكن لدي أدنى فكرة عن قيمة ماسة بذلك الحجم، ولكنني متأكدة من أنها تساوي الكثير من المال.

أمسك ماركو كتفي بكلتا يديه.

(أخبريني) قال، وهو يشدد على كلمة يقولها. (أخبريني وإلا كسرت رقبتك)

فجأة لم أعد أهتم.

(إنها في حقيبتي المسائية المرصعة بحجر الكهرمان الأسود المزيف) قلت (في مكان ما في الوحل).

تركت ماركو جاثياً على ركبتيه، وهو يفتش في العتمة التي أخفت ضوء ماسته عن عينيه الغاضبتين.

لم تكن دورين في قاعة الرقص ولا في موقف السيارات.

مشيت محاذية لأطراف الظلال، حتى لا يلاحظ أحد أن العشب قد التصق بفستاني وحذائي، ثم سترت كتفي ونهدي العاريين بوشاحي الأسود.

من حسن حظي أن الرقص قد شارف على الانتهاء، وكان هناك مجموعة من الأشخاص يغادرون متوجهين إلى موقف السيارات، مررت على السيارات، الواحدة تلو الأخرى، لأطلب توصيلة، حتى وجدت مكاناً شاغراً لي في سيارة وافق صاحبها أن يقلني إلى وسط مانهاتن.

في تلك الساعة الغامضة بين الظلام والفجر، كان سطح فندق الأمازون مهجوراً.

تسللت بهدوء، كلص، إلى حافة حاجز السقف، في روب الحمام المزين بزهرة الذرة. كان الحاجز يصل إلى كتفي تقريباً، فسحبت كرسياً مطوياً من الركام المكدس عند الجدار، فتحته وصعدت على المقعد المحفوف بالمخاطر.

طيرت هبة هواء قارس شعري. كانت المدينة أسفل قدمي مطفأة الأنوار، وغارقة في النوم، كانت بناياتها متشحة بالسواد كما لو كانت في حداد.

كانت ليلتي الأخيرة.

أمسكت بالصرة التي كنت أحملها، وسحبت ذيلاً باهتاً. كان لسروال داخلي متهدل. لوحت به - كعلم هدنة - مرة، ومرتين... ثم استحوذ عليه النسيم، فتركته ليطير.

كانت بقايا فتات أبيض تطفو في الهواء، ثم أخذت تهبط على مهلها. تساءلت، في أي شارع، أو على أي سقف، سوف ترتاح أخيراً؟

سحبت الصرة مرة أخرى.

قمات الريح بمحاولة، لكن من دون جدوى، فطفى ظل يشبه الخفاش فوق حديقة الحجرة التي كانت فوق سطح البيت المجاور.

أطعمت ثيابي لريح الليل، قطعة إثر قطعة. ومثل رفات شخص عزيز، كانت القطع الرمادية ترفرف في السماء، وتسحبها الرياح، لتستقر هناك، هناك، في المكان الذي لا أعرف أين يقع تماماً، في قلب نيويورك الأسود.

(10)

بدا الوجه المنعكس على المرآة مثل وجه هندي مريض.

ألقيت العقد في محفظتي اليدوية، وحدقت عبر نافذة القطار. كان المنظر شبيهاً بمكب خردوات هائل، حيث كانت المستنقعات والمساحات العارية ل(كونيتيكت Connectict)[49] تمر سراعاً، كل حطام منها لا يمت بصلة إلى الحطام الذي يسبقه.

من أي خليط عائم تشكل هذا العالم؟

نظرت إلى تنورتي وقميصي غير المتجانسين.

كانت التنورة خضراء عريضة، تزينها أشكال بيضاء وأخرى زرقاء لامعة، منسدلة مثل ظل مصباح. وكان للبلوزة البيضاء ذات البقع المطرزة، وشاح يغطي الكتفين بدلاً من الأكمام، انسيابية مثل جناح ملاك جديد.

نسيت أن أحتفظ ببعض الملابس المنزلة من بين تلك التي تركتها تطير فوق سماء نيويورك، فبادلت برنس الحمام المزين بأزهار الذرة مع تنورة أعطتني إياها بيتسي.

رأيت انعكاساً خيالياً لنفسي، محلقاً فوق المنظر الطبيعي، كنت بأجنحة بيضاء وشعر معقود كذيل الفرس،

(راعية بقر متفائلة) قلت بصوت عال.

رفعت امرأة في المقعد المقابل عينيها عن مجلتها نحوي.

لم أشعر، حتى اللحظة الأخيرة، برغبة في غسل خطي الدم المائلين على خدي. تراءا مؤثرين، ومذهلين إلى حد ما، ففكرت في حملهما معي، مثل بقايا عاشق ميت، حتى يتلاشا من تلقاء نفسيهما.

ومما لا شك في أن بقايا الدم الجافة كانت ستسقط لو تبسمت أو حركت وجهي كثيراً، حافظت على ثبات وجهي، من دون حركة، حتى أنني كنت أتكلم (حينما أكون مضطرة إلى الكلام) من خلال أسناني، من دون أن تقاسي شفتاي عناء الحركة،

لم أرى سبباً مقنعاً لينظر الناس إليّ بهذه الطريقة. فقد كان هناك عدة أشخاص يبدون أكثر غرابة مني.

وضعت حقيبتي الرمادية في الرف الذي كان فوق رأسي، كانت فارغة إلا من (أفضل ثلاثين قصة قصيرة لهذا العام)، وعلبة نظارات شمسية بيضاء من البلاستيك، ومجموعة ثمار أفوكادو أهدتني إياها دورين عندما ودعتني.

كانت الثمار غير ناضجة بعد، وبذلك سوف تحافظ على شكلها، وكلما رفعت حقيبة السفر، أو حملتها، شعرت بصوت الثمار وهي تتدحرج من زاوية إلى أخرى محدثة هديراً خاصاً بها.

(المسار 128) نادى قاطع التذاكر.

امتدت غابة متمدنة من أشجار الصنوبر والقيقب والبلوط من محطة الإنتظار حتى إطار نافذة القطار الذي التصقت به مثل صورة رديئة. كانت حقيبة سفري تصدر صوت طنين وقرقعة كلما كنت أخطو عبر الممشى الطويل لمقاعد القطار.

خطوت خارج المقصورة المكيفة حتى وصلت إلى رصيف المحطة، فشملتني نسائم الضواحي الباردة بعطفها. كانت لها رائحة آلات رش العشب والسيارات العائلية الواسعة ممتزجة برائحة مضارب التنس والكلاب المبللة والأطفال الصغار.

وضع هدوء الصيف يده المريحة على كل شيء، مثلما يفعل الموت.

كانت أمي تنتظرني قرب سيارة شيفروليه رمادية (لماذا يا حبيبتي، ماذا حدث لوجهك؟)

(جرحت نفسي)، قلت باختصار، ثم حبوت نحو المقعد الخلفي، بعد أن حشرت حقيبة السفر أولاً. لم أرغب في أن تستمر أمي بالتحديق بي طوال طريق العودة إلى المنزل.

كان جلد المقاعد أملساً ونظيفاً.

جلست أمي خلف عجلة القيادة، وألقت بضع رسائل في حضني، ثم أدارت ظهرها.

دار محرك السيارة مصدراً صوت شبيهاً بالحشرجة.

(أعتقد أنني يجب أن أخبرك الآن) قالت، فاستطعت رؤية الأخبار السيئة مجتمعة على عنقها، (لم يوافقوا على الطلب الذي كنت قد قدمتيه للالتحاق بدرس الكتابة).

لكز الهواء معدتي.

كان درس الكتابة يتجلى أمام ناظري، طيلة شهر يونيو، كمرفأ أمان، يضيء هاوية الفراغ الرتيب التي سأعلق بها خلال فصل الصيف. والآن أراه حلماً يتداعى ويتبدد إلى الزوال، فهوى جسد يرتدي قميصاً أبيضاً، وتنورة خضراء، في تلك الهاوية.

ثم أعاد فمي تشكيل نفسه على نحو موجوع.

كنت أتوقع ذلك.

استمر ظهري بالنزول في المقعد، حتى صار أنفي بمستوى حافة النافذة، فشاهدت منازل ضاحية بوسطن وهي تنسل منها، وعندما أصبحت المنازل أكثر ألفة، وجدت نفسي منكمشة في أسفل المقعد.

شعرت بضرورة ألا يعرفني أحد.

كان سقف السيارة الرمادي المبطن يدنو من رأسي كسقف عربة نقل السجناء، وكانت المنازل البيضاء المتناثرة على الأطراف، والمكسوة بألواح خشبية طويلة، والتي تفصل بينها وبين المنازل الأخرى مساحات عشبية مجزوزة على نحو أنيق، قد تحركت أمامنا، لوحاً بعد لوح، في قفص كبير لا يمكن الهروب منه.

لم يسبق لي أن قضيت الصيف في ضواحي المدينة من قبل.

كان الصوت المزعج لاحتكاك عجلات السيارة يعذب أذني. تسللت أشعة الشمس من خلال الستائر، واتحدت مع أشعة الكبريت، لم أدر كم استغرقت في النوم، غير أنني كنت منهكة تماماً.

كان السرير المجاور لسريري، فارغاً، ومفكك القطع.

عند السابعة، سمعت صوت استيقاظ أمي من نومها، نهضت من سريرها، ثم ارتدت ثيابها على عجل، وخطت خارج الغرفة على رؤوس أصابع قدميها. ثم علا صوت آلة صنع عصير البرتقال من الطابق السفلي، وتسربت رائحة القهوة، واللحم المقدد من تحت باب غرفتي. ثم انساب ماء الحوض من الصنبور، وارتفع صوت غسيل الأطباق وتجفيفها ثم ترتيبها على أرفف الخزانة.

ثم فتحت الباب الأمامي وأغلقته وراءها، ثم فتحت باب السيارة وأغلقته وراءها، ثم أدارت محرك السيارة، وانطلقت، رويداً رويداً، وهي تطحن الحصى بعجلات سيارتها، حتى تلاشى صوتها في الأفق البعيد.

كانت أمي تعطي دروساً لتعليم لغة الاختزال والطباعة لمجموعة فتيات يدرسن في كلية المدينة، ولن تعود إلى المنزل حتى منتصف ما بعد الظهيرة.

ارتفع صوت عجلات مرة أخرى. يبدو أن شخصاً ما، كان يجر عربة أطفال، جيئة وذهاباً، تحت نافذتي.

انزلقت من السرير على السجادة، ثم حبوت، بهدوء، على يدي وركبتي، لأستطلع الأمر.

كان منزلنا خشبياً صغيراً مطلياً بالأبيض، في وسط حديقة خضراء صغيرة تقع في زاوية شارعين هادئين في الضاحية، ورغم أشجار القيقب القليلة المزروعة على بعد مسافة قريبة من منزلنا، فقد كان باستطاعة من يمر بالجوار رؤية نوافذ الطابق الثاني، ويطلع على ما ما يجري بداخله.

نبهتني إلى ذلك جارتنا الحقودة التي تقطن في المنزل المجاور، والتي تدعى (السيدة أوكندن).

كانت السيدة أوكندن ممرضة متقاعدة، تزوجت مؤخراً من زوجها الثالث (مات الاثنان الآخران في ظروف غامضة). كانت تقضي أغلب وقتها في التلصص عبر الستائر البيضاء التي تغطي نوافذ بيتها.

كانت قد هاتفت أمي مرتين بشأني - مرة، لتخبرها أني ما زلت جالسة، منذ ساعة، أمام البيت، تحت أضواء الشوارع، أقبل شخصاً ما في سيارة بلايماوث زرقاء، وفي الثانية، أخبرتها بضرورة أن أغلق نافذتي بإحكام، لأنها لمحتني بالصدفة ذات ليلة وهي تنزه كلبها الأسكتلندي، وأنا أقف نصف عارية في غرفتي حتى أتجهز للذهاب إلى النوم.

رفعت عيني، بحذر شديد، إلى مستوى حافة النافذة.

كانت امرأة يقل طولها عن خمسة أقدام، ذات بطن براز ومتنافر، تجر عربة أطفال سوداء عتيقة في الشارع. كان يتمايل تحت ظلال تنورتها طفلان، أو ثلاثة، بأحجام مختلفة، وبوجوه متسخة وركب عارية ومسودة.

أشرق وجه المرأة بابتسامة هادئة، وتقية على نحو ما. وفيما كان رأسها ينحني إلى الوراء بسعادة ورضا، مثل بيضة عصفور حطت فوق بيضة بطة، ابتسمت للشمس.

كنت أعرف هذه المرأة جيداً.

إنها (دودو كنواي).

كانت دودو كنواي كاثوليكية، التحقت بكلية بارنارد، ثم تزوجت بمهندس معماري درس في كولومبيا، والذي كان كاثوليكياً هو الآخر. كانا يمتلكان بيتاً كبيراً وواسعاً في أعلى الشارع الذي يقع فيه بيتنا، خلف واجهة كئيبة من أشجار الصنوبر، تحيطه دراجات نارية أخرى ثلاثية العجلات، عربات وسيارات اطفاء على هيئة دمى، وحاجز شبكي للعب تنس الريشة ومضارب كروكيت، وأقفاص الهمستر وجراء قصيرة الأقدام - كانت هذه الممتلكات المثالية المنتشرة لممارسة الطفولة في الضواحي.

أثارت دودو اهتمامي رغماً عني. كان منزلها يختلف عن بقية منازل الحي، بحجمه (كان أكبر المنازل حجماً) ولونه (كان الطابق الثاني مكسو بألواح خشبية بنية غامقة، والطابق الأول

مغطى بألواح جص رمادية، تتخللها أحجار رمادية وأرجوانية على هيئة كرة غولف)، كما كانت أشجار الصنوبر تخفيه عن الأنظار بشكل كامل، حتى أصبح معزولاً في وسط مجتمع متحاب ومتقارب من الحدائق والأسوار التي ترتفع حتى تصل إلى الخصر.

ربت دودو أبناءها الستة - وستربي السابع من دون شك - على تناول رقائق الأرز وشطار زبدة الفول السوداني وحلوى الخطمي، وبوظة الفانيلا والكثير من حليب هودس.[50] Hoods

كان الجميع يحب دودو، رغم أن حجم عائلتها المتزايد كان حديث الحي. فقد كان لكبيرات الحي - كأمي - ولدان، فيما كان للأزواج الأصغر سناً والأكثر ثراء أربعة أطفال، غير أن لا أحد - سوى دودو - كان ينتظر طفله السابع. فحتى إنجاب طفل سابع كان يعد بالنسبة إليهم شيئاً أعلى من الحد الطبيعي، غير أن دودو - كما يقول الجميع - كاثوليكية.

رحت أشاهد دودو، وهي تدفع كنواي، أصغر أبنائها، في العربة، جيئة وذهاباً. بدت كأنها تقوم بذلك من أجلي. تجعلني رؤية الأطفال أشعر بالغثيان.

أصدرت أرضية الخشب صوت صرير، فأحنيت رأسي إلى الأسفل في اللحظة التي استدار فيها وجه دودو كنواي، بفعل الغريزة أو حاسة سمع خارقة القوى - حول محور عنقها الصغير.

شعرت بنظراتها وهي تخترق اللوح الخشبي الأبيض وأزهار أوراق الجدران الوردية، بينما كنت جاثية خلف أوتاد المبرد المعدنية.

زحفت إلى السرير، وسحبت الملاءة فوق رأسي. غير أن ذلك لم يمنع أشعة الشمس من التسرب إلى الداخل، فدفنت رأسي تحت ظلام الوسادة، متظاهرة أن وقت الليل قد حان. لم يكن هناك سبب يدفعني للنهوض.

بعد برهة، سمعت صوت رنين الهاتف في الرواق السفلي. حشوت الوسادة في أذني، ومنحت نفسي خمس دقائق. ثم رفعت رأسي. كان صوت الرنين قد اختفى.

ثم راح الهاتف يرن من جديد.

لعنت كل صديق، أو قريب، أو غريب، علم بعودتي، هبطت السلالم حافية القدمين. كان الصندوق الأسود يطلق رنينه الهستيري فوق طاولة الرواق، مرة تلو الأخرى، مثل طائر هلع.

التقطت السماعة.

(مرحباً)، قلت بصوت خافت ومغاير للطبيعة.

(مرحباً إيستر، مالخطب، هل التهبت حنجرتك؟)

كانت جودي، صديقتي القديمة، تتصل من كامبريدج.

كانت تعمل في جمعية تعاونية في ذلك الصيف، وتتردد على حضور درس في علم الاجتماع خلال فترات الغداء. كانت قد استأجرت مع طالبتان من كليتي، شقة واسعة عن طريق أربعة طلبة يدرسون القانون في جامعة هارفارد، كنت أخطط الإنضمام معهن حين يبدأ فصل الكتابة.

كانت جودي ترغب في معرفة الوقت الذي سوف أنضم فيه للشقة.

(لست قادمة) قلت. (لم أحظ بالموافقة).

عم الصمت بيننا لبرهة.

(إنه حمار) قالت جودي (إنه لا يعرف كيف يميز الأشياء الجيدة عندما يراها).

(قلت ذلك لنفسي أيضاً) بدا وقع صوتي غريباً ومجوفاً في أذني.

(تعالي على أية حال، يمكنك الإلتحاق بفصل آخر).

خطرت في بالي بسرعة فكرة الالتحاق بدرس تعلم اللغة الألمانية، أو علم النفس الأكلينيكي. خاصة وأنني قد ادخرت أغلب النقود التي حصلت عليها عن طريق عملي في نيويورك، فكنت أستطيع بذلك تحمل نفقات الدراسة. غير أن الصوت الأجوف تحدث من تلقاء نفسه:

(من الأفضل ألا تعلقن آمالاً علي).

(حسناً، ثمة فتاة أخرى ترغب في الانضمام إلينا إن قررت الانسحاب..)

(رائع، اطلبي منها أن تحل محلي).

في اللحظة التي أغلقت فيها سماعة الهاتف، أدركت أنني كان يجب أن أخبر جودي بأنني سوف ألتحق بهن. فيوم آخر من الاستماع إلى دودو كنواي، وهي تجر عربة الأطفال، سيدفعني على حافة الجنون. كما أنني قد عزمت على عدم الإقامة في نفس المنزل الذي تقيم فيه أمي، لأكثر من أسبوع.

مددت يدي لألتقط سماعة الهاتف.

تطاولت يدي قليلاً، تراجعت ثم تراخت. ثم أرغمتها مرة أخرى على التقاط السماعة، لكنها توقفت من جديد، كما لو أنها اصطدمت بلوح من زجاج.

خطوت ببطء وكسل نحو غرفة الطعام.

عثرت على رسالة طويلة فوق الطاولة، شبيهة بالرسائل التجارية، مرسلة من المدرسة الصيفية، ورسالة زرقاء رفيعة، كتبت على ما تبقى من مخلفات أوراق جامعة ييل، موجهة إليّ من قبل بدي ويلارد، مكتوبة بخط يده الواضح.

فتحت ظرف رسالة المدرسة الصيفية بالسكين.

تقول الرسالة، ضمن أشياء أخرى، إن بإمكاني الالتحاق بحلقة دراسية أخرى بدلاً من الإلتحاق بحلقة الكتابة الإبداعية، ويجب عليّ الإتصال بمكتب التسجيل في ذلك الصباح، وإلا فاتني موعد التسجيل، لأن أغلب المقاعد الشاغرة للحلقات قد شارفت على الإنتهاء.

هاتفت مكتب التسجيل، واستمعت إلى صفارة المجيب الآلي، فتركت رسالة تقول إن الآنسة إيستر غرينوود تلغي جميع الترتيبات اللازمة للالتحاق بالمدرسة الصيفية.

ثم فتحت رسالة بدي ويلارد.

كان مفاد الرسالة أن بدي يتوقع أنه قد وقع في حب ممرضة مصابة، هي الأخرى، بداء السل، غير أن أمه استأجرت كوخاً في الأديرونداكس لشهر تموز، وإذا قامت بعمل مقارنة بيني

وبينها، فسيكتشف أن مشاعره نحو الممرضة لم تكن سوى سحابة عابرة.

التقطت قلم رصاص وشطبت رسالة بدي. ثم قلبتها، وكتبت على وجهها أنني مرتبطة بمترجم فوري، ولا أريد رؤية بدي مرة أخرى، لأنني لا أرغب في أن يكون والد أطفالي منافقاً.

أعدت الرسالة إلى مظروفها مرة أخرى، ألصقتها بلاصق، ثم أعدت إرسالها إلى بدي، من دون أن أتحمل عناء وضع طابع بريدي جديد. فكرت أن الرسالة تكلف ثلاثة سنتات.

ثم قررت أن أقضي الصيف في كتابة رواية.

سيكون ذلك بمثابة انتقام من الكثير من الأشخاص.

خطوت نحو المطبخ، ثم ألقيت بيضة نيئة في قليل من اللحم المفروم النيء، قمت بخلطهما معاً ثم أكلتهما. ثم وضعت طاولة لعب الورق في الممر المنزوي الذي يفصل بين المنزل ومرآب السيارات.

كانت شجرة برتقال كبيرة تحجب رؤية الشارع المقابل، أما جدار المنزل والمرآب فقد حجبا الجهة التي يتواجدان فيها. فيما كانت مجموعة من شجر البتولا والسياج يحميانني من نظرات السيدة أوكندن المتربصة من الخلف.

أحصيت ثلاثة مائة وخمسين شريط طباعة قابلاً للمحي من بين الأشياء التي كانت أمي تحتفظ بها في خزانة الرواق. كانت تخبئها تحت كومة من القبعات الصوفية القديمة وفراش لتنظيف الملابس وأوشحة مصنوعة من الصوف.

حينما عدت إلى مكاني مرة أخرى، وضعت شريطاً جديداً في الآلة الكاتبة المحمولة القديمة، ولففته.

من عقلية أخرى مختلفة، تخيلت نفسي جالسة في هذا المكان، تحيط بي جدران من ألواح الخشب الأبيض وأشجار برتقال زائفة، وأشجار البتولا، والسياج، وأنا متناهية في الصغر، مثل حجم دمية صغير في منزل دمى.

شعور بالحنان ملأ قلبي، سأكون البطلة، ولكن بشكل مقنع. سيكون اسم البطلة إيلين Elaine، عددت الحروف على أطراف أصابعي. ثمة ستة حروف في إيستر Esther أيضاً. بدا الأمر مبشراً بالخير.

كانت إيلين تجلس في هذا المكان وقد ارتدت إحدى قمصان النوم الخاصة بوالدتها، في انتظار أن يحدث شيء ما. كان صباحاً خانقاً من صباحات تموز، وكانت قطرات العرق تتدحرج على ظهرها، الواحدة تلو الأخرى، كما لو كانت دبيب حشرات صغيرة.

تمددت إلى الوراء، وقرأت ما كتبته.

بدا نصاً مفعماً بالحياة حتى آخر كلمة. كنت فخورة بذلك الجزء الخاص بقطرات العرق التي تشبه الحشرات. شعرت بأنني قد قرأت ذلك في مكان ما، منذ زمن بعيد.

جلست هكذا، بدون حراك، لمدة ساعة، محاولة التفكير فيما سيحدث لاحقاً، لتلك الدمية الحافية التي ارتدت قميص نوم والدتها الأصفر القديم، وهي جالسة تحدق في الفراغ أيضاً.

(لماذا يا حبيبتي. ألا ترغبين في ارتداء ملابسك؟)

كانت أمي حريصة على ألا تخبرني بما ينبغي القيام به بشكل مباشر. كانت تناقشني بلطف، كشخص ذكي ناضج ينقاش شخصاً ذكياً ناضجاً.

(سوف تصبح الساعة الثالثة عصراً)

(أشرع في كتابة رواية) قلت (ليس لدي وقت لتغيير ملابسي).

ألقيت نفسي على الأريكة، وأغلقت عيني، كان باستطاعتي سماع الصوت الذي تحدثه أمي وهي تزيح الآلة الكاتبة والأوراق من فوق طاولة لعب الورق لتضع مكانها الأطباق الفضية استعداداً لتقديم وجبة العشاء، لكنني لم أحرك ساكناً.

كان الكسل يتسرب، مثل دبس السكر، عبر أطراف إيلين. مخلفاً شعوراً شبيهاً بالشعور الذي يختبره مرضى الملاريا، قالت ذلك في نفسها.

إن بقيت على هذه الحال، سأكون محظوظة لو كتبت صفحة واحدة في اليوم.

ثم تبهت إلى سبب المشكلة.

تنقصني التجربة.

كيف أكتب عن الحياة، وأنا لم أعش تجربة حب حقيقية، ولم أنجب طفلاً لأهبه الحياة، حتى أنني لم أشاهد شخصاً يفارق الحياة أمام ناظري؟ كنت أعرف فتاة فازت منذ فترة قريبة بجائزة عن قصة قصيرة كتبتها حول مغامراتها بين أقزام أفريقيا. كيف لي أن أنافس شيئاً كهذا؟

بعد أن انتهينا من تناول طعام العشاء، قامت أمي بإقناعي بضرورة تعلم لغة الإختزال مساءً. حينها سأضرب عصفورين بحجر واحد، سأكتب رواية، وأتعلم شيئاً عملياً، فأوفر بذلك الكثير من المال.

بعد ذلك، أخرجت أمي سبورة قديمة من القبو، ووضعتها في المكان الذي كنت أجلس فيه منذ الصباح. ثم وقفت بجوارها، وخطت بضع علامات صغيرة بواسطة طبشورة بيضاء، فيما كنت أتابعها وأنا جالسة على الكرسي.

في البداية شعرت بالأمل.

شعرت بأنني أستطيع تعلم لغة الإختزال في وقت قصير، وعندما ستسألني تلك الموظفة المنمشة التي تعمل في مكتب المنح عن السبب الذي منعني من العمل على كسب المال في شهري يوليو وأغسطس، مثل بقية المتقدمات الأخريات، فسأخبرها حينها أنني التحقت عوضاً عن ذلك بدورة مجانية لتعلم لغة الاختزال حتى أتمكن من إعالة نفسي بنفسي بعد اتمام التخرج.

الشيء الوحيد الذي استطعت تخيله عند التحاقي في وظيفة ما، هو الفراغ الذي سيملأ عقلي عندما أخط بخفة الأسطر الممتلئة بتلك العلامات، السطر تلو الآخر. لا توجد وظيفة واحدة، ضمن الوظائف التي رغبت بالعمل بها، تتطلب استخدام لغة الاختزال. هكذا، وبينما أنا جالسة أتابع أمي، استحالت العلامات المكتوبة بالطبشورة البيضاء إلى ضباب.

أخبرت أمي أنني أعاني من صداع رهيب، فذهبت إلى الفراش.

بعد ساعة، انفتح الباب قليلاً، فتسللت أمي عبر الغرفة. سمعت حفيف ثيابها كما لو كانت تنزعها عنها. ثم صعدت إلى السرير. حتى صار وقع أنفاسها بطيئاً ومنتظماً.

استطعت مشاهدة خصلات شعرها وهي تلمع كمجموعة من السكاكين الحادة تحت اضاءة مصابيح الشارع الخافتة المتسربة عبر ستائر الغرفة.

قررت أن أؤجل كتابة الرواية إلى حين ذهابي إلى أوروبا، وخوض مغامرة عاطفية، كما أنني لن أتعلم حرفاً واحداً من لغة الاختزال. فعندما لا أتعلمها لن أصبح مجبرة على استخدامها.

فكرت في ان أقضي الصيف بقراءة (يقظة فينيغان)، وكتابة أطروحتي. وعندما يبدأ العام الدراسي في نهاية شهر سبتمبر سأكون قد قطعت شوطاً كبيراً ووفرت على نفسي عناء الدراسة بجد وأصبحت قادرة على الاستمتاع بسنتي الأخيرة بدلاً من التعرق بدون مكياج وإهمال تصفيف شعري، واتباع حمية تقتصر على شرب القهوة وتعاطي البنزفيتامين[51]، مثل معظم طالبات السنة الأخيرة، ممن حصلت أطروحاتهن على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف.

ثم خطر ببالي أن أقوم بتأجيل الكلية لسنة أخرى حتى أتعلم أصول صناعة الخزف. أو أسافر إلى ألمانيا لأعمل نادلة وأجيد التحدث بأكثر من لغة.

هكذا، راح مخطط يقفز إلى ذهني تلو مخطط آخر مثل عائلة من الأرانب.

رأيت سنوات حياتي ممتدة على طول المدى مثل أعمدة متصلة بأسلاك الهاتف. عددتها: عمود، عمودان، ثلاثة أعمدة... تسعة عشر عموداً، ثم تشابكت أسلاك الأعمدة في الأفق، ولم أستطع تمييز عمود واحد من بين كل تلك الأعمدة، رغم محاولاتي المتكررة.

بدت الغرفة زرقاء أكثر من المعتاد. فتساءلت أين اختفى الليل. استحالت أمي من وجودها الضبابي إلى امرأة نائمة في منتصف العمر، كان فمها مفتوحاً على نحو ما، وصوت الشخير ينبعث من حلقها مثل صوت خنزير مزعج، ثم خطر ببالي أن الطريقة الوحيدة لإيقاف تلك الضجة، هي أن أمسك بالعضلة مع الأوتار معاً لأطبق فمها ويعم السكون بين يدي.

تظاهرت بالنوم حتى غادرت أمي إلى المدرسة، لكن جفني لم يستطع حجب الضوء، كانت الأشعة تلوح أمامي كأشرعة مدماة لسفن بالغة الصغر تحجب عيناي مثل الجرج. زحفت بين

المراتب ووسادة السرير المبطنة، وتركت الفراش يسقط فوق مثل شاهد قبر. شعرت تحته بالظلام والأمان، ولكن الفراش لم يكن ثقيلاً بما يكفي.

يلزمني فراش يزن طناً حتى أتمكن من النوم.

(جرت مياه النهر، متجاوزة كنيسة آدم وحواء، من منحرف الشاطىء إلى منحى الخليج، تحملنا عبر شريان عريض نحو قلعة هوث وما جاورها...)[52]

انتابني شعور مزعج بالخواء بسبب حجم الكتاب الضخم.

جرت مياه النهر، متجاوزة كنيسة آدم وحواء.

فكرت أن السبب الذي دفع الكاتب بأن يبدأ روايته بكلمة تبدأ بحرف صغير، ليوحي للقارىء أنه لم يبدأ شيئاً جديداً. وأن كلماته امتداد لما سبقها. فكنيسة آدم وحواء [53] تعني آدم وحواء، أو موضوعاً يتعلق بهما، ولكنها قد ترمز إلى شيء آخر أيضاً.

ربما ترمز العبارة إلى حانة في دبلن.

غرقت عيناي في ضباب الحروف الأبجدية، حتى وصلت إلى كلمة طويلة في منتصف الصفحة.

(بابيدلغراغتكامممرررراونكوننبرونتوننايروننيشوونذاتنيشونذانتروفاروهونسكوانتوهاوهاو هاوههورديننثيرونيك!)

أحصيت الحروف. كانت مئة حرف تماماً. اعتقدت أن ذلك شيء مهم.

لم مائة حرف بالتحديد؟

بعد تردد، حاولت نطق الكلمة بصوت عال.

كان الأمر أشبه بمجسم خشبي ثقيل يسقط فوق الدرج، بوووم بوووم بوووم، درجة بعد درجة. تركت صفحات الكتاب تتحرك ببطء أمامي مثل مروحة بينما كنت أقلبها بيدي، الواحدة تلو الأخرى، كانت الكلمات مألوفة على نحو غير واضح، متخذة أشكالاً منحرفة، مثلما تظهر الوجوه

على تلك المرايا التي تعكس أشكالاً غريبة ومضحكة. كانت الكلمات تمر سراعاً، بدون أن تترك أي أثر على السطح الزجاجي لدماغي.

حدقت في الصفحة.

نمت فوق الحروف قرون خواريف وأشواك، شاهدتها، وهي تنفصل عن بعضها، مهتزة وهي تصعد للأسفل والأعلى بطريقة سخيفة... ثم التحمت في أشكال رائعة لا يمكن ترجمتها، مثل حروف عربية أو صينية.

قررت التخلي عن أطروحتي.

قررت التخلي عن البرنامج الشرفي[54] بشكل تام، وأصبح طالبة عادية متخصصة في الأدب الإنجليزي.

ذهبت إلى كليتي لأتقصى شروط التخصص العادي في الكلية الإنجليزية.

كانت هناك من المتطلبات، ولم تكن لدي نصفها. كان أحد الشروط اللازمة للالتحاق بحلقة مختصة بأدب القرن الثامن عشر، كنت أكره فكرة دراسة حقبة القرن الثامن عشر بشكل خاص، ففيها كتب جميع الرجال المتعجرفين مقاطع شعرية مكونة من شطرين، يأخذهم بذلك الحرص الشديد على أن يمرروا مبادئهم العقلانية من خلالها. جعلني ذلك أعزف عن فكرة الإلتحاق بهذه الحلقة. كانوا يسمحون لنا بالقراءة المنوعة في البرنامج الشرفي، حيث كنا نتمنع بحرية كبيرة، بل إنني كنت أتمتع بحرية كاملة إلى درجة أنني كنت أقضي معظم وقتي في قراءة أعمال ديلان توماس[55].

لم تستطع صديقة لي في البرنامج الشرفي أن تقرأ كلمة واحدة من كتابات شكسبير، في حين أنها كانت خبيرة في (الرباعيات الأربع)[56]

بدت محاولة الانتقال من البرنامج الحر إلى برنامج آخر أكثر صرامة أمراً مستحيلاً، ومصدر قلق بالنسبة إلي. لذلك بحثت عن شروط الإلتحاق بقسم اللغة الإنجليزية بالكلية التي تعمل بها أمي.

كانت شروطها أسوأ من شروط كليتي.

يجب أن يكون الطالب ملماً بمفردات اللغة الإنجليزية القديمة وتاريخها، ويكون قادراً على استحضار اقتباسات أدبية من جميع ما تم كتابته منذ بيوولف[57] إلى يومنا هذا.

عجبت من ذلك، فقد كنت أنظر دائما إلى الكلية التي تعمل فيها والدتي بنظرة دونية. فالطلاب الذين يلتحقون بها لا يستطيعون الحصول على منحة للدراسة في الجامعات الشرقية الكبيرة.

ولكنني أيقنت الآن أن أغبى شخص يدرس في هذه الكلية يعرف أشياء لم أعرفها في حياتي. وبدا واضحاً أنهم لن يسمحوا لي بالدخول من الباب، أو يقدموا لي منحة كبيرة، كتلك التي حصلت عليها من كليتي.

فكرت من الأفضل أن أعمل لمدة سنة، وبعدها أفكر في أمر العودة إلى الدراسة، ربما أدرس، خفية، أدب القرب الثامن عشر.

لكنني لا أعرف لغة الاختزال، ما هي الأعمال التي يمكن أن أقوم بها؟

أستطيع العمل كنادلة أو كاتبة.

لكنني لا أحتمل فكرة العمل بهاتين الوظيفتين.

....

(ألم تقولي بأنك في حاجة إلى المزيد من الأقراص المنومة؟)

(أجل)

(لكن الأقراص التي أعطيتك إياها في الأسبوع الماضي كانت قوية جداً)

(لم يعد لها أي مفعول)

تفحصتني عيون تيريزا الواسعة والمظلمة بعناية، كان بإمكاني سماع صوت أبناءها الثلاثة وهم يلعبون في الحديقة أسفل نافذة غرفة العيادة. كانت خالتي ليبي متزوجة من رجل إيطالي،

وتيريزا هي أخت زوج خالتي، وطبيبة العائلة.

كنت أحب تيريزا، فلمساتها لطيفة وبديهية.

أظن أن سبب ذلك يعود إلى كونها إيطالية.

عم السكون قليلاً

(ما الخطب) قالت تيريزا

(لا أستطيع النوم. لا أستطيع القراءة).

حاولت التكلم بطريقة هادئة، لكن الزومبي نهض في حلقي وخنقني بيديه. ثم مددت إليها راحة يدي، فمزقت ورقة بيضاء من دفتر وصفاتها الطبية ودونت اسماً وعنواناً.

(من الأفضل أن تزوري طبيباً آخر أعرفه. سيكون قادراً على مساعدتك أكثر مما أستطيع).

حدقت في الورقة، لكنني لم أستطع قراءتها.

(الدكتور جوردن) قالت تيريزا (إنه طبيب نفسي).

(11)

كانت غرفة الانتظار بعيادة الدكتور جوردن هادئة ومطلية باللون البني الفاتح، كانت جميع السجاجيد والكراسي المنجدة والأرائك والجداران مطلية باللون البني الفاتح. لم يكن هناك وجود لأية صور أو مرايا معلقة على الجدران، فقط شهادات من مختلف كليات الطب، تحمل اسم الدكتور جوردن، كما كانت هناك سراخس باهتة اللون ومتدلية، وأوراق خضراء داكنة على سيقان مليئة بالشوك تملأ الأصص الخزفية على طاولة الزاوية، وطاولة للقهوة، وطاولة للمجلات.

تساءلت في البداية عن السبب الذي جعل هذه الغرفة موحية بالأمان إلى هذا الحد. ثم أدركت أن سبب ذلك عائد إلى انعدام النوافذ فيها.

جعلني تكييف الهواء أرتجف من البرد.

كنت لا أزال مرتدية قميص بتسي وتنورتها الفضفاضة. بدتا ذابلتين قليلاً، لأنني لم أغسلهما منذ عودتي إلى البيت قبل ثلاثة أسابيع. كانت تنبعث من القطن المبلل رائحة مشوبة بالعرق، وبالألفة.

كما أنني لم أغسل شعري منذ ثلاثة أسابيع.

ولسبع ليال لم يغمض لي جفن.

كانت أمي تؤكد لي أنني قد نمت في تلك الأيام، فمن المستحيل أن أبقى متيقظة طيلة ذلك الوقت، ولكن إن فعلت ذلك حقاً، فلابد أن عيني كانتا مفتوحتين على اتساعهما، لأنني لاحقت بعيني

عقرب ثواني الساعة المجاورة للسرير، وعقرب الدقائق والساعات، في حركة دائرية ونصف دائرية، كل ليلة، لسبع ليال، من دون أن أسهو عن ثانية أو دقيقة أو ساعة واحدة.

لم أغسل ثيابي وشعري لأنني وجدتها فكرة سخيفة.

رأيت أيام السنة، ممدة أمامي، كسلسلة من الصناديق البيضاء اللامعة، وكان النوم يفصل كل صندوق عن الآخر، كظل أسود. كان المنظر الطويل للظلال قد تلاشى فجأة، فرأيت الأيام تلمع أمامي، يوماً بعد الآخر. مثل شارع متسع بلا نهاية.

بدا الأمر سخيفاً، أن أغتسل في يوم من الأيام، وأضطر إلى الاغتسال مرة أخرى، في اليوم الذي يليه.

كان مجرد التفكير في الأمر يجعلني أشعر بالتعب.

كنت أرغب في القيام بكل شيء، دفعة واحدة، وأنتهي من الأمر.

عبث الدكتور جوردن بقلم رصاص فضي.

(أخبرتني أمك أنك مستاءة).

تكورت في كرسي جلدي غائر، وواجهت الدكتور جوردن، تفصلنا مساحة مكتبه المصقول بعناية.

انتظر الدكتور جوردن ردي. نقر بقلمه الرصاص، نقرات خفيفة متواصلة، على سطح دفتر أخضر أنيق.

كانت رموش عينيه طويلة وكثيفة، فبدت غير حقيقية، مثل فرشاة شعر سوداء مصنوعة من البلاستيك، ومحاطة ببركتين خضراوين من الجلد.

كانت ملامح الدكتور جوردن مثالية للغاية، فكاد أن يكون وسيماً.

كرهته منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها من باب الغرفة.

تخيلت رجلاً عطوفاً، قبيحاً، ذا بصيرة، ينظر إلى الأعلى ويقول (آه!) بطريقة مشجعة، كما لو كان يرى شيئاً لا أستطيع رؤيته. وقتها سأجد كلمات مناسبة لأخبره كيف كنت مرتعبة، كما لو حُشرت في كيس أسود خانق لا أقوى على الخروج منه. عندها سوف يتمدد في كرسيه، ويجمع أطراف أصابعه معاً، مثل قبة كنيسة صغيرة، ويخبرني عن سبب عجزي عن النوم والقراءة وتناول الطعام، ولم يبدو كل ما يقوم به الناس سخيفاً عند معرفتهم لحقيقة أنهم سوف يموتون في النهاية.

ثم فكرت أن بإمكانه مساعدتي، خطوة خطوة، لأعود كما كنت سابقاً.

لكن الدكتور جوردن لم يكن مثلما تخيلته على الاطلاق، كان صغير السن، ووسيماً، ويمكنني أن أعرف على الفور مدى اعتداده بنفسه.

كان يضع صورة فوتوغرافية على مكتبه، محاطة بإطار فضي، نصفها مواجه له، بينما كان النصف الآخر مواجهاً للكرسي الجلدي الذي أجلس فيه. كانت صورة عائلية تظهر امرأة جميلة ذات شعر داكن (ربما كانت أخته) مبتسمة فوق رأسي طفلين أشقرين.

أظن أن أحد الطفلين كان صبياً بينما كان الآخر فتاة، وربما كانا صبيين أو فتاتين، فمن الصعب تحديد ذلك عندما يكون الأطفال صغاراً. وأظن أن هناك كلباً في أسفل الصورة أيضاً، من فصيلة الأرديل أو من كلاب الصيد الذهبية، أو لعله ليس سوى جزء من تنورة تلك المرأة.

جعلتني الصورة، لسبب ما، أشعر بالغضب.

لم أدر السبب الذي جعل الدكتور جوردن يدير نصف الصورة نحوي، لعله كان يحاول إعلامي، بطريقة غير مباشرة، أنه متزوج من امرأة فاتنة، كي لا تتبادر إلى ذهني أفكار غريبة.

ثم فكرت، كيف يمكن لطبيب مثل هذا أن يساعدني، طبيب مرموق محاط بزوجة جميلة وطفلين جميلين وكلب جميل، يطوقونه بهالة، كهالة الملائكة المرتسمة في بطاقات أعياد الميلاد؟

(حاولي أن تخبريني بالشيء الذي يبدو خاطئاً بالنسبة لك)

قلبت كلماته بارتياب، مثل حجارة مدورة صقلتها مياه البحر، فأخرجت مخالبها فجأة لتصبح شيئاً آخر.

ما الشي الذي يبدو خاطئاً بالنسبة لي؟

لقد جعل الأمر يبدو كأنني تخيلت وجود شيء خاطىء غير موجود من الأساس. وبصوت رتيب منخفض - كي أظهر أنني لم أقع تحت سحر ملامحه الجذابة أو صورته العائلية - أخبرت الدكتور جوردن عن عجزي عن النوم والقراءة وتناول الطعام، لم أخبره عن أكثر شيء أزعجني مؤخراً، خط يدي.

في ذلك الصباح، حاولت كتابة رسالة إلى دورين، حيث كانت تقيم في فرجينيا الغربية، فسألتها عن إمكانية أن أقدم للعيش معها، فقد يتاح لي أن أعمل كنادلة في كليتيها، أو أي شيء من هذا القبيل.

ولكنني عندما أمسكت بالقلم، بدأت يدي بكتابة حروف ملتوية ضخمة، كتلك التي يخطها طفل صغير، وكانت الخطوط تنحدر أسفل الصفحة، من اليسار إلى اليمين، بطريقة مائلة قليلاً، كما لو كانت هناك خيوط معقدة ومتدلية على الورقة أمسكها شخص ما، وعبث بها، حتى جعلها تتخذ أشكالاً منحرفة.

كنت أعلم أنني لن أتمكن من كتابة رسالة مثلما أردت، فمزقتها إلى قطع صغيرة ووضعتها في حقيبة الجيب، قرب العلبة الصغيرة المتعددة الاستخدامات، إلى حين أن يسأل الطبيب النفسي عنها.

لكن الدكتور جوردن لم يسأل عنها، ولم أذكرها له، فسرني ذكائي. فكرت بقول ما أريد، وأنني أستطيع التحكم بالصورة التي رسمها عني، بإخفاء ذلك الشيء، أو الإفصاح عن ذاك، في اللحظة التي يعتقد فيها أنه أنجز أمراً خارق الذكاء.

وطيلة الوقت الذي كنت أتحدث فيه، كان الدكتور جوردن يحني رأسه إلى الأسفل، كما لو كان يصلي. لم تكن هناك أية ضجة في الغرفة، فيما عدا الصوت الرتيب والمنخفض لنقرات قلم الدكتور جوردن التي كان يواصل تكرارها على سطح الدفتر الأخضر، مثل عصي المشي الطويلة.

وعندما أنتهيت من الكلام، رفع الدكتور جوردن رأسه.

(بأية كلية التحقت؟)

بعد شيء من التردد، أخبرته، لم أعرف ما علاقة الكلية بالأمر.

(آه)، أسند الدكتور جوردن ظهره إلى ظهر الكرسي، محدقاً في الفضاء أعلى كتفي بابتسامة مستدعية للذكريات.

ظننت أنه سيخبرني بنتيجة التشخيص، وربما كنت قد حكمت عليه على نحو متسرع وكنت فظة معه. لكنه اكتفى بالقول (أتذكر كليتك جيداً. كنت هناك خلال الحرب. كانت لديهم ثكنة خاصة بفيلق النساء WAC أليس كذلك؟ أو لعلها كانت تابعة لفرقة المتطوعات في البحرية WAVES؟).

أخبرته أنني لا أدري.

(بلى، كانت لديهم ثكنة خاصة بفيلق النساء، تذكرت هذا الآن. كنت طبيباً مقيماً هناك، قبل أن يرسلوني إلى ما وراء البحار، يا إلهي! كانت هنالك مجموعة كبيرة من النساء الجميلات).

ضحك الدكتور جوردن.

ثم نهض على قدميه، بحركة رشيقة واحدة، وراح يخطو حول المكتب. لم أكن متأكدة مما سيفعله بالتحديد، فنهضت واقفة أنا الأخرى.

مد الدكتور جوردن يده اليسرى إلى يدي، المعلقة في الجانب الأيمن من جسدي، وهزها جيداً.

(أراك في الأسبوع القادم، إذاً).

كانت أشجار الدردار المكتملة النمو قد أقامت نفقاً من الظلال فوق واجهات القرميد الأصفر والأحمر على طول جادة كمنويلث، وكانت عربة الترام تشق طريقها إلى بوسطن، متوطئة سكتها الفضية الرفيعة، انتظرت أن يعبر الترام، ثم سرت نحو سيارة الشيفروليه عند الحاجز الحجري المقابل.

أستطيع تخيل وجه أمي، مصفراً وقلقاً مثل شريحة من الليمون، وهي تحدق بي من وراء زجاج السيارة الأمامي.

(حسناً، ماذا قال؟)

سحبت باب السيارة وأغلقته. لكنه أبى أن ينغلق، فسحبته بيدي ثم أغلقته بقوة مرة أخرى.

(قال بأنه يريد أن يراني في الأسبوع المقبل).

تنهدت أمي.

كان الدكتور جوردن يتقاضى خمسة وعشرين دولاراً عن الساعة.

....

(أنت التي هناك، ما اسمك؟)

(إيلي هيغين بوتوم).

تبعني البحار، ثم ابتسم.

لا بد أن عدد البحارة الذين يتنزهون في (كومون) يعادل عدد طيور الحمام. يبدو أنهم كانوا يخرجون من مواقع تدريبهم المظلمة في الجانب الآخر، تلك التي تعج جدرانها الداخلية بملصقات إعلانية كتب عليها: (انضموا إلى البحرية).

(من أين أنت، يا إيلي؟).

(من شيكاغو).

(لم أذهب إلى شيكاغو من قبل، لكنني أعرف شاباً أو اثنين التحقا بجامعة شيكاغو، كنت أحسب أنها واحدة من تلك الجامعات التي تخرج أشخاصاً غريبي الأطوار.... من المؤكد أنك بعيدة جداً عن موطنك الآن).

طوق البحار خصري بذراعه، واستمر بذلك طوال تنزهنا في كومون، ثم فرك وركي بيديه وهو يرفع التنورة الخضراء المنسدلة، بينما كنت أبتسم على نحو غامض، محاولة ألا أقول شيئاً يدل على أنني قادمة من بوسطن، فربما أصادف في أي لحظة السيدة ويلارد أو إحدى صديقات أمي وهو تمر بالجوار بعد احتسائها الشاي في (بيكن هيل Beacon Hill)، أو بعد انتهاءها من التسوق في (فيلينز بيسمنت Filene`s Basement).

خطر ببالي أنني إن تمكنت من الذهاب إلى شيكاغو في يوم من الأيام، فسوف أغير اسمي ليصبح (إيلي هيغين بوتوم) إلى الأبد. لن يعرف أحد أنني تخليت عن منحة مدفوعة التكاليف للدراسة في إحدة الكليات الشرقية الكبيرة المخصصة للنساء، وقضيت شهراً كاملاً في نيويورك، ورفضت الزواج من طالب طب مثالي، سيصبح في يوم الأيام عضواً بالجمعية الطبية الأمريكية، ويجني الكثير من الأموال.

في شيكاغو، سيتقبلني الناس على حقيقتي المحضة.

سأكون إيلي ببساطة، الفتاة اليتيمة، التي يحبها الناس لطبيعتها اللطيفة والهادئة، لن يلحوا عليّ بقراءة الكتب، وكتابة دراسات طويلة حول التوائم الذين تحدث عنهم جيمس جويس. وقد أتزوج في يوم من الأيام رجلاً يفيض بالرجولة والرقة، ويعمل في مرآب لتصليح السيارات. وأحظى بعائلة كبيرة مثل عائلة دودو كنواي.

فقط، عندما أجد في نفسي الرغبة للقيام بذلك.

(ماذا تريد أن تعمل بعد الإنتهاء من البحرية؟) سألت البحار فجأة.

كانت تلك أطول جملة تفوهت بها منذ بداية حديثي معه، فبدا متفاجئاً، وأزاح قبعته البيضاء الشبيهة بالكاب كيك جانباً ليحك رأسه.

(في الحقيقة يا إيلي، أنا لا أعرف) قال (قد ألتحق بإحدى الجامعات، مستفيداً من المنح المالية التي يقدمها صندوق إعانة جنود الحرب[58]).

صمت قليلاً، ثم قلت مقترحة: (هل فكرت في فتح ورشة لتصليح السيارات؟)

(كلا) قال البحار (لم أفكر بذلك أبداً).

نظرت إليه من طرف عيني، بدا كمراهق لم يتجاوز سن السادسة عشر بيوم واحد.

(هل تعلم كم أبلغ من العمر؟) قلت متهمة.

ابتسم البحار في وجهي وقال: (لا أعلم، ولا أهتم)

شعرت بشيء لافت في وسامة ذلك البحار. كما لو كان بتولاً، تعود أصوله إلى دول الشمال[59]، شعرت بأن لدي عقلية بسيطة لا تجذب سوى الشبان المهذبين والوسيمين.

(حسناً، عمري ثلاثون) قلت منتظرة ردة فعله.

(غير معقول، إيلي، لا يبدو عليك ذلك) قرص البحار وركي.

ثم ألقى نظرة سريعة نحو الشمال واليمين (اسمعي إيلي، إن صعدنا نحو تلك السلالم، فيمكنني أن أقبلك هناك، أسفل النصب التذكاري).

شعرت في تلك اللحظة بوجود امرأة ملونة بالبني، تنتعل حذاء بنياً مسطحاً، وتمشى بخطى واسعة نحو متنزه كومون، متجهة إلي. لم أستطع، من بعيد، تمييز ملامح الوجه الذي بدا صغيراً مثل حجم الدايم[60]، غير أنني أدركت أنها السيدة ويلارد.

(هل يمكنك أن ترشدني إلى طريق المترو؟) قلت للبحار بصوت عال.

(ماذا؟)

(المترو الذي يؤدي إلى سجن جزيرة الغزلان؟)

سأتظاهر عند مجيء السيدة ويلارد أنني كنت أسأل البحار عن الاتجاهات، وأنني لا أعرفه أبداً.

(أبعد يديك عني) خرج صوت من بين أسناني.

(ماذا دهاك يا إيلي؟)

اقتربت المرأة ومرت بدون أن تنظر أو تومىء. لم تكن السيدة ويلارد.

فالسيدة ويلارد تسكن الآن بكوخ مجاور لمصح ابنها في أديروندااكس.

حدقت في ظهر المرأة بنظرة متفحصة وغاضبة.

(مالخطب يا إيلي؟)

(اعتقدت أنني أعرفها) قلت (سيدة من دار الأيتام بشيكاغو).

طوقني البحار بذراعه مرة أخرى.

(هل يعني هذا أنك عشت حياتك بدون أن تحظي بأم أو أب؟)

(أجل) سقطت من عيني دمعة بدت حقيقة. خلفت وراءها خطاً صغيراً ساخناً مرتسماً على خدي.

(حدثيني، إيلي، لا تبكي، هل كانت هذه المرأة لئيمة معك؟)

(لقد كانت... كانت فظيعة!)

انهالت الدموع من عيني، فطفق البحار يضمني ويمسح دموعي بمدنيل حريري أبيض، يوحي بالنظافة. تحت ظل شجرة دردار أمريكية، فكرت: أي امرأة فظيعة كانت تلك السيدة ذات الرداء البني، وكيف أنها (عرفت ذلك أم لم تعرف) كانت مسؤولة عن اتخاذي لمنعطف خاطىء هنا، وسيري نحو طريق خاطىء هناك، وعن كل الأمور السيئة التي حصلت بعد ذلك.

....

(حسناً، إيستر، كيف تشعرين هذا الأسبوع؟)

أمسك الدكتور جوردن قلمه الرصاص مثل طلقة فضية نحيفة.

(لا جديد).

(لا جديد؟) رفع إحدى حاجبيه، كما لو أنه لم يصدق ذلك.

ولهذا أخبرته مرة أخرى، بذات الصوت الخفيض الرتيب، ولكن بنبرة أكثر حدة هذه المرة - لأنه بدا بطيء الفهم - أنني لم أستطع النوم لأربعة عشرة ليلة متواصلة، وأنني لم أستطع العودة للقراءة أو الكتابة أو تناول الطعام على نحو جيد.

بدا الدكتور جوردن غير متأثر بكلامي.

تفحصت محفظتي وأخرجت منها بقايا الأوراق الممزقة لرسالتي إلى دورين. جمعتها وألقيتها فوق دفتر الدكتور جوردن، الأخضر النظيف، رفرفت بضعة قطع في الهواء إلى أن سكنت في مكانها، مثل بتلات أقحوان بكماء مزروعة على مرج صيفي.

قلت (ما رأيك بهذا؟)

لا بد أن الدكتور جوردن قد لاحظ على الفور كم كان خطي سيئاً، ولكنه اكتفى بالقول: (أعتقد أنني يجب أن أتحدث مع والدتك قليلاً. هل تمانعين ذلك؟)

(كلا) لم تعجبني فكرة أن يتحدث الدكتور جوردن مع أمي ولو قليلاً. فربما سوف يخبرها بضرورة أن تضعني في إحدى المصحات العقلية. التقطت جميع الأوراق الممزقة لرسالتي إلى دورين خشية أن يقوم الدكتور جوردن بجمع اشتاتها لاحقها، فيكتشف أنني كنت أخطط للهروب، ثم خطوت خارج مكتبه من دون أن أنطق بكلمة واحدة.

راقبت أمي، وهي تتناهي في الصغر، حتى تلاشت عبر مدخل بناية المكتب الذي يعمل به الدكتور جوردن، ثم شاهدتها، تزداد حجماً، وهي عائدة إلى سيارتها.

(حسنا؟) أظنها كانت تبكي.

لم تنظر أمي إلي. أدارت محرك السيارة.

ثم قالت، بينما كانت السيارة تنحدر بنا تحت الظلال الكثيفة لأشجار الدردار: (يظن الدكتور جوردن أنك لم تتحسني على الإطلاق، ويعتقد بضرورة أن تخضعي للعلاج بواسطة الصعقة الكهربائية بمستشفاه الخاص في والتن).

شعرت بطعنة فضول حادة، كما لو كنت أقرأ عنواناً مرعباً لمقال في إحدى الصحف، يتحدث عن شخص آخر.

(هل يقصد أن أقيم هناك؟)

(كلا) قالت أمي وذقنها يرتعش.

لا بد أنها كانت تكذب.

(قولي لي الحقيقة) قلت (وإلا لن أتحدث معك مرة أخرى).

(ألا أخبرك الحقيقة دائماً؟) قالت أمي، ثم انفجرت باكية.

إنقاذ منتحر حاول إلقاء نفسه من الطابق السابع!

بعد ساعتين من وقوفه على الحافة الضيقة للطابق السابع فوق موقف سيارات الكونكريت وحشد هائل من الناس، قام الرقيب ويل كلمارتن من شرطة شارع تشارلز، عبر نافذة قريبة، بإقناع السيد جورج بيلوتشي بالعدول عن الإنتحار.

فتحت قشرة حبة فول سوداني كانت بداخل كيس اشتريته بعشر سنتات لإطعام طيور الحمام، أكلتها، بدا طعمها ميتاً، مثل طعم لحاء شجرة معمرة.

قربت عيني من الصحيفة لأنظر عن كثب إلى وجه جورج بيلوتشي، الذي غمرته الأضواء، مثل قمر في طوره الأخير وسط سماء من القرميد الأسود، شعرت أنه يريد أن يخبرني بشيء مهم، ومهما يكن ذلك الشيء، فهو مكتوب على وجهه.

لكن الصخور الملطخة بملامح جورج بلوتشي ذابت حين نظرت إليها، وتحولت إلى نقط سوداء ورمادية، فاتحة وداكنة، منتظمة على نمط واحد.

لم تتحدث الصحيفة المحبرة بالأسود عن السبب الذي جعل السيد ببلوتشي يقف على حافة الطابق، وماذا فعل له الرقيب كلمارتن حتى يقنعه بالدخول معه عبر النافذة.

تكمن معضلة القفز من الأعلى في أنك إذا لم تختر العدد الصحيح من الطوابق، فإنك لن تفقد حياتك عندما ترتطم بالأرض. أظن أن سبعة طوابق كانت مسافة آمنة.

طويت الجريدة وحشرتها بين فراغات مقعد الحديقة الطويل. كانت من النوع الذي تطلع عليه امي اسم (جرائد الفضائح)، تزخر بالجرائم وحوادث الانتحار والضرب والسرقة، وثمة امرأة نصف عارية، في كل صفحة تقريباً، وقد ارتفع نهديها إلى أعلى ثوبها، وأتقنت وضعية سيقان معينة، تجعل من الممكن للمرء أن ينظر إلى ما فوق جوربيها.

لا أعرف لماذا لم أشتر هذا النوع من الجرائد من قبل. كانت هي الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقرأه. كانت الفقرات الصغيرة المكتوبة بين الصور تنتهي قبل أن تحظى الحروف بفرصة للإهتزاز والتمخطر بغرور. كانت صحيفة (كريستاين ساينس مونتير) هي الصحيفة الوحيدة التي أشاهدها في المنزل، كنت أجدها ملقاة عند عتبة باب المنزل في تمام الساعة الخامسة صباحاً من كل يوم، سوى يوم الأحد، كانت الصحيفة تتناول حوادث الانتحار والجرائم الجنسية وتحطم الطائرات، كما لو كانت أموراً مستحيلة الحدوث.

اقتربت من مقعدي بجعة بيضاء تحمل على متنها العديد من الأطفال الصغار، انعطفت نحو جزيرة صغيرة مغطاة بالبط، ثم جدفت عائدة أسفل القوس المعتم للجسر. كان كل شيء نظرت إليه يشع جمالاً، ويتناهى في الصغر إلى أبعد حد. كما لو كنت أنظر من ثقب باب لم أستطع فتحه، رأيتني أنا وأخي الصغير بقامته القصيرة التي تصل إلى مستوى ركبتي، حاملاً بالونات لها آذان كآذان الأرانب، صعدنا على متن قارب يشبه الأوزة. وكافحنا من أجل الجلوس على مقعد في الزاوية التي تطل على المياه المرصوفة بقشر الفول السوداني. كان لفمي طعم منعش بمذاق النعنع، دائماً ما كانت تصحبنا والدتي (عندما نحسن التصرف في عياة طبيب الأسنان) في جولة على متن القارب الذي يشبه الأوزة.

درت حول الحديقة العامة وصعدت فوق الجسر، ثم إلى أسفل النصب التذكارية الزرقاء المخضرة، مارة بالمدخل والعلم الأمريكي المكلل بالزهور، حيث يمكن للمرء أن يحظى بصورة أمام خلفية مخططة بالبرتقالي والأبيض مقابل خمسة وعشرين سنتاً - ورحت أقرأ الأسماء التي حفرت على الأشجار.

كانت شجرتي المفضلة هي (شجرة العالم الباكي)[61]، لابد أن أصولها تعود إلى اليابان. فاليابانيون يعرفون الكثير من الأمور التي تتعلق بالروح.

كانوا يبقرون بطونهم حين تسوء أمورهم.

حاولت تخيل كيف يقومون بذلك. يجب أن يكون لديهم سكين حادة للغاية، كلا، بل سكينتان حادتان، ثم يجلسون القرفصاء، ممسكين بسكين واحدة في كل يد. ثم تشق كل سكين الجهة المعاكسة لهم في بطونهم. يجب أن يكونوا عراة وإلا علقت السكين بثيابهم.

ثم، في ومضة واحدة سريعة، وقبل أن يفكروا في الأمر مرة أخرى، يطعنون بطونهم بالسكاكين على نحو مستدير، طعنة في الشق الهلالي العلوي، وطعنة أخرى في الشق الهلالي السفلي، إلى أن يكملوا دائرة كاملة، ثم يرتخي جلد بطونهم، مثل طبق، فتندلق أحشاؤهم ويموتون.

لا بد أن الموت بهذه الطريقة يتطلب شجاعة لا مثيل لها.

مشكلتي أنني أكره النظر إلى الدم.

خطرت ببالي فكرة البقاء في الحديقة طوال الليل.

في صباح اليوم التالي، كانت دودو كنواي، تقودني بسيارتها مع أمي إلى والتن، وإن كنت سأهرب قبل أن يفوت الأوان، فهذا هو الوقت المناسب. بحثت في محفظتي، فوجدت بها دولاراً واحداً وتسعة وسبعين سنتاً من بين أكوام الخردة والحديد والبنسات.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن تكلفة السفر إلى شيكاغو، ولم أجرؤ على الذهاب إلى البنك لسحب كل نقوجي، فربما قد يكون الدكتور جوردن قد حذر موظف البنك من مجيئي وطلب منه أن يعترض سبيلي إن أقدمت على شيء من ذلك القبيل.

فكرت أن ألوح للسيارت، ولكنني لم أكن أملك فكرة عن الطريق الذي تؤدي إلى شيكاغو. من السهل معرفة الاتجاهات على الخريطة، غير أنني عادة ما أخفق في تحديد الاتجاهات حين أعلق وسط مكان ما. وفي كل مرة حاولت فيها تخمين جهة الشرق من الغرب، يكون الوقت ظهراً، أو يكون الجو ملبداً بالغيوم، فتضيع محاولاتي سدىً، أو يكون الوقت ليلاً، فلا تسعفني معرفتي البسيطة بالنجوم (والتي لا تتعدى معرفة الدب الأكبر وذات الكرسي) في تحديد أي شيء، وهو أمر محبط للغاية بالنسبة إلى بدي ويلارد.

قررت أن أمشي إلى محطة الحافلات، وأسأل عن ثمن تذكرة السفر إلى شيكاغو. وربما قد أذهب بعد ذلك إلى البنك لسحب المبلغ المطلوب بدون زيادة أو نقصان، حتى لا أثير الشكوك من حولي.

كنت قد دخلت للتو عبر البوابة الزجاجية للمحطة، وتفحصت المنشورات الملونة وجدول مواعد الانطلاق، فتنبهت إلى أن بنك مدينتي قد أغلق أبوابه، لأن الوقت قد تعدى منتصف ما بعد

الظهيرة، ولن أستطيع الحصول على أية نقود حتى مجيء اليوم التالي.

كان موعدي بوالتن في الساعة العاشرة.

في تلك اللحظة، عادت الحياة إلى مكبر الصوت، فراح يعلن عن محطات انتظار تستعد للمغادرة إلى موقف الحافلات في الخارج. واصل صوت المكبر إعلانه، بالطريقة التي يقومون بها دائماً، بحيث تلتبس الكلمات وتستعصي على الفهم، ثم سمعت اسماً مألوفاً في غمرة ذلك السكون، واضحاً مثل نغمة بيانو عالية وسط صخب الآلات الإيقاعية التي تعج بها الأوركسترا.

لم يكن يفصل محطة انتظار القطار عن منزلي سوى حارتين.

هرعت إلى الخارج، حيث حرارة الشمس الحارقة والغبار المبشر بنهاية شهر يوليو، وأنا مبللة بالعرق، وذرات الرمل تملأ حلقي، كما لو كنت قد تأخرت عن حضور مقابلة صعبة، وركبت الحافلة الحمراء وسط صوت هدير محركها العالي.

سلمت السائق الأجرة، ثم بصمت بأصابعي المغلفة بالقفاز، وانطبق الباب من خلفي.

(12)

توج المستشفى الخاص بالدكتور جوردن قمة مرتفع عشبي عند نهاية طريق طويل منعزل، أكسبته أصداف البطلينوس[62] المكسورة لوناً أبيضاً. كانت الألواح الخشبية الصفراء التي تعلو المنزل الكبير، بشرفته التي تحيط به من كل جانب، تلمع في الشمس، ولكنني لم أرى شخصاً واحداً يتنزه فوق قبة المرج الخضراء.

وحين اقتربت مع أمي من حرارة الصيف التي هبطت علينا، سمعنا صوت أزيز حشرة الحصاد، مثل جزازة عشب هوائية، في قلب شجرة زان حمراء في الخلف. لم يعمل صوت الأزيز سوى على تأكيد الصمت الهائل.

قابلتنا ممرضة عند الباب.

(هلا تنتظران في غرفة الجلوس، من فضلكما. سيأتي الدكتور جوردن بعد قليل).

ما أزعجني هو أن كل شيء في المنزل بدا طبيعياً، رغم أنني أعلم في قرارة نفسي أنه يعج بالمجانين. لم يكن ثمة قضبان على النوافذ التي استطعنا رؤيتها، ولا أصوات مسعورة أو مزعجة. نظمت أشعة الشمس نفسها في مستطيلات متساوية على السجادات الحمراء الناعة، وفاحت في الهواء رائحة عشب جُز للتو.

وقفت في مدخل حجرة الجلوس.

اعتقدت، لبرهة، أنها نسخة مطابقة لردهة منزل ضيافة زرته مرة في جزيرة بعيدة عن ساحل مين Maine. سمحت الأبواب المصممة حسب النظام الفرنسي لضياء أبيض بالتسلل على

نحو مبهر، واحتل بيانو كبير الركن البعيد من الغرفة، وكانت هناك مجموعة من الناس يرتدون ملابس صيفية ويجلسون على طاولات لعب الورق، فوق كراسٍ متمايلة مصنوعة من الخوص. كتلك التي يجدها المرء عادة على شواطىء المنتجعات الساحلية.

ثم أدركت أن لا أحد منهم يتحرك. حدقت أكثر، محاولة التوصل إلى دليل حي من خلال وضعيات أجسادهم المتصلبة، رأيت رجالاً ونساءً، وصبياناً وفتيات بمثل عمري، لكن وجوههم كانت على هيئة واحدة، كما لو أنهم غطوا في سبات عميق على إحدى الرفوف، بعيداً عن أشعة الشمس، تحت ذرات الغبار الجاف.

ثم رأيت بعض الناس يتحركون فعلاً، ولكن بإيماءات صغيرة لم أميزها في البداية، شبيهة بإيماءات الطيور.

كان هناك رجل يحصي مجموعة من ورق اللعب، واحدة، اثنتان، ثلاثة، أربعة... ظننته يحاول معرفة إن كانت مجموعة ورقه كاملة، غير أنه ما إن انتهى من العد حتى بدأ من جديد. وإلى جانبه، كانت سيدة بدينة تعبث بخيط من الخرز الخشبي. تدخل الخرز، دفعة واحدة، إلى طرف الخيط. ثم تتركها تتساقط فوق بعضها، الواحدة تلو الأخرى.

كانت هناك فتاة تجلس على البيانو، متصفحة أوراق دفتر النوتات الموسيقية، ولما انتبهت إلى أنني أحدق بها، أحنت رأسها على نحو تدريجي، ومزقت الأوراق نصفين.

تمسكت أمي بذراعي، فتبعتها إلى الغرفة.

جلسنا بدون كلام، على أريكة مليئة بالحفر، تصدر صوتاً مزعجاً كلما تحركنا.

ثم تحول نظري إلى الأعلى، نحو بريق أخضر خلف الستائر الشفافة، فشعرت أنني جالسة أمام نافذة عرض متجر ضخم. لم تكن الأشكال التي من حولي بشرية، بل تماثيل لعرض الثياب، تم رسمها على شكل شبيه بالبشر، وفي وضعيات مزورة للحياة.

صعدت إلى الأعلى بينما كان ظهر الدكتور جوردن بسترته الداكنة يسبقني بالصعود.

وأسفل الدرج، في الردهة، حاولت أن أستفسر عن طبيعة العلاج بالصعقة الكهربائية، لكنني حين فتحت فمي فقدت القدرة على الكلام، ولم أقوى إلا على فتح عيني والتحديث في الوجه المألوف والمبتسم أمامي مثل صفحية مليئة بالأمور المطمئنة.

وفي أعلى الدرج، كانت السجادة التي بلون العقيق الأحمر قد انتهت، وحل مكانها مشمع بني عادي، ممتد على طول الرواق، وترتصف على جنباته أبواب بيضاء. وبينما كنت أتبع الدكتور جوردن، انفتح باب من الأبواب، فسمعت صوت امرأة تصرخ.

فجأة، أطلت ممرضة بالقرب من زاوية الرواق المقابل لنا، وهي تقود امرأة في رداء حمام أزرق، ولها شعر أشعث يتدلى حتى خصرها. تراجع الدكتور جوردن إلى الخلف، فيما التصقت بالجدار.

وبينما كانت الممرضة تجر المرأة خلفها، فإذا بها تلوح بذراعيها، محاولة الإفلات من قبضة الممرضة، وهي تقول: (سأقفز من النافذة، سأقفز من النافذة، سأقفز من النافذة).

كانت الممرضة قصيرة وبدينة، وبارزة العضلات، ترتدي زياً ملطخاً من الأمام، وترتدي نظارة سميكة أمام عيون شديدة البياض، فحدقت بي أربعة عيون من خلف العدستين الدائريتين الملتصقتين مثل التوائم. كنت أحاول تمييز العيون الحقيقية من العيون المزيفة، وأي من هذه العيون الحقيقية كانت البيضاء وأي منها كانت السليمة. قربت الممرضة وجهها من وجهي بابتسامة متآمرة كبيرة، ثم همست، كما لو كانت تريد طمأنتي: (تظن أنها ستقفز من النافذة، لكن ذلك مستحيل، فثمة قضبان على جميع النوافذ).

وحين قادني الدكتور جوردن إلى غرفة خاوية في الجانب الخلفي من المنزل، اكتشفت أن النوافذ التي في ذلك المكان كانت بقبضان فعلاً، وأن باب الغرفة وباب الخزانة وأدراج المكتب وكل شيء قابل للفتح والإغلاق كان مجهزاً بقفل محكم الإغلاق لا يمكن فتحه إلا عن طريق مفتاح مخصص له.

تمددت على السرير.

عادت الممرضة ذات العين البيضاء. فكت ساعة يدي ووضعتها في جيبها. ثم راحت تنزع دبابيس الشعر من رأسي.

فتح الدكتور جوردن الخزانة، وسحب طاولة مزودة بالعجلات تعلوها آلة، ثم جرها خلف مقدمة السرير. راحت الممرضة تمسح صدغي بمادة زيتية لها رائحة كريهة.

وحين مالت الممرضة فوق رأسي لتصل إلى الجهة التي يتواجد فيها رأسي قرب الجدار، لف صدرها الممتلىء وجهي مثل غمامة أو وسادة. وفاحت من جلدها المكتوم رائحة طبية غامضة نتنة.

ابتسمت الممرضة (لا تقلقي، كلهم فزعوا في المرة الأولى، إلى حد الموت).

حاولت الابتسام لكن جلدي تيبس مثل البرشمان[63].

وضع الدكتور جوردن صفيحتين معدّنيتين على كل جهة من رأسي، شدها برباط حتى انحنت على جبيني، ثم أعطاني سلكاً معدنياً رفيعاً لأعض عليه.

أغمضت عينيّ.

عم صمت قصير، مثل الأنفاس المحبوسة.

ثم انحنى عليّ شيء وأمسكني ورجني بقوة كأن موعد نهاية العالم قد حان. وبي، يي، ييي، ييي، دوى الصوت بقوة عبر هواء يتفرقع بوميض أزرق، ومع كل ومضة كانت رجة قوية تهزني حتى ظننت أن عظامي سوف تتكسر وينساب الدم مني مثل نبتة مشطورة.

أي شيء مرعب اقترفته في حياتي لأُعاقب بهذا الشيء؟

....

كنت أجلس على كرسي مصنوع من الخوص، حاملة كأساً صغيراً من عصير الطماطم. كانت الساعة قد أعيدت إلى رسغي، لكنها بدت غريبة. ثم أدركت أنها وُضعت بالمقلوب، حتى أنني كنت أشعر بالطريقة الغريبة التي وُضعت فيها الدبابيس على شعري.

(كيف تشعرين؟).

ظهر مصباح أرضي معدني في ذهني، قادم من الماضي، كواحد من الآثار القليلة التي خلفها والدي في مكتبه بعد وفاته، كان المصباح محاطاً بجرس نحاسي يحمل المصباح الذي تدلى منه سلك باهت بلون جلد النمر، يمتد على طول قاعدة معدنية، وموصول بقابس في الجدار.

قررت ذات يوم أن أحرك هذا المصباح من جوار سرير أمي إلى مكتبي في الطرف الآخر من الغرفة. كان سلك المصباح طويلاً بما يكفي، لذا لم أنزعه من القابس. أطبقت كلتا يدي على المصباح والسلك الأجعد، وشددت عليهما بإحكام. ثم لمع وميض أزرق من المصباح وهز جسدي بأكمله حتى اصطكت أسناني. حاولت سحب يديّ، لكنهما كانتا عالقتين، فصرخت، أو أن الصراخ مزق حنجرتي، لأنني لم أتعرف على صوتي، لكنني سمعته يرتفع ويتردد في الهواء مثل روح تحررت بعد عناء من الجسد الذي تلبست به.

ثم تحررت يداي المترعشة، فعدت إلى سرير أمي، كان هناك ثقب صغير أسود - كما لو تم رسمه بقلم رصاص - قد حُفر في منتصف راحة يدي اليمني.

(كيف تشعرين؟)

(بخير)

لكنني لم أكن بخير، كان ينتابني شعور فظيع.

(ما اسم الكلية التي قُلتِ إنك قد درست فيها؟)

أخبرته باسمها.

(آه!) أشرق وجه الدكتور جوردن بابتسامة متراخية، شبه مصطنعة.

(كانت لديهم ثكنة عسكرية تابعة لفيلق النساء خلال الحرب، أليس كذلك؟).

كانت مفاصل أمي بيضاء اللون، كما لو أن الجلد قد انسلخ عنها في ساعة الانتظار. كانت عيناها تنظر مباشرة إلى الدكتور جوردون، ولا بد أنه قد أومأ برأسه، أو ابتسم، لأن وجهها بدا مسترخياً للغاية.

(بضع جلسات أخرى من العلاج بالصعقة، سيدة غرينوود) سمعتُ الدكتور جوردن، (وأظن أنك سوف تلاحظين تحسناً رائعاً).

لم تقم فتاة البيانو من مكانها، وكانت أوراق دفتر النوتات الموسيقية منثورة تحت قديمها مثل طائر ميت. نظرت إليّ، فنظرت إليها، ضاقت عيناها. وأخرجت لسانها من فمها.

كانت أمي تتبع الدكتور جوردن إلى الباب. مشيت ببطء خلفهم، وحين أوليا ظهريهما لي، استدرت نحو فتاة البيانو وقرصت أذنها. فأدخلت لسانها في فمها، وصار وجهها قاسياً مثل الحجر.

خرجت تحت الشمس.

كنت مرقطة بظلال شجرة، مثل نمر، أنتظر السيارة العائلية السوداء لدودو كنواي.

كانت السيارة في الأساس، قد جاءت عن طريق سيدة ثرية من علية القوم أرادتها سوداء بدون ذرة واحدة من الكروم[64]، وأن تكون مقاعدها منجدة بجلد أسود، ولكن عندما وصلت إليها أصابها منظرها بالإحباط. قالت السيدة أنها تبدو مثل عربة نقل الموتى - وقد شاركها الآخرون الرأي - فلم يرغب أحد في شرائها، حتى قادها آل كنواي إلى المنزل بعد أن حصلوا عليها بسعر منخفض، موفرين مائتي دولار.

جلست في المقعد الأمامي، بين دودو وأمي، وأنا أشعر بالكبت وفقدان القدرة على الكلام. وكلما حاولت التركيز، ينزلق ذهني، مثل متزلج محترف في الفضاء العدمي الرحب، ثم يدوم، هناك، إلى الأبد.

(لقد سئمت أفعال الدكتور جوردن) قلت، بعد أن تركنا دودو وسيارتها السوداء خلف أشجار الصنوبر. (يمكنك الاتصال به وإخباره أنني لن آتي في الأسبوع المقبل).

تبسمت أمي (أعلم أن صغيرتي ليست كذلك).

نظرت إليها (مثل ماذا؟)

(مثل أولئك الناس الفظيعين، أولئك الموتى الفظيعين في ذلك المستشفى).

ثم صمتت قليلاً وقالت (علمت أنك ستأخذين قرارك بنفسك حتى تعودي إلى حالتك الطبيعية مرة أخرى).

ستارلت تفارق الحياة بعد غيبوبة استمرت لثمانٍ وستين ساعة

راحت يدي تفتش بين الأوراق الممزقة وقشور الفول السوداني والقطع النقدية وعلبة المكياج والصندوق الأزرق الذي يحتوي على تسع عشرة شفرة حلاقة من ماركة جيليت Gillette، إلى أن أخرجت الصورة الفوتوغرافية التي التقطتها في صباح ذلك اليوم، في الكشك المخطط بالبرتقالي والأبيض.

وضعتها إلى جانب الصورة المعتمة للفتاة الميتة. كانت الصورتان متشابهتين، الفم مثل الفم، والأنف مثل الأنف، لكن الفرق الوحيد كان في العينين. كانت العينان في الصورة الفوتوغرافية مفتوحتين، وفي صورة الجريدة مغمضتين. ولكنني أدركت لو أن أحدهم فتح عيني الفتاة على أقصى اتساع لها، بإبهامي يديه، لنظرتا إليّ بذات التعبير السوداوي الفارغ الذي كان للعينين في الصورة الفوتوغرافية.

أعدت الصورة إلى محفظتي مرة أخرى.

(سأجلس هنا تحت الشمس على مقعد الحديقة لخمس دقائق أخرى قرب الساعة التي على ذلك المبنى هناك) قلت لنفسي، (ثم سأذهب إلى مكان آخر وأقوم بذلك).

استدعيت جوقة الأصوات الصغيرة العالقة في ذهني.

(ألا يعنيك عملك، يا إيستر؟).

(إنك تتمتعين بكامل الخصال التي تؤهلك بأن تصبحي شخصية عصابية بامتياز)

(لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذه الحال، لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذه الحال، لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذه الحال).

في إحدى ليالي صيف الحارة، قضيت ساعة كاملة في تقبيل طالب أشعر، شبيه بالقرد، يدرس القانون بجامعة ييل، لأنني شعرت بالشفقة تجاهه، فقد كان قبيحاً جداً، وحين فرغت، قال:

(لقد عرفت طبيعتك، حبيبتي، سوف تكونين محتشمة في الأربعين).

(مصطنعة!) خربش أستاذ الكتابة الإبداعية على قصة كتبتها بعنوان (عطلة نهاية الأسبوع الكبيرة).

لم أعرف معنى كلمة (مصطنعة) فبحثت عنها في القاموس.

متكلف، زائف، شكلي.

(لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذا الحال).

لم أنم منذ إحدى وعشرين ليلة.

أعتقد أن أجمل شيء في العالم هو الظلال، هناك ملايين الظلال التي تتخذ أشكالاً متحركة أو متضخمة. كانت هناك ظلال في أدراج الخزانة السفلية وفي حقائب السفر، وظلال تحت البيوت وفي الأشجار والحجارة، وظلال خلف عيون الناس وابتساماتهم، وظلال، لأميال وأميال، على الجانب المظلم من الكرة الأرضية.

ألقيت نظرة على الضمادين، كان لهما لون مثل لون جلدي، وشكلا صليباً على ربلة ساقي اليمنى.

في ذلك الصباح، قمت بمحاولتي الأولى.

أوصدت باب الحمام خلفي، وملأت حوض الاستحمام بماء دافيء، ثم أخذت شفرة جيليت للحلاقة.

عندما سألوا أحد الفلاسفة الرومان في قديم الزمان عن الطريقة التي يريد أن يموت فيها، قال إنه سيقطع شرايينه في حوض استحمام دافيء. ظننت أن ذلك سيكون سهلاً، أن أتمدد في حوض الاستحمام، وأنظر إلى لون الزهور الأحمر وهو يتدفق من رسغي وينتشر عبر الماء الصافي، دفعة إثر دفعة، إلى أن أغط في نوم عميق تحت سطح رغوي مثل أزهار الخشخاش.

ولكن عندما حان وقت القيام بذلك، بدا جلد رسغي ناصع البياض، ومستسلماً بدون مقاومة، فلم أتمكن من فعل ذلك. كما لو أن الذي رغبت في قتله لم يكن موجوداً في ذلك الجلد، أو في

الشريان الأزرق الرفيع، الذي كان ينبض تحت إبهامي، بل في مكان آخر، أكثر عمقاً، وأعمق سرية، ويصعب الوصول إليه.

يلزمني القيام بحركتين. حركة في الرسغ الأول، ثم حركة في الرسغ الآخر. ثلاث حركات، لو أخذنا بالحسبان عملية نقل شفرة الحلاقة من يد إلى أخرى، ثم سأهبط إلى الحوض وأتمدد فيه.

تحركت أمام خزانة الأدوية. لو نظرت في المرآة وأنا أفعل ذلك، لكان الأمر شبيهاً بمراقبة شخص آخر. في كتاب أو مسرحية.

لكن الشخص الذي انعكس على المرآة كان مشلولاً وأحمقَ ليقدم على فعل ذلك. ثم فكرت أنني يجب أن أسفك القليل من الدماء في البداية على سبيل التمرين، فجلست على حافة الحوض، ووضعت كاحلي الأيمن فوق ركبتي اليسرى. ثم رفعت يدي اليمنى التي تمسك بشفرة الحلاقة، وتركتها تسقط من تلقاء نفسها، مثلما تفعل المقصلة، على ربلة ساقي.

لم أشعر بشيء، ثم شعرت برعشة قصيرة وعميقة، وتدفق عرق أحمر زاهٍ من أسفل الجرح. تجمع الدم الأسود، مثل ثمار الفاكهة، وانزلق على طول كاحلي إلى داخل حذائي الأسود الجلدي.

فكرت حينها بالنهوض من الحوض، لكنني أدركت أن اللهو الذي كنت أقوم به قد بدد جل وقت النهار، وقد تعود أمي إلى البيت، فتجدني قبل أن أنتهي.

فضمدت الجرح، وأغلقت علبة شفرات الحلاقة، وركبت حافلة في رحلة الساعة الحادية عشرة والثلث، المتوجهة إلى بوسطن.

(آسف يا عزيزتي، إن المترو لا يصل إلى سجن جزيرة الغزلان، لأن السجن يقع على جزيرة).

(كلا، ليس على جزيرة، كان في السابق على جزيرة، ولكنهم ملأوا المياه بالقاذورات، حتى أضحت الجزيرة متصلة باليابسة).

(لا يوجد مترو).

(عليّ أن أذهب إلى هناك).

(اوه) حدق بي الموظف البدين الذي يجلس في كشك التذاكر عبر الحاجز الشبكي (لا تبكي. من لك هناك، يا عزيزتي، قريب ما؟)

كان الناس خلفي يدفعون بي، ويصطدمون بي، في الظلام المضاء بأنوار الكهرباء، بينما كانوا متوجهين نحو القطارات، التي توغلت بالدخول في الأنفاق المتشابكة تحت ساحة سكولاي، كنت أستطيع أن أشعر بالدموع، وهي تنساب من عيني.

(إنه أبي)

تفحص الرجل البدين مخططاً بيانياً على جدار كشكه (يمكنك الوصول إلى هناك إن استقليت سيارة من تلك الطريق إلى المرتفعات الشرقية، ثم تركبين في الحافلة المتجهة إلى بوينت) ثم أشرق وجهه بابتسامة وهو ينظر إليّ (ستوصلك الحافلة إلى بوابة السجن مباشرة)

....

(أنتِ، هناك!) لوح شاب ببزة زرقاء من الكوخ.

لوحت له وواصلت السير.

(أنتِ، هناك!)

توقفت، ثم سرت ببطء نحو الكوخ القابع فوق رمل صحراوي، مثل غرفة معيشة دائرية.

(أنتِ، لا يمكنك الذهاب الى أبعد من ذلك. هذه ممتلكات خاصة بالسجن، لا يسمح لأحد أن يتخطاها)

(كنت أظن أن باستطاعة أي شخص أن يذهب لأي مكان على الشاطىء) قلت (إلى أي مكان لا يتجاوز فيه خط المد).

فكر الشاب قليلاً، ثم قال: (ليس هذا الشاطىء)

كان له وجه حيوي وجذاب.

(لديكم مكان جميل هنا) قلت (يبدو مثل منزل صغير).

نظر إلى داخل الغرفة، بسجادتها المضفرة وستائرها القطنية المزركشة. ثم ابتسم.

(كما لدينا إبريق قهوة)

(اعتدت العيش بالقرب من هنا)

(أنت تمزحين، وأنا ولدت وترعرعت في هذه البلدة أيضاً).

نظرت عبر الرمال إلى موقف السيارات والبوابة المحظورة، ثم إلى ما وراء البوابة المحظورة، إلى الطريق الضيقة التي تحيط بها مياه المحيط من كلتا الجهتين، والتي تؤدي إلى ما كانت تعرف بالجزيرة ذات يوم.

بدت بنايات السجن، ذات القرميد الأحمر، ودودة، مثل بنايات كلية تطل على شاطىء البحر. أستطيع رؤية بقع بيضاء صغيرة، وأخرى وردية أكبر منها، تتحرك فوق رابية المرج الأخضر التي على يساري، سألت الحارس عنها، فقال: (إنها مجموعة من الخنازير والدجاج).

كنت أفكر لو أنني عشت بتلك المدينة البدائية، لكنت التقيت حارس السجن هذا في المدرسة، وتزوجت منه، وأنجبت قبيلة من الأطفال. سيكون جميلاً العيش قرب البحر بصحبة أعداد وافرة من الأطفال والخنازير والدجاج، مرتدية ما كانت تطلق عليها جدتي (ثياب الغسيل)، وأجلس، بذراعين سمينتين، في مطبخ مزين بمشمع لامع، وأحتسي أباريق من القهوة.

(كيف يدخل المرء إلى السجن؟).

(يتوجب عليك الحصول على إذن للدخول).

(كلا، أقصد كيف يعتقل في الداخل؟).

(آه) ضحك الحارس (تسرقين سيارة، تقومين بالسطو على أحد المتاجر..)

(هل يوجد قتلة هناك؟)

(كلا. يذهب القتلة إلى مكان أكبر تابع للدولة)

(من غير ذلك هناك؟)

(حسناً، قدم إلينا من بوسطن، في أوائل الشتاء، مجموعة من المشردين السكارى. كانوا قد ألقوا بحجر من النافذة، فألقي القبض عليهم، ليقضوا الشتاء بعيداً عن البرد، في مكان آمن مزود بالتلفاز والكثير من الطعام ومباريات كرة السلة التي تقام في نهاية كل اسبوع).

(جميل).

(جميل، إن أحببت ذلك). قال الحارس

ودعته وانطلقت في طريقي. لم ألق نظرة من فوق كتفي سوى مرة واحدة. كان الحارس لا يزال واقفاً عند مدخل برج المراقبة، وحينما التفت رفع ذراعه ملوحاً لي.

كان زند الخشب الذي أجلس عليه ثقيلاً تفوح منه رائحة القطران. وكان المرتفع الرملي ينعطف نحو البحر، أسفل الأسطوانة الرمادية الصلبة لبرج الماء الذي يعتلي سفح التل، وحين يكون المد مرتفعاً، تغمر المياه المرتفع بشكل تام.

تذكرت ذلك المرتفع الرملي جيداً. كان يخفي أصداف خاصة في منحناه الداخلي، لا توجد في أي مكان آخر على الشاطىء.

كانت الصدفة سميكة، ملساء، وكبيرة كمفاصل الأصابع. في أغلب الأحيان تكون الصدفة بيضاء، رغم تلونها بالزهري أو القرنفلي الضارب إلى الصفرة أحياناً. كانت في مجملها تشبه المحارة العادية.

(أمي، لا تزال تلك الفتاة جالسة هناك).

رفعت ناظري متكاسلة، فرأيت طفلاً تغطيه الرمال وقد جرته من حافة البحر امرأة نحيلة، لها عيون شبيهة بعيون الطيور، ترتدي سرو الاً أحمر قصيراً وحمالة صدر حمراء منقطة بالأبيض.

لم أتوقع أن أجد الشاطىء مليئاً بهذا الكم الهائل من المصطافين.[65] ففي فترة السنوات العشر التي غبتها، ازدهرت المنطقة بأكواخ فاخرة بألوان زرقاء وقرمزية وخضراء فاتحة على طول الرمال المنبسطة لمتنزه بوينت، مثل محصول فطر عديم الطعم، كما أصبحت هناك طائرات نفاثة

تحلق فوق أسطح المنازل، من المطار حتى الخليج، بدلاً من الطائرات الفضية ومناطيد المراقبة الصغيرة بشكلها الذي يشبه السيجار.

كنت الفتاة الوحيدة على الشاطىء بتنورة وحذاء عالي الكعبين، فخطر ببالي أن أتصرف بكبرياء. ثم خلعت حذائي الجلدي بعد أن غاص في الرمال على نحو مزعج. سرني التفكير منظر الحذاء وهو فوق اللوح الخشبي الفضي، مشيراً إلى البحر، مثل بوصلة الروح، بعد موتي.

تحسست أصابع يدي علبة شفرات الحلاقة التي في محفظتي.

ثم أدركت مدى غبائي. لدي الكثير من شفرات الحلاقة، ولكن بدون حمام دافئ.

فكرت في استئجار غرفة، فمن المؤكد أن هذه المصايف تحتوي على أماكن شاغرة للسكن، ولكنني لم أكن أملك أي أمتعة، مما سيثير الشكوك من حولي، ناهيك عن أن نزلاء الفندق سيرغبون في استخدام الحمام. ولن يكفيني الوقت لأستمتع بحمام دافىء عندما يكون هناك شخص يطرق على باب الحمام بشكل مزعج.

أصدرت النوارس فوق ركائزها الخشبية عند حافة الحانة صوت مواء شبيه بصوت القطط. ثم رفرف بأجنحتها، واحدة تلو الأخرى، بريشها الذي بلون الرماد، محلقة فوق رأسي وهي تصدر صوت صراخ مزعج.

(سيدتي، من الأفضل ألا تجلسي هنا، حتى لا تجرفك مياه المد معها).

جلس الصبي القرفصاء على بعد خطواب مني. التقط حجراً أرجوانياً مدوراً وقذفه إلى المياه. ابتلعت المياه الحجر بوقع رنان. ثم راح يعبث بالرمال، فسمعت صوت الأحجار الجافة، وهي تخشخش مثل قطع النقود.

ثم قذف حجراً مسطحاً فوق سطح الماء الأخضر الباهت، فقفز سبع مرات قبل أن يغيب بعيداً عن الأنظار.

(لم لا تذهب إلى البيت؟) قلت.

قذف الصبي حجراً آخر، أثقل من الذي سبقه، فغرق بعد الوثبة الثانية.

(لا أرغب في ذلك).

(أمك تبحث عنك)

(كلا). بدا قلقاً.

(إن ذهبت إلى البيت، سأعطيك بعض الحلوى).

اقترب الصبي مني (حلوى من أي نوع؟)

كنت أعلم، من دون أن أنظر في محفظتي اليدوية، أن كل ما يوجد فيها هو بقايا لقشور الفول السوداني.

(سأعطيك نقوداً لشراء بعض الحلوى).

(آر... ثر!)

خرجت امرأة من فوق المرتفع الرملي، لا بد أنها كانت تسر في نفسها الكثير من الشتائم، لأنها كانت تحرك شفتيها بين كل نداء متوعد وآخر.

(آر... ثر!)

قامت بتظليل عينيها بيد واحدة، كما لو أن ذلك سوف يساعدها على تمييزنا من خلال كثافة غسق البحر المتزايدة.

لاحظت عدم اكتراث الصبي كلما ازداد صوت أمه بالارتفاع. اشتقت إلى حذائي الأسود الذي على الشاطىء. تراجعت موجة، مثل يد، ثم تقدمت ولامست قدمي.

بدا الماء الذي غمر قدمي قادماً من قاع المحيط، حيث كانت أسماك بيضاء عمياء تتنقل، مستعينة بضوئها الخاص، عبر البرد القطبي القارص. رأيت أسنان أسماك قرش وعظام آذان حيتان منثورة، على طول الشاطىء، كشواهد قبور.

انتظرت، كما لو أن البحر سيقرر نيابة عني.

تداعت موجة ثانية فوق قدمي، كما لو كانت تلعقها بزبدها الأبيض، فاستحوذ البرد على قدمي وشعرت بألم مميت.

ارتجف جسدي بالخوف من مجرد تخيل الموت بهذه الطريقة.

التقطت حقيبتي وحدقت في الحجارة الباردة التي كان يسهر عليها حذائي في الضوء البنفسجي.

(13)

(من المؤكد أن أمه قد قتلته).

نظرت إلى فم الشاب الذي أرادت جودي أن ألتقي به. كانت لديه شفتان سميكتان باللون الوردي الزاهي. ووجه طفولي مصور أسفل شعر حريري أشقر يميل إلى اللون الأبيض. كان اسمه (كال)، ظننت أنه لا بد أن يكون اختصاراً لشيء ما، لكنني لم أستطع التفكير في ما يرمز إليه، إلا إذا كان إشارة إلى كاليفورنيا.

(كيف تأكدت من أنها قد قتلته؟) قلت

كان من المفترض بكال أن يكون في غاية الذكاء، فقد أخبرتني جودي على الهاتف أنه شاب لطيف وسيحوز على إعجابي. ثم تساءلت إن كنت سأعجب به لو قابلته بشخصيتي القديمة. يصعب عليّ الإجابة على ذلك.

(حسناً، في البداية قالت لا لا لا، ثم قالت نعم).

(لكنها قالت لا لا مرة أخرى).

استلقينا ـ أنا وكال ـ جنباً إلى جنب، على منشفة مخططة برتقالية مخططة بالأخضر، على شاطىء موحل يقع في الجانب الآخر من المستنقعات الممتدة من مدينة (لين Lynn). كانت جودي ومارك (الشاب الذي كانت ملتصقة به) يسبحان في البحر. لم يرغب كال في السباحة، بل رغب بالتحدث، فتجادلنا حول المسرحية التي يكتشف فيها شاب أنه مصاب بمرض في الدماغ نتيجة عبث

والده مع بنات الهوى، وفي النهاية ينهار دماغه بشكل كامل، بعد مراحل طويلة من الضعف التدريجي. فتتساءل أمه إن كان يجب عليها أن تقتله أم لا.

كان لدي شك في أن والدتي قد اتصلت على جودي وتوسلت إليها أن تطلب مني الخروج معها. حتى لا أجلس طوال اليوم في غرفتي، والستائر مسدلة. لم أرغب في الخروج بالبداية. لأنني اعتقدت أن جودي ستلاحظ التغيير الذي حدث لي. وأن أي أحد لديه نصف عين سيلاحظ عدم وجود عقل في رأسي.

ولكن طوال رحلة ذهابنا في السيارة شمالاً وجنوباً، لم تتوقف جودي عن الضحك والمزاح والثرثرة بدون أن تكترث بردود أفعالي التي اقتصرت على: (رباه!) أو (مستحيل!) أو (غير ممكن!).

شوينا قطع السجق على الشوايات العمومية الموجودة على الشاطىء. تمكنت - بعد مراقبة جودي ومارك وكال بانتباه شديد - من شواء قطعتي بالوقت المناسب بدون أن أحرقها أو أسقطها في النار مثلما خفت أن أفعل، وعندما تأكدت أن لا أحد ينظر إلي، دفنت قطعة السجق في الرمال.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أمسكت جودي يد مارك وانطلقا جرياً نحو المياه. استلقيت على ظهري، وتأملت في السماء، بينما واصل كال حديثه عن تلك المسرحية.

السبب الوحيد الذي جعلني أتذكر هذه المسرحية هو أنها كانت تحتوي على شخص مجنون، فكل شي قرأته في حياتي عن المجانين علق في ذهني، بينما تلاشت الأشياء الأخرى إلى الضياع.

(لكن كلمة نعم هي التي تهم) قال كال (سوف تقول نعم بالنهاية).

رفعت رأسي وحدقت بعينين نصف مغمضتين في صفحة البحر الزرقاء الزاهية، كانت لها حواف داكنة، كما كانت هناك صخرة رمادية كبيرة على شكل دائري، مثل النصف العلوي للبيضة، تظهر من وسط الماء على مسافة ميل من الأرض المطلة على البحر.

(بماذا كانت ستقتله؟ لقد نسيت).

لم أنس. كنت أتذكر جيداً، لكنني أردت أن أسمع ما سيقوله كال.

(مسحوق المورفين).

(هل تظن أن مسحوق المورفين يباع في أمريكا؟)

فكر لدقيقة ثم قال: (لا أظن ذلك. الأمريكون قديمو الطراز على نحو مأساوي).

تكورت على بطني وحدقت بعينين نصف مغمضتين نحو الاتجاه الآخر، صوب (لين). كانت هناك غيمة باهتة تموج من نار الشوايات وحر الطريق. ومن خلال الغيمة، كان باستطاعتي النظر إلى صورة مجسدة من الظل والضباب لصهاريج الغاز ومداخن المصانع والرافعات والجسور. كما لو كنت أنظر من وراء ستار من الماء الزلال.

بدت الصورة مزيجاً من الفوضى العارمة.

تمددت مرة أخرى، ثم قلت بطريقة عفوية (لو أردت أن تقتل نفسك في يوم من الأيام، كيف ستفعل ذلك؟)

بدا كال مسروراً. (كثيراً ما كنت أتخيل ذلك، سأفجر رأسي بواسطة مسدس).

شعرت بخيبة الأمل، بدت هذه هي الطريقة المثالية للموت بالنسبة إلى الرجال. ولكن كيف لي أن أحظى بفرصة الحصول على مسدس؟ حتى وإن فعلت، فلن أعرف على أي جزء من جسدي سأطلق النار.

كنت قد قرأت مقالاً في إحدى الجرائد عن أناس حاولوا إطلاق النار على أنفسهم، لكن النتيجة آلت إلى أنهم قد أطلقوا النار على عصب مهم في جسدهم، فأصابهم الشلل، أو فجروا وجوههم، ولولا تدخل الجراحين، أو حدوث معجزة ما، لنزل بهم الموت الأكيد.

بدت مخاطر المسدس وخيمة.

(أي نوع من المسدسات؟)

(بندقية الصيد الخاصة بأبي. فهو يبقيها محشوة. ليس عليّ سوى أن أدخل إلى مكتبه ذات يوم) ثم صوب كال إصبعه نحو جمجمته، عاقداً ما بين حاجبيه على نحو هزلي. (طاخ!) ثم جحظ بعينيه الرمادية الشاحبة، ناظراً إليّ.

(هل يعيش والدك بالقرب من بوسطن) سألته بدون سبب.

(كلا. إنه يقطن بقرية كلاكتون الساحلية في بريطانيا، إنه إنجليزيّ).

ركضت جودي ومارك، يداً بيد، ينفضان عنهما الماء المتقاطر مثل جراء واقعة في الحب. اعتقدت أنه سيكون هنالك الكثير من الناس، فوقفت وتظاهرت بالنعاس.

(أعقد أنني سوف أسبح).

بدأ وجودي مع جودي ومارك وكال يرهق أعصابي، مثل قطعة خشبية ثقيلة فوق مفاتيح البيانو. خفت من أن أفقد السيطرة على نفسي في أية لحظة، فأشرع بالهذيان والحديث عن عجزي عن القراءة والكتابة، وأنه من المؤكد أنني الوحيدة التي بقيت مستيقظة لمدة شهر كامل من دون أن تسقط ميتة من التعب.

بدا أن دخاناً يتصاعد من أعصابي مثل الدخان المتصاعد من الشوايات والطريق الملفوحة بالشمس. اهتز المنظر الطبيعي بأكمله - الشاطىء والأرض البارزة فوق الماء والبحر والصخرة - أمام عيني، مثل الستارة الخلفية للمشهد المسرحي.

تساءلت عند أية نقطة في الفضاء استحال اللون الأزرق السخيف للسماء إلى لون أسود زائف.

(لا بد أن تسبح يا كال).

دفعت جودي كال بيديها على نحو لعوب.

(أوووه) غطى كال وجهه بالمنشفة. (إن الماء بارد جداً).

بدأت بالسير نحو الماء.

كان الماء يبدو تحت شمس الظهيرة سمحاً وعذب الترحيب.

لابد أن الغرق أرحم طريقة للموت، وأن الحرق هو الطريقة الأسوأ. قال بدي أن الأجنة التي كانت محفوظة في الجرار التي أراني إياها كانت تمتلك خياشيماً، كدليل على أنها مرت بمرحلة

كانت تشبه فيها الأسماك تماماً.

طوت قدمي موجة محملة بالأوساخ ولفافات قطع الحلوى وقشر البرتقال والطحالب.

سمعت صوت حركات مكتومة في الرمل خلفي، فنهض كال.

(لنسبح إلى تلك الصخرة هناك) أشرت إليها بإصبعي.

(هل أنت مجنونة؟ إنها تبعد ميلاً).

(وماذا تكون أنت؟) قلت (جبان؟)

شدني كال من مرفقي ودفعني نحو الماء. وحين ارتفع منسوب الماء إلى منتصفنا، دفعني إلى الأسفل. نهضت وأنا اَضرب الماء بيدي وملح البحر يحرق عيني. كان لون الماء أخضر في الأسفل، ونصف معتم بالكامل، كقطعة كبيرة من الكوارتز.

رحت أسبح بطريقة مغايرة شبيهة بطريقة (السباحة الكلبية[66])، ووجهي مقابل لسطح الصخرة. كان كال يتقدم ببطء. ثم رفع رأسه من تحت الماء لاهثاً بقوة (لا أستطيع القيام بذلك).

(حسناً. عد إلى الشاطىء).

اعتقدت أنني سأستمر بالسباحة حتى يهدني التعب، فلا أقوى على العودة إلى الشاطىء. وكلما تقدمت، تصاعد صوت نبضات قلبي، كمحرك مزعج يطن في أذني.

أنا أنا أنا.

في صباح ذلك اليوم حاولت شنق نفسي.

أخذت الحبل الحريري لرداء الاستحمام الأصفر الخاص بأمي فور مغادرتها إلى العمل، وتحت الظل الكهرماني لغرفة النوم، عقدت الحبل بطريقة يمكن للعقدة فيها أن تنزلق للأعلى وللأسفل، استغرقت وقتاً طويلاً للقيام بذلك، فأنا لا أجيد ربط العقد، وليس لدي أدنى فكرة عن كيفية صنع عقدة مناسبة.

ثم بحثت عن مكان لتعليق الحبل.

كانت المشكلة أن سقف منزلنا مصنوع بطريقة غير مجدية. كانت أسقف الغرف منخفضة العلو، بيضاء ومكسوة بجص أملس، من دون عوارض خشبية أو مكان لتعليق المصابيح. غمرني حنين إلى المنزل الذي كانت تملكه جدتي قبل أن تبيعه لتعيش معنا، لتستقر بعد ذلك في منزل خالتي (ليبي).

كان منزل جدتي مصمماً على نمط منازل القرن التاسع عشر. بغرف مرتفعة الأسقف، وحاملات ثريات متقنة الصنع وخزانات عالية تتخللها قضبان متينة وعالية لم يصل إليها أحد قط، وكانت الغرف مليئة بصناديق الثياب وأقفاص الببغاوات وتماثيل عرض الملابس، ويغطي الأسقف ديكور هندسي مصنوع من الخشب السميك يشبه أضلع السفينة.

ولكنه كان منزلاً قديماً، فعرضته جدتي للبيع، لم أعرف شخصاً في حياتي يملك منزلاً شبيهاً به.

وبعد وقت مخيب للآمال قضيته بالبحث عن مكان أعلق به الحبل الحريري، الذي تدلى من رقبتي كذنب قطة صفراء، جلست على حافة سرير أمي، محاولة شد الحبل بقوة.

ولكن في كل مرة حاولت فيها شد الحبل، كنت أشعر بحركة سريعة في أذني وبتدفق الدم في وجهي، ثم تضعف يداي وأترك الحبل، فأعود إلى طبيعتي مرة أخرى.

عرفت وقتها أن جسدي يمتلك كل أنواع الحيل الصغيرة، كجعل يدي ترتخيان في اللحظة الحاسمة، فينقذ نفسه من الموت كل مرة، ولو كان الأمر بيدي لكنت ميتة في أي لحظة من الآن.

كان عليّ أن أنصب كميناً له باستخدام جميع الحواس التي تبقت لدي، وإلا سوف يحبسني في داخل قفصه السخيف لخمسين سنة أخرى بدون داع، وحين يكتشف الناس أنني قد فقدت عقلي، كما سيفعلون عاجلاً أم آجلاً، حتى وإن حاولت أمي التكتم على ذلك، فإنهم سيحاولون إقناعها بوضعي في مصحة نفسي إلى أن أتماثل للشفاء.

لكن حالتي كانت غير قابلة للشفاء.

ابتعت بضعة كتب ورقية الغلاف حول علم النفس من متجر لبيع الأدوية، وقارنت بين الأعراض التي أعاني منها وتلك التي ذكرها الكتاب، الشيء الذي توصلت إليه على نحو مؤكد، هو

أنني أعاني مما يعاني منه أكثر أصحاب الحالات الميئوس منها.

كانت تلك الكتب بالإضافة إلى جرائد الفضائح، الشيء الوحيد الذي أستطيع قراءته. بدا الأمر كما لو أن فتحة صغيرة قد تُركت مفتوحة حتى أعرف كل ما أحتاج إلى معرفته حول حالتي، لأنهيها على الوجه الصحيح.

تساءلت، بعد إخفاقي التام في شنق نفسي، إن كان يجب عليّ أن أستسلم وأعرض نفسي على الأطباء، ثم تذكرت الدكتور جوردن وآلة الصعق الخاصة التي يمتلكها. فإذا حُبست هناك فسوف أخضع للعلاج بتلك الآلة، ليلاً ونهاراً.

كما فكرت بأمي وأخي وأصدقائي، وكيف أنهم سيقومون بزيارتي، يوماً بعد يوماً، على أمل أن أتماثل للشفاء. ثم ستخف زياراتهم، ويفقدون الأمل من شفائي. سيكبرون، وسأكبر انا، وأصبح في طي النسيان. ويصبحون فقراء. ففي بادىء الأمر سيرغبون في أن أحظى بأفضل علاج ممكن، فينفقون كل مالديهم من نقود على علاجي في مستشفى خاص، كمستشفى الدكتور غوردن. ثم سيتم تحويلي، بعد أن تنفد نقودهم، إلى مستشفى حكومي، فأوضع بجوار المئات من المرضى الذي يشاركونني نفس الأغراض، في قفص كبير تحت الأرض. كلما كانت حالتك ميئوساً منها في ذلك المكان، كلما ازداد إخفائهم لوجودك.

استدار كال ليسبح عائداً إلى الشاطىء.

راقبته وهو يسحب أنفاسه ببطء وسط مياه البحر التي كادت أن تصل إلى عنقه. ثم انشطر جسده في لحظة واحدة خلف الرمال المخضرة وأمواج الساحل، وانقسم إلى جزءين، مثل دودة بيضاء. ثم سقطت الدودة على بطنها خارج الإطار الأخضر، لتصل إلى الجزء الأفتح إخضراراً، ثم اختفت ضمن عشرات من الديدان الأخرى التي كانت تتلوى، أو ربما تتدلى بين المسافة الفاصلة بين البحر والسماء.

قدمت بتجديف يدي في المياه والركل بقدمي، لم تكن الصخرة التي تشبه البيضة قريبة منا كما كانت تبدو عندما شاهدتها أنا وكال من على الشاطىء.

ثم أدركت أن السباحة نحو تلك الصخرة أمر غير مجدٍ، لأن جسدي سيتحايل علي كي يصعد فوق الصخرة ليتمدد تحت الشمس، ثم سيستعيد قواه ليعود إلى الشاطىء مرة أخرى.

كان الشيء الوحيد الذي أستطيع القيام به هو أن أغرق على الفور في مكاني، فتوقفت عن السباحة.

رفعت يدي إلى صدري، وغاص رأسي في الماء، كنت أزيح الماء بيدي عن جانبي، فقد كان ضغط الماء شديداً على طبلة أذني وعلى قلبي. كنت أدفع بنفسي نحو الأسفل، غير أن الماء - قبل أن أدرك مكاني - كان قد ألقى بي إلى الشمس، فأشرق العالم من حولي كحجارة شبه نفيسة، حجارة زرقاء وخضراء وصفراء.

دفعت الماء عن عيني.

كنت ألهث، كما لو أنني بذلت جهداً شاقاً، مع أنني كنت أطفو من دون أي جهد مني. غطست ثم غطست، لكنني كنت أطفو، في كل مرة، مثل قطعة من الفلين.

كان الصخرة الرمادية تهزأ بي وهي تشاهدني وأنا أطفو بسهولة فوق الماء، مثل قارب نجاة.

أعرف طعم الهزيمة جيداً كلما شعرت باقترابها مني.

التفت إلى الوراء.

أومأت الأزهار مثل وجوه أطفال ذكية ومشرقة بينما كنت أدفع بها نحو الممر.

شعرت بالسخافة وأنا أرتدي زي المتطوعين الأخضر، كان وجودي فائضاً عن الحاجة. وأنني كنت مختلفة عن الممرضات والأطباء الذين كانوا يرتدون زياً أبيضاً، والخادمات اللواتي كن يردتين زياً بنياً ويمررن على غرفتي حاملات مماسح ودلاء مملوءة بالمياه المتسخة، من دون أن ينطقن بأية كلمة.

لو تقاضيت أجراً، حتى ولو كان قليلاً، لاعتبرت ما أقوم به عملاً لائقاً، غير أن كل ما كنت أحصل عليه مقابل توزيع المجلات والحلوى والورود طيلة الصباح هو وجبة غداء مجانية.

تقول أمي بأنك إن أردت أن تتعالج من التفكير الزائد في نفسك، فعليك أن تساعد شخصاً يعاني أكثر منك، لذلك قامت تيريزا بعمل الترتيبات اللازمة لأعمل كمتطوعة في المستشفى المحلي. من الصعب أن يكون الإنسان متطوعاً، وفي هذا المستشفى على وجه خاص. فمثل هذا العمل لا يرغب بالقيام به سوى النساء الملتحقات بجمعية (المبتدئين الصغار[67])، لكنني كنت محظوظة إذ كانت أكثر المتطوعات في إجازة.

كنت أتمنى أن يرسلوني إلى جناح يضم بعض الحالات المستعصية الحقيقية، حالات تعرف من خلال وجهي الصامت والمخدر كم أتمنى لها الخير، فتشعر بالامتنان نحوي. غير أن رئيسة المتطوعات، وهي سيدة مجتمع بكنيستنا، نظرت إليّ نظرة واحدة وقالت: (أنت في قسم الولادة).

وهكذا، ركبت المصعد إلى قسم الولادة الذي يوجد في الطابق الثالث، وسجلت حضوري عند رئيسة الممرضات. أعطتني بدورها عربة ورود. كانت مهمتي أن أضع المزهريات المناسبة عند الأسرة المناسبة في الغرف المناسبة.

لاحظت، قبل وصولي إلى باب الغرفة الأولى، وجود الكثير من الورد الذابل في المزهريات، كانت حوافه داكنة، فاعتقدت أنه سيكون محبطاً بالنسبة إلى امرأة وضعت مولودها للتو، أن ترى شخصاً يضع إلى جانبها باقة كبيرة من الورود الميتة. فتوجهت بالعربة نحو مغسلة في إحدى الردهات المظللة في القاعة، ونزعت جميع الورود الميتة.

ثم نزعت جميع الورود التي كانت على وشك الذبول.

لم أجد أي سلة للنفايات حولي. فجمعت الورد ثم وضعته في حوض أبيض عميق. كان الحوض بارداً كالقبر. ابتسمت. لا بد أنهم يضعون الموتى بهذه الطريقة في مشرحة المستشفى.

كانت حركتي الصغيرة صدىً للحركة الكبيرة التي يقوم بها الأطباء والممرضات.

فتحت باب الغرفة الأولى. وأنا أدفع بالعربة، ثم دخلت، نهضت ممرضتان من مكانهما، ثم انتابني شعور قلق إزاء الرفوف وخزائن الأدوية.

(ماذا تريدين؟) سألت إحدى الممرضات بغضب. لم أستطع التمييز بينهما، فقد كانتا تشبهان بعضهما تماماً.

(إني أوزع الورود).

وضعت الممرضة التي كانت تحدثني إحدى يديها على كتفي، ثم اقتادتني إلى خارج الغرفة وهي تجر العربة بيدها الخبيرة الأخرى. فتحت باب الغرفة المجاورة ودفعت بي إلى الداخل ثم اختفت.

كان يمكنني سماع صوت الضحكات التي كانت تعلو في الخارج حتى انطبق الباب وتلاشت تماماً.

كانت هناك ستة أسرة في تلك الغرفة، وفوق كل سرير امرأة تحيك الثياب، أو تقلب صفحات المجلات، أو تضع مجعدات الشعر على رأسها، ويثرثرن جميعاً مثل ببغاوات في قفص كبير.

كنت أعتقد أنني سأجدهن نائمات، أو مستلقيات في هدوء وشحوب، فأمشي على رؤوس أصابع قدمي حتى لا أسبب الإزعاج، ثم أقارن أرقام الأسرة مع الأرقام المكتوبة على الشريط اللاصق لكل مزهرية. ولكن، وقبل أن أتهيأ للمهمة، أومأت إليّ امرأة شقراء ذات وجه مثلث مشرق، وحاد التفاصيل.

اقتربت منها، بعد أن تركت العربة في وسط الغرفة، لكنها تحركت بطريقة تدل على نفاذ صبرها، فاستنتجت أنها تريديني أن أجر العربة معي.

دفعت العربة إلى جانب سريرها وارتسمت على وجهي ابتسامة مرحبة في مساعدتها.

(أنتِ، أين أزهار العائق[68] الخاصة بي؟) نظرت إلى امرأة ضخمة مترهلة الجسد من الجهة الأخرى للغرفة بنظرات صارمة.

انحنت المرأة الشقراء ذات الوجه الحاد على العربة (ها هي أزهاري الصفراء) قالت (لكنها اختلطت ببعض أزهار السوسن المتسخة).

انضمت أصوات أخرى إلى صوت المرأتين، بدت أصواتهن عالية وغاضبة ومتذمرة. وحين هممت بفتح فمي لأفسر لهن أني قد ألقيت مجموعة من أزهار العائق الذابلة في المغسلة،

ومزجت أزهاراً مع أزهارٍ أخرى نظراً لتقلص عدد الأزهار في المزهريات بعد أن تخلصت من الذابل منها - انفتح الباب ودخلت إحدى الممرضات.

(اسمعي أيتها الممرضة، لقد جلبتُ باقة كبيرة من أزهار العائق من محل لاري ليلة أمس).

(لقد تخلصت من أزهاري الصفراء).

فككت أزرار ردائي الأخضر وأنا أركض، ثم حشرتها مسرعة في المغسلة التي كانت متسخة ببقايا الأزهار الميتة. ثم توجهت نحو السلالم المنزوية على جانب الطابق، والتي تفضي نحو الشارع مباشرة، فأسرعت بالهبوط درجتين بعد درجتين، من دون أن أصادف أحداً في طريقي.

(أي الطرق تؤدي إلى المقبرة؟)

توقف رجل إيطالي يرتدي سترة جلدية سوداء، وأشار إلى زقاق يقع خلف الكنيسة الميثودية البيضاء[69]. تذكرت أيام الكنيسة الميثودية. فقد كنت من أتباعها في أول تسع سنين من حياتي، قبل أن يموت والدي ونتحول إلى كنيسة الموحدين.

كانت أمي كاثوليكية قبل أن تصبح ميثودية. لكن خالتي وجدتي وجدي بقو على الكاثوليكية، صحيح أن خالتي تحولت عن الكنسية الكاثوليكية في الوقت نفسه مع أمي، لكنها وقعت في الحب مع رجل إيطالي كاثوليكي بعد ذلك، فعادت إلى الكنيسة الكاثوليكية مرة أخرى.

فكرت في الآونة الأخير أن ألتحق بالكنيسة الكاثوليكية أنا الأخرى. كنت أعلم أن الكاثوليكين يعتبرون قتل المرء لنفسه خطيئة مروعة. فإذا كان الأمر كذلك، فقد تكون لديهم طريقة جيدة لإقناعي بالعدول عن الإنتحار.

بالطبع، لم أكن أؤمن بالحياة بعد الموت، ولا بولادة العذراء، ولا بمحاكم التفتيش أو بعصمة ذلك البابا الذي له وجه صغير شبيه بوجه القرد، لم أكن أؤمن بأي شيء، ولكن ليس عليّ أن أدع القسيس يلاحظ ذلك، سأركز على خطيئتي فقط، وسيركز هو على مساعدتي في التكفير عن ذنبي.

كانت المشكلة الوحيدة هي أن الكنيسة (بما في ذلك الكنيسة الكاثوليكية) لا تشغل حياة الإنسان بكل تفاصيلها، فبغض النظر عن عدد الصلوات والركعات التي يتعبد بها، فلابد أن يعود إلى

منزله ويتناول ثلاث وجبات في اليوم، ويذهب إلى عمله، ويضطر إلى العيش في مواجهة هذا العالم.

فكرت بالوقت الذي يجب عليّ أن أمضيه في الكاثوليكية إلى أن أصبح راهبة، فسألت أمي، معتقدة أنها تعرف أفضل السبل إلى ذلك.

ضحكت أمي عندما أخبرتها (هل تعتقدين أنهم سيقبلون بفتاة بمثل ذكائك؟ هكذا بدون مقدمات؟ ينبغي عليك، أولاً، الإلمام بكل الشعائر والعقائد والإيمان بها، وبكل تفاصيلها المملة).

ومع ذلك، تخيلت أنني سأذهب إلى كاهن في بوسطن - لا بد أن يكون في بوسطن، فلا أريد أن يعرف أي كاهن في مدينتي أنني أفكر في الإنتحار، فالكهنة يثرثرون كثيراً

سأرتدي السواد، مع وجهي الأبيض كالموتى، ثم سألقي بنفسي عند قدمي هذا الكاهن، وأقول له: (آه يا أبت، ساعدني).

لكن هذه التخيلات كانت قبل أن يبدأ الناس بالنظر إليّ بطريقة ساخرة، مثلما فعلت تلك الممرضات في المستشفى.

كنت واثقة من أن الكاثوليك لن يرحبوا بأي راهبة مجنونة. فقد حكا لي زوج خالتي الإيطالي ذات مرة عن قصة ساخرة لراهبة أرسلها الدير إلى تيريزا لتقوم بفحصها. كانت هذه الراهبة تسمع في أذنيها ألحان قيثارة وصوت شخص يردد مراراً وتكراراً: (هللويا!)[70] ولكن عندما تم استجوابها بشكل مباشر لم تكن الراهبة متأكدة تماماً ما إذا كان الصوت يقول (هللويا) أو (أريزونيا [71]) التي هي مسقط رأسها، أظن أن الأمر قد انتهى بتلك الراهبة في إحدى المصحات النفسية.

قمت بسحب وشاحي الأسود إلى ذقني واندفعت عبر بوابات الحديد المطاوع. اعتقدت أنه من الغريب أننا لم نزر أبي منذ أن دفن في تلك المقبرة. فوالدتي لم تسمح لنا بالحضور إلى جنازته لأننا كنا أطفالاً وقتها، كما أن والدي فارق الحياة وهو في المستشفى بدون أن نراه، لذلك اعتبرت دائماً أن قبر والدي وموته أمراً غير حقيقي على الإطلاق.

كنت أشعر بتوق كبير، مؤخراً، لأعوض والدي عن كل سنوات الإهمال التي مرت به، وأن أبدأ في رعاية قبره. كنت دائمًا الطفلة المفضلة لدى والدي، لذلك سيكون من المناسب أن أقوم

بمراسم الحداد التي لم تتجشم أمي عناء القيام بها.

لو لم يفارق أبي الحياة، لعلمني كل أمر يتعلق بالحشرات، فقد كان ذلك هو مجال اختصاصه الجامعي. وكان سيعلمني الألمانية واليونانية واللاتينية التي كان يتقنها أيضاً، وربما كنت سأصبح لوثرية[72]. فقد كان أبي لوثرياً في الوقت الذي أقام به في وسكنسن Wisconsin، لكن اللوثرية بدت مذهباً قديم الطراز في نيو إنغلاند New England، فارتد عنها والدي، ليصبح ملحداً، مثلما قالت أمي.

أصابتني المقبرة بالإحباط. فقد كانت تقع على مشارف المدينة، فوق أرض منخفضة تشبه مكب النفايات، وبينما كنت أمشي على الممرات المفروشة بالحصى، ذهاباً وإياباً، استطعت أن أشتم رائحة المستنقعات الملحية الراكدة وهي تفوح عبر الهواء المحيط بي.

كان الجزء القديم من المقبرة، مليئاً بالحجارة المسطحة المتآكلة ونصب القبور التي تغطيها الفطريات على نحو جيد. لكنني سرعان ما أدركت أن أبي يلزم أن يكون قد دفن في الجزء الحديث من المقبرة، والذي يعود إلى أربعينيات القرن الماضي.

كانت الحجارة التي تملأ أرضية الجزء الحديث بسيطة ورخيصة النوع، وكان الرخام يحف قبراً هنا، وآخر هناك، مثل حوض استحمام مستطيل مليء بالوحل، كما كانت هناك صناديق معدنية صدئة مليئة بالورود البلاستيكية، فوق الموضع الذي يفترض أن توجد فيه سرّة الميت.

ثم بدأت السماء الرمادية تقطر رذاذاً، فزادت كآبتي.

لم أجد أبي في أي مكان.

مرت سحابة منخفضة وثقيلة فوق ذلك الأفق المحيط بالبحر. خلف المستنقعات ومستوطنات أكواخ الشاطىء، فسودت قطرات المطر معطفي الشتوي الذي اشتريته في ذلك الصباح. تسربت رطوبة باردة عبر جلدي.

كنت قد سألت البائعة يومها: (هل المعطف مضاد للماء؟).

فقالت: (لا يوجد معطف شتوي يمنع وصول الماء تماماً، ولكنه مضاد لزخات المطر). وحين سألتها ما معنى (مضاد لزخات المطر) نصحتني بشراء مظلة. لكنني لم أكن أملك المال الكافي لشراء مظلة. فبعد أن دفعت ثمن تذكرة الحافلة للسفر إلى بوسطن، ذهاباً وعودة، واشتريت الكثير من الفول السوداني والكثير من الصحف وكتيبات حول أمراض علم النفس، وتذاكر سفر بحري إلى مسقط رأسي، كان المال الذي ادخرته في نيويورك قد شارف على النفاذ.

قررت القيام بكل ذلك حتى لا يبقى أي مال في حسابي البنكي، وبشرائي للمعطف الشتوي انتهى كل ما أملكه من المال.

ثم رأيت شاهد قبر أبي.

كان يزاحمه في المكان شاهد قبر آخر، الرأس مجاور للرأس، مثلما تزدحم دور الرعاية بالناس، فلا يبقى هناك أي متسع لهم.

كان شاهد القبر مصنوعاً من الرخام الوردي المنقط، مثل سمكة سلمون معلبة، ولم يكن عليها سوى اسم والدي، وتاريخين في أسفلها، تفصل بينهما شرطة صغيرة.

عند أسفل الشاهد، رتبت أزهار الأزالية المبللة بالمطر، تلك التي قطفتها من الشجرة المزروعة عند بوابة المقبرة. ثم انثنت قدماي تحتي، فجلست فوق العشب المبتل. لا أعرف لماذا بكيت وقتها بشدة.

ثم تذكرت أنني لم أبك يوم مات أبي.

ولم تبك أمي أيضاً. تبسمت، وقالت إن الموت رحمة له، فلو عاش لقضى حياته مريضاً وعاجزاً عن الحركة، وما كان ليحتمل ذلك، سيتمنى الموت على أن يعيش تلك الحياة.

وضعت وجهي على سطح الرخام الأملس، وندبت خسارتي تحت زخات المطر البارد المالح.

كنت أعرف كيف أقوم بذلك.

حين تحركت عجلات سيارة أمي على الممشى، وتلاشى صوت المحرك، نهضت من سريري وهرعت نحو بلوزتي البيضاء وتنورتي المجعدة الخضراء ومعطفي الشتوي الأسود. لا يزال المعطف رطباً من مطر البارحة، لكن ذلك سوف يفقد أهميته مع مرور الوقت.

هبطت السلالم إلى الطابق السفليّ، والتقطت مظروفاً أزرق شاحباً من طاولة غرفة الطعام، ثم خربشت جاهدة على ظهره، بحروف كبيرة (سأذهب في نزهة طويلة).

وضعت الرسالة حيث يمكن لأمي أن تراها، في اللحظة التي ستعود فيها إلى المنزل.

ثم ضحكت

لقد نسيت أهم شيء.

صعدت الدرج، وسحبت كرسياً إلى خزانة أمي. ثم صعدت على الكرسيّ ومددت يدي إلى صندوق معدني أخضر صغير في الرف العلوي من الخزانة. كدت أن أمزق الغلاف المعدني بيديّ العاريتين، فقد كان القفل ضعيفاً جداً، لكنني رغبت في إنجاز الأشياء على نحو منظم وهادىء؟

سحبت درج المكتب الأيمن العلوي الخاص بأمي، وانزلقت علبة المجوهرات الزرقاء من مخبئها تحت المناديل الإيرلندية المعطرة المصنوعة من الكتان. ثم عزلت المفتاح الصغير عن المخمل الداكن. فتحت العلبة الزرقاء وأخرجت منها علبة الأدوية الجديدة، كانت تحتوي على أكثر مما توقعت.

نحو خمسين قرصاً على الأقل.

لو انتظرت حتى تعطيني إيها أمي، قرصاً، قرصاً، في كل ليلة. لقضيت خمسين ليلة إلى أن أتمكن من ادخارها جميعاً. ستكون الكلية قد فتحت أبوابها، وعاد أخي من سفر، قبل أن أقوم بجمعها كلها ويفوت الأوان.

أعدت المفتاح إلى مكانه في صندوق المجوهرات بين أكوام السلاسل والخواتم الرخيصة، ثم أعدت علبة المجوهرات إلى الدرج تحت المناديل، وأرجعت الصندوق المعدني إلى رف الخزانة العلوي، ووضعت الكرسي على السجادة في نفس الموضع الذي سحبته منها.

ثم هبطت إلى المطبخ، وفتحت الصنبور وملأت كأساً طويلة بالماء. ثم أخذت كأس الماء وعلبة الأقراص ونزلت إلى القبو.

كان الضوء خافتاً، مثل ضوء قاع البحر، يرشح من بين شقوق نافذة القبو. ثم ظهرت، خلف قنديل الزيت، فجوة معتمة في الجدار بارتفاع الكتف تقريباً، فتسللت مسرعة أسفل الرواق المسقوف، متوارية عن الأنظار. كان الرواق المسقوف قد أُضيف إلى المنزل بعد حفر القبو، وشُيّد فوق هذا الشق السري، تحت قاع الأرض.

كانت هناك بضعة قطع خشبية متعفنة لإيقاد النار، تسد مدخل الفجوة بشكل تام. دفعتها إلى الخلف قليلاً. ثم أسندت كأس الماء وعلبة الأقراص، جنباً إلى جنب، فوق السطح الأملس لإحدى القطع الخشبية، ورحت أدفع نفسي.

استغرق دفع جسدي إلى الفجوة بعض الوقت، ولكن في النهاية، وبعد العديد من المحاولات، تمكنت من ذلك، وغبت في فم الظلام، مثل قزم.

بدت الأرض ودودة تحت قدمي الحافيتين، ولكنها كانت شديدة البرودة. تساءلت كم مضى من الوقت على هذه الأرضية من دون أن ترى الشمس.

ثم سحبت القطع الخشبية المغطاة بالأتربة، الواحدة تلو الأخرى، عبر مدخل الفجوة. كان الظلام كثيفاً مثل المخمل. مددت يدي نخو الكأس والعلبة، ثم أحنيت رأسي، وزحفت على ركبتي إلى أبعد جدار.

لمست بيوت العناكب وجهي بنعومة الفراشة. والتففت بمعطفي الأسود كأنه ظلي الجميل، فتحت علبة الأقراص ورحت أبلعها بسرعة خاطفة، بين جرعات من الماء، قرصاً قرصاً.

لم يحدث شيء في البداية، ولكنني عندما اقتربت من قاع العلبة، لمعت أمام عيني أضواء حمراء وزرقاء. وانزلقت العلبة من بين أصابعي، فتمددت على الأرض.

ساد الصمت، وكشف عن حصى حياتي وصدفها وكل حطامها المتهالك. ثم اجتمع، كالموج الجارف، عن شفير الرؤية، دافعاً بي نحو النوم.

(14)

كان الظلام حالكاً.

شعرت بالظلام، ولا شيء سواه، ثم شعرت برأسي وهو يرتفع مثل رأس دودة. كان شخص ما يئن، ثم ارتطم بوجنتي ثقل عظيم قاس مثل جدار حجري، فتوقف الأنين.

عاد الصمت مرة أخرى بهدوء، مثلما يستعيد الماء هدوءه بعد أن يسقط حجرٌ على سطحه.

اندفعت ريحٌ هادئة. كان جسدي ينتقل بسرعة هائلة عبر نفق إلى جوف الأرض. ثم سكنت الريح، كان هناك هدير، من أصوات مختلفة، تحتج وتعترض في المدى البعيد. ثم تلاشت الأصوات.

شق إزميل[73] عيني، فانفرجت فتحة من النور، مثل فم أو جرح، إلى أن أحاط بها الظلام من جديد. حاولت أن أتحرك بعيداً عن جهة الضوء، غير أن يديّ كانتا ملفوفتان حول أطرافي مثل يدي مومياء، فلم أقوى على الحركة.

لا بد أنني في حجرة تحت الأرض، مضاءة بأضواء تعمي الأبصار، وأن الغرفة كانت مكتظة بالناس الذين كانو يحاولون إنزالي إلى الأسفل، لسبب ما.

ثم ضرب الإزميل مرة أخرى، فوثبب الضياء إلى رأسي، وصاح صوت في الظلام الحالم الدافىء كالفرو:

(أمي!)

تنفس الهواء ولعب على وجهي.

شعرت بشكل الغرفة المحيطة من حولي، غرفة كبيرة بنوافذ مشرعة. أخذت وسادة مكانها تحت رأسي، فعام جسدي، باستسلام، بين الأغطية.

ثم شعرت بدفء يد على وجهي. لا بد أنني مستلقية في شمس. سأرى، إن فتحت عيني، ألواناً وأشكالاً تنحني عليّ مثل الممرضات.

فتحت عيني.

كان الظلام تاماً.

وكان هناك من يتنفس بالقرب مني.

(لا أستطيع أن أرى) قلت.

تكلم صوت مبتهج من بين الظلام: (هناك الكثير من المكفوفين في هذا العالم. قد تتزوجين شخصاً لطيفاً منهم ذات يوم).

عاد الرجل ذو الإزميل مرة أخرى.

(لماذا تتعب نفسك؟) قلت (لا جدوى من ذلك).

(لا تقولي ذلك). لامست أصابعه ندبة كبيرة مؤلمة فوق عيني اليسرى، ثم أرخى شيئاً ما، فظهرت فجوة ضوء خافتة، كثقب في الجدار. كان هناك رأس رجل يحدق من طرف الفجوة.

(هل ترينني؟)

(نعم).

ثم تذكرت (لا أستطيع رؤية أي شيء) ضاقت الفجوة وأظلمت (إنني عمياء)

(هراء! من أخبرك بذلك؟).

(الممرضة).

تذمر الرجل. ثم أنتهى من وضع الضماد على عيني. (أنت فتاة محظوظة جداً. فبصرك سليم تماماً).

(ثمة من يريد رؤيتك)

تبسمت الممرضة مبتهجة، ثم اختفت.

قدمت أمي مبتسمة عن حافة السرير. كانت في حالة مزرية، مرتدية ثوباً مزيناً برسومات دواليب وردية.

تبعها صبي طويل ضخم. لم أستطع في البداية أن أتعرف عليه، لأنني لم أفتح سوي القليل من عيني، ثم عرفت أنه أخي.

(قالوا إنك راغبة في رؤيتي).

جلست أمي على حافة السرير، ووضعت يدها على ساقي. نظرت إلي بشيء من المحبة والتوبيخ، فرغبت في أن تغادر فوراً.

(لا أعتقد أنني قلت شيئاً).

(قالوا إنك طلبت حضوري). كانت على وشك البكاء. انكمش وجهها وارتعش مع هلام شاحب.

(كيف حالك) قال أخي.

نظرت في عيني أمي، ثم قلت:

(لا جديد).

(لديك زائر).

(لا أريد زواراً).

هرعت الممرضة خارجة وهمست إلى شخص في الممر. ثم عادت.

(إنه يتوق إلى رؤيتك).

نظرت إلى الساقين الشاحبتين الخارجتين من البيجامة الحريرية الغريبة التي ألبسوني إليها. كان الجلد يهتز مترهلاً كلما تحركت، كما لو كان بلا عضلات، يغطيه زغب أسود، قصير وكثيف.

(من هو؟)

(شخص تعرفينه).

(ما اسمه؟).

(جورج باكويل).

(لا أعرف شخصاً يدعى جورج باكويل).

(يقول إنه يعرفك).

ثم خرجت الممرضة ودخل شاب تبدو ملامحه مألوفة جداً، ثم قال: (أتمانعين إن جلست على طرف سريرك؟).

كان يرتدي معطفاً أبيض اللون، كان يمكنني أن أرى سماعة الطبيب وهي تتدلى من جيبه. لا بد أنه شخص أعرفه، متنكر في زي طبيب.

راودتني فكرة أن أغطي ساقي خوفاً من دخول شخص ما، لكنني أدركت أن الوقت قد فات على على ذلك، فتركتهما على وضعهما، مقززتين وبشعتين.

(هذه أنا) فكرت في نفسي (هكذا أنا).

(تذكرينني، أليس كذلك يا إيستر؟)

أغمضت عيني السليمة، نصف إغماضة، وحدقت في وجه الشاب. كانت العين الأخرة لا تزال مغمضة، لكن الطبيب قال إنها ستكون على ما يرام خلال بضعة أيام.

نظر الشاب إليّ كما لو كنت حيواناً جديداً مثيراً في حديقة الحيوان، كان على وشك أن ينفجر من الضحك.

(تذكرينني، أليس كذلك يا إيستر؟) تحدث ببطء، كما يتحدث المرء مع طفل بليد (أنا جورج باكويل. أتردد على كنيستكم دائماً. كنت قد واعدتي رفيقي في السكن بكلية آمهيرست ذات يوم).

اعتقدت أنني سأعرف وجه الشاب بعد ذلك. ولكنه استمر بالحوم بشكل خافت على حافة الذاكرة - كان واحداً من تلك الوجوه الذي لن يكلف المرء نفسه عناء معرفة اسم صاحبها.

(ماذا تفعل هنا؟)

(أنا طبيب تحت التدريب بهذا المستشفى)

كيف أصبح جورج ماكويل طبيباً فجأة؟ تساءلت. كما أنه لم يكن يعرفني حقاً. أعتقد أنه كان يرغب في رؤية منظر فتاة مجنونة أرادت أن تضع حداً لحياتها.

أشحت وجهي جهة الحائط.

(اخرج) قلت (اخرج من هنا ولا تعد مرة أخرى).

(أريد مرآة).

كانت الممرضة تغني تدندن بانشغال، وهي تفتح درجاً تلو الآخر، وتحشو الثياب الداخلية والبلوزات والتنانير والبيجامات التي اشترتها لي أمي، ووضعتها في الحقيبة الجلدية السواء المعتادة.

(لم لا أستطيع رؤية وجهي في المرآة)

كانوا قد ألبسوني ثوباً ضيقاً، مخططاً بالرمادي والأبيض، مثل القماش الذي يغلف الفرش، له حزام أحمر لامع عريض، ثم وضعوني في كرسي له ذراعين.

(لم لا يمكنني ذلك؟)

(من الأفضل ألا تفعلي ذلك). أقفلت الممرضة غطاء الحقيبة بحركة مفاجئة.

(لماذا؟).

(لأنك لا تبدين في غاية الجمال).

(أوه، دعيني ألقي نظرة فقط).

تنهدت الممرضة وفتحت درج المكتب العلوي، وأخرجت مرآة كبيرة، يحيط بها إطار خشبي يتناغم مع خشب المكتب، وناولتني إياها.

في البداية لم أعرف ما المشكلة. لم تكن مرآة على الإطلاق، بل كانت صورة.

لا يمكنك معرفة ما إذا كان الشخص الموجود في الصورة رجلاً أم امرأة، لأن الشعر قد حُلق بأكمله وانتشر الشعر النامي على شكل خصل شبيهة بريش الدجاج الخشن في كل مكان من الرأس. كان أحد جانبيّ وجه ذلك الشخص أرجواني اللون، وتورم بطريقة بشعة للغاية، كان اللون الأخضر يظلل حوافه، ثم يتدرج منه لون أصفر باهت. والفم كان بنياً شاحباً، مصحوباً بتقرحات وردية اللون في كل زاوية منه.

كان أكثر شيء مثير للدهشة في تلك الصورة، هو ذلك التجمع الخارق للطبيعة لجميع الألوان البراقة الممكنة.

ابتسمت.

تشقق الوجه الذي في المرآة راسماً ابتسامة مماثلة.

بعد دقيقة من الارتطام هرعت ممرضة أخرى إلى الغرفة. ألقت نظرة عليّ وعلى بقايا المرآة المكسرة وهي تقف فوق شظاياها البيضاء العمياء، ثم دفعت بالممرضة الشابة إلى خارج الغرفة.

(ألم أخبرك)، كان باستطاعتي سماع صوتها.

(لكنني كنت فقط...)

(ألم أخبرك!)

استمعت إلى حديثهما باهتمام فاتر. يمكن لأي شخص أن يسقط مرآة. لم أرى سبباً يستدعي كل ذلك التوتر.

عادت أكبر الممرضات سناً إلى الغرفة. وقفت هناك، وطوت ذراعيها محدقة في وجهي.

(سبع سنوات من الحظ السيء[74])

(ماذا؟)

رفعت الممرضة صوتها، كما لو كانت تتحدث إلى شخص أصم (سبع سنوات من الحظ السيء).

عادت الممرضة بمجرود ومكنسة وراحت تنظف بقايا الشظايا اللامعة.

قلت آنذاك: (هذه مجرد خرافة)

(هه!) وجهت الممرضة الثانية حديثها إلى الممرضة الجاثية على يديها وركبتيها كما لو كانت غير موجودة. (إلى المكان الذي تعلمين أنهم سيعتنون فيه بها).

كنت أستطيع رؤية الشارع من النافذة الخلفية لسيارة الإسعاف، وهو يتحول إلى مساحة صيفية خضراء. جلست أمي على طرف قريب مني، بينما جلس أخي على الطرف الآخر.

تظاهرت أني لا أعرف سبب نقلي من مستشفى البلدة إلى مستشفى المدينة، حتى أعرف ماذا سيقولان.

(يريدونك أن تكوني في جناح خاص) قالت أمي (لا يوجد في مستشفى البلدة ذلك النوع من الأجنحة)

(لقد أحببت المكان الذي كنت فيه).

شدت أمي على فمها (إذاً، كان يتوجب عليك أن تحسني التصرف).

(ماذا؟)

(ما كان ينبغي عليك أن تكسري تلك المرآة. ربما كانوا سيسمحون لك بالبقاء حينها).

بالطبع لم يكن للمرآة علاقة بالأمر.

جلست في سرير بأغطية تصل إلى عنقي.

(لم لا أستطيع النهوض؟ لست مريضة).

(بسبب جولات التفتيش) قالت الممرضة. (تستطيعين النهوض بعد انتهاء الجولات) سحبت ستائر السرير إلى الخلف، وكشفت عن وجه شابة إيطالية في السرير المجاور.

كانت للمرأة الإيطالية كتلة من الخصل السوداء المجعدة والمشدودة في شعرها. تبدأ من جبينها وترتفع عالياً في المنتصف مثل تسريحة بومبادور[75] ضخمة، ثم تنساب إلى أسفل ظهرها. وكلما تحركت، تتحرك التسريحة الضخمة معها، كما لو كانت مصنوعة من ورق أسود مقوى.

حدقت المرأة بي وضحكت (لماذا أنت هنا؟) لم تنتظر جوابي (أنا هنا بسبب حماتي الفرنسية - الكندية) ثم ضحكت مرة أخرى (يعرف زوجي أنني لا أستحمل وجودها، ورغم ذلك قال إن بإمكانها زيارتنا، وحين أتت، خرج لساني من رأسي ولم أستطع إيقافه. ثم أخذوني إلى الطوارئ، ومن الطوارئ إلى هنا) أخفضت صوتها (مع المجانين) ثم قالت (ماذا عنك؟) أدرت لها وجهي بالكامل، بعيني الأرجوانية الخضراء المتورمة (حاولت قتل نفسي).

حدقت المرأة بي، ثم التقطت بسرعة مجلة أفلام من طاولة سريرها، وتظاهرت بالقراءة.

انفتح باب الغرفة المقابل لسريري، ودخلت مجموعة من الشبان والفتيات بمعاطف بيضاء، يرافقهم رجل كبير السن، رمادي الشعر. ابتسم جميعهم ابتسامة براقة مصطنعة، وأحاطوا أنفسهم حول سريري.

(كيف تشعرين في هذا الصباح، آنسة غريينوود؟).

حاولت معرفة أيّهم الذي تلكم. أكره التحدث بأي شيء أمام جماعة من الناس. حين أتحدث إلى جماعة من الناس، أختار واحداً من بينهم لأوجه إليه كلامي، وطوال الوقت الذي أتحدث فيه أشعر أن الآخرين يحدقون بي، ويحظون بامتياز المحاورة بدون وجه حق. كما أنني أكره عندما

يسألني الناس بسعادة عن حالي، وهم يعلمون جيداً أنني أعاني على نحو مميت، متوقعين أن أقول لهم بأنني (بخير).

(أشعر بالسوء).

(بالسوء، هممم) قال أحدهم، ثم أحنى آخر رأسه مبتسماً، بينما خربش شخص آخر على اللوح، ثم ارتسمت ملامح جدية على وجه أحدهم ثم قال: (لماذا تشعرين بالسوء؟).

اعتقدت أن بعضاً من شبان وفتيات تلك المجموعة قد يكونون أصدقاء لبدي ويلارد. سيعلمون أنني أعرفه، وينتابهم فضول لرؤيتي، ثم يثرثرون عني بين بعضهم البعض. أردت أن أكون في مكان لا يعرفني فيه أي أحد.

(لا أستطيع النوم...)

قاطعوني. (ولكني الممرضة قالت بأنك نمت ليلة البارحة) نظرت إلى تلك الوجوه المهللة الغريبة التي تحيط بي.

(لا أستطيع القراءة) رفعت صوتي (لا أستطيع تناول الطعام) ثم تذكرت أنني بدأت بالأكل على نحو شره منذ مجيئي إلى هنا.

أدار الطلاب ظهورهم مبتعدين، وهم يتهامسون بين بعضهم البعض. ثم برز الرجل ذو الشعر الرمادي من خارج المجموعة وقال: (شكراً لك آنسة غريينوود. سيفحصك أحد أطباء المستشفى بعد قليل).

ثم توجهت المجموعة إلى سرير المرأة الإيطالية.

(وكيف تشعرين اليوم، يا سيدة...) قال أحدهم، فبدا الاسم طويلاً ومليئاً بحرف اللام، كاسم السيدة توموليلو.

ضحكت السيدة توموليلو (أوه، أنا بخير، أيها الطبيب، أنا بخير)، ثم أخفضت من نبرة صوتها، وهمست بشيء لم أستطع سماعه. نظر واحد أو اثنان من المجموعة نحوي. ثم قال أحدهم:

(حسناً، سيدة تومو ليلو) ثم غادر المجموعة شخص ما، وسحب الستارة التي تفصل أسرتنا عن بعضها، مثل جدار أبيض.

جلست على طرف مقعد خشبي طويل في الساحة المفروشة بالعشب بين جدران المستشفى القرميدية الأربعة. بينما جلست أمي، بثوبها الأرجواني، على الطرف الآخر. كانت تسند رأسها بيدها، واضعة السبابة على خدها، والابهام أسفل ذقنها.

جلست السيدة تومو ليلو في المقعد المجاور مع رجل إيطالي ضاحك، ذي شعر أسود، وكلما تحركت أمي، قلدتها السيدة تومو ليلو. وها هي الآن جالسة وسبابتها على خدها وإبهامها أسفل ذقنها، ورأسها مائل بحزن إلى الجهة الأخرى.

(لا تتحركي) همست لأمي (تلك المرأة تقلدك).

استدارت أمي لتنظر من حولها، لكن السيدة تومو ليلو، وبإقل من طرفة عين، ألقت يديها البيضاء الممتلئة في حضنها، وراحت تتحدث إلى صديقها بحيوية.

(كلا إنها لا تفعل ذلك) قالت أمي (حتى إنها لا تولي أي اهتمام لنا). وما إن استدارت أمي نحوي ثانية، حتى وازت السيدة تومو ليلو أطراف أصابعها مثلما فعلت أمي للتو، ورمقتني بنظرة شريرة ساخرة.

تحول العشب إلى اللون الأبيض مع كثرة الأطباء.

وطوال الوقت الذي قضيته برفقة أمي، في ذلك الركن الضيق، حيث تشرق الشمس بين الجدران القرميدية العالية، كان الأطباء يأتون إلينا ويقدمون أنفسهم (أنا الدكتور فلان، أنا الدكتور علاّن).

بدا بعضهم صغير السن إلى الحد الذي لا يمكنك توقع أنهم أطباء فعلاً، وكان لأحدهم اسم غريب على شاكلة الدكتور سيفليس، لذلك بدأت في البحث عن أسماء مشبوهة، ومزيفة، حتى جاء رجل أسود الشعر، يشبه الدكتور جوردن، باستثناء أن بشرته كانت سمراء، بينما كانت بشرة الدكتور جوردن بيضاء، وقال لي: (أنا الطبيب بنكرياس) وهز يدي مصافحاً.

بعد أن قدموا أنفسهم إلينا، وقف الأطباء على بعد مسافة تمكنهم من الإصغاء، إلا أنني لم أستطع إخبار أمي أنهم كانو يدونون كل كلمة نتفوه بها، خشية أن يسمعوني، فملت نحوها هامسة في أذنها.

أزاحت أمي ظهرها إلى الخلف بحدة.

(آه يا إيستر، أتمنى أن تتعاوني معهم. يقولون إنك لا تبدين أي تعاون يذكر، وأنك لا تتحدثين مع أحد من الأطباء، ولا تقدمين أي شيء من شأنه أن يخدم العلاج الوظيفي[76]).

(عليّ أنا أغادر هذا المكان) قلت على نحو وضيع (حينها سأكون بخير، أنت التي أدخلتيني إلى هنا) قلت (أخرجيني).

فكرت إنني لو استطعت اقناع أمي أن تخرجني من المستشفى، فسوف أحوز على تعاطفها، وأقنعها بأفضل شيء يمكنها القيام به. مثل ذلك الصبي المجنون في المسرحية.

لكنني دُهشت عندما قالت (حسناً، سأحاول أن أخرج من هناك، حتى وإن استدعى الأمر أن أخرجك إلى مكان أفضل، ولكن إذا استطعت إخراجك من هنا) وضعت يدها على ركبتي (هل تعدينني بأن تحسني التصرف؟).

استدرتُ بسرعة ونظرت مباشرة في عينيّ الدكتور سيفليس، الذي وقف عند مرفقي يدون ملاحظاته على أوراق صغيرة بالكاد ترى (أعدك)، قلت بصوت واضح ومرتفع.

دفع الزنجي عربة الطعام إلى غرفة طعام المرضى. كان جناح الأمراض النفسية بالمستشفى صغيراً جداً - مجرد رواقين على شكل حرف (L)، تحيط بها غرف من كلتا الجهتين، وفناء مليء بالأسرة خلف مختبر العلاج الوظيفي (حيث كنت) ومساحة صغيرة تحتوي على طاولة، وبضعة مقاعد قرب النافذة في الزاوية التي على شكل حرف (L)، والتي كانت غرفة جلوسنا وطعامنا.

في أغلب الأحيان، كان هناك رجل عجوز أبيض تعلو وجهه التجاعيد، يقدم لنا الطعام، أما اليوم فقد حل محله رجل زنجي. كانت ترافق الزنجي امرأة تنتعل كعباً رفيعاً أزرق اللون، كانت تلقنه المهام التي يتوجب عليه القيام بها. واصل الزنجي التبسم، والضحك بطريقة سخيفة.

ثم حمل إلى طاولتنا صينية تحتوي على ثلاث أوعية مغطاة بالقصدير المقوى. وأخذت أوعية الطعام تصدر صوتاً كلما وضعها على الطاولة. غادرت المرأة الحجرة، وأغلقت الباب وراءها. كان الزنجي يحدق بنا طوال الوقت الذي كان يضع فيه الأوعية والأطباق الفضية المصقولة والخزف الأبيض السميك، بعينين كبيرتين تتدحرجان في مكانهما.

أستطيع القول إننا كنا أول مجانين يشاهدهم في حياته.

لم يتخذ أحد على الطاولة أي خطوة لرفع أغطية القصدير المقوى عن الأوعية، فجلست الممرضة في الخلف، منتظرة أن يقوم بذلك أحد قبل أن تقوم هي بالمبادرة. جرت العادة أن ترفع السيدة توموليلو الأغطية، وتسكب الطعام في صحن كل واحدة منا، مثل أم صغيرة، لكنهم أعادوها إلى منزلها، ولم يرغب أحد في أن يحل مكانها.

كنت أتضور جوعاً، فرفعت الغطاء عن الوعاء الأول.

(هذا لطف منك، يا إيستر) قالت الممرضة مبتهجة. (هلاّ أخذت بعضاً من اللوبياء ومررتيها إلى الآخرين؟)

سكبت لنفسي بعضاً من حبات اللوبياء الخضراء، واستدرت لأمرر الوعاء إلى المرأة الضخمة ذات الشعر الأحمر التي تجلس على يميني. كانت تلك المرة الأولى التي يُسمح فيها للمرأة ذات الشعر الأحمر بالجلوس على طاولتنا. كنت قد لمحتها ذات مرة، في نهاية الرواق الذي على شكل حرف (L)، وهي تقف أمام باب مفتوح، تغطي نوافذه الداخلية المربعة قضبان من حديد.

كانت تصرخ وتضحك بطريقة وقحة، وتصفع فخذيها كلما مرّ أحد من الأطباء، وكان الخادم ذو السترة البيضاء، الذي يعتني بمرضى ذلك الجزء من الجناح، يميل على لوح التدفئة، ضاحكاً بطريقة مقززة.

خطفت المرأة ذات الشعر الأحمر الوعاء من يدي وأفرغته في صحنها. كان حبات اللوبياء مكدسة أمامها، ومتناثرة على حضنها، وعلى الأرض، مثل قش أخضر يابس.

(أوه سيدة مولي) قالت الممرضة بصوت حزين (من الأفضل أن تأكلي في غرفتك اليوم).

ثم أعادت أكثر عدد ممكن من حبات اللوبياء إلى الوعاء، وأعطتها إلى الشخص الجالس بجوار السيدة مولي، ثم اقتادتها خارج الغرفة، وطيلة عبورها الممر الفضي إلى غرفتها، لم تكف السيدة مولي عن التلفت، والقيام بحركات ساخرة، وإصدار أصوات قبيحة ومزعجة.

عاد الزنجي، وأخذ يجمع الأطباق الفارغة، قبل أن يسكب فيها أي طعام.

(لم ننته من تناول الطعام حتى الآن) أخبرته (يمكنك الانتظار قليلاً).

(مه، مه!) جحظ الزنجي عيناه باندهاش مصطنع. ثم ألقى نظرة من حوله. لم تكن الممرضة التي ذهبت لحبس السيدة مولي في غرفتها قد عادت بعد، فمال الزنجي نحوي بطريقة وقحة وقال بصوت قادم من تحت أنفاسه (أيتها الآنسة المتعجرفة، المهمة جداً).

رفعت الغطاء عن الوعاء الثاني، فبدت قطع المعكرونة باردة كالحجر، وملتصقة ببعضها كالعجين اللزج، أما الوعاء الثالث والأخير، فكان مليئاً بالفاصولياء المطبوخة.

أدركت الأن، تمام الإدراك، لماذا لا يمكن تقديم الفاصولياء واللوبياء معاً في وجبة واحدة. يمكن تقديم لوبياء وجزر، أو ربما فاصولياء وبازلاء، ولكن ليس فاصولياء ولوبياء. كان الزنجي يحاول معرفة المقدار الذي سنضعه في أطباقنا.

عادت الممرضة، فتنحى الزنجي جانباً. تناولت الفاصولياء المطبوخة بقدر استطاعتي. ثم نهضت من على الطاولة. ومررت بالجانب الذي لا يمكن للممرضة أن تراني فيه، إذ كان دون مستوى خصرها، ورحت خلف الزنجي الذي كان ينظف الأطباق المتسخة. سحبت قدمي إلى الوراء، وسددت له ركلة قوية حادة على ربلة ساقه.

وثبت الزنجي صارخاً، فاستدارت عيناه نحوي (آه يا آنسة، آه يا آنسة)، تأوه وهو يمد ساقه (لا ينبغي عليك فعل ذلك، لا ينبغي عليك، لا ينبغي عليك ذلك).

(هذا ما تستحقه) قلت له، ثم حدقت في عينيه.

....

(ألا تريدين النهوض من سريرك اليوم؟).

(كلا) كورت نفسي بعمق في السرير، وسحبت الغطاء فوق رأس. ثم رفعت طرف الغطاء، ورحت أسترق النظر. كانت الممرضة تهز ميزان الحرارة الذي سحبته للتو من فمي.

(أترين، الحرارة طبيعية) نظرت إلى ميزان الحرارة كما أفعل دائماً قبل أن تعرف الممرضة قياس درجة حرارتي (أترين، الحرارة طبيعية، لماذا تستمرين بقياس حرارتي؟)

كنت أود إخبارها أن لو كان الأمر يقتصر على أوجاع جسدي لهانت الأمور، فآلام الجسد يمكن احتمالها أما آلام العقل فلا يمكن التحكم بها. لكن الفكرة بدت معقدة ومثيرة للملل، فلم أنطق بها. رحت أتوارى في السرير، شيئاً فشيئاً.

ثم شعرت، من تحت الغطاء، بضغط خفيف مزعج على ساقي. نظرت سريعاً.

وضعت الممرضة صينية موازين الحرارة فوق سريري، ثم أدارت ظهرها لي، وراحت تقيس نبض المريضة التي ترقد بجواري، محل السيدة توموليلو.

شعرت بوخز متمرد يلح على نحو مزعج ومثير في أوردتي، مثل ألم الضرس الذي يوشك أن يسقط. تثاءبت على نحو مستثار، ومثلما يتقلب المرء على فراشه، دفعت قدمي نحو صندوق الموازين الحرارية.

(أوه!) صرخت الممرضة صرخة استغاثة، فجاءت ممرضة أخرى. (انظري ماذا فعلت!)

رفعت رأسي من بين الأغطية محدقة من أعلى حافة السرير. كانت نجمة من شظايا ميزان الحرارة تلمع، وكرات من الزئبق ترتجف مثل ندىً سماوي حول الصينية المقلوبة.

(آسفة)، قلت (كان حادثاً غير مقصود).

رمقتني الممرضة الثانية بعيون قاتلة (بل قمت بفعل ذلك عمداً، لقد رأيتك)

ثم أسرعت خارجة، فدخل إلى الغرفة مساعدات دفعا سريري، بكل ما فوقه، إلى الغرفة القديمة للسيدة مولي، ولكن ليس قبل أن أحصد كرة من الزئبق.

استطعت، بعد اغلاقهما الباب، أن أرى وجه الزنجي، يلوح بين حاجز النافذة الشبكي، مثل قمر بلون دبس السكر، فتظاهرت بعدم رؤيته.

فتخت أصابعي قليلاً، مثل طفل يحتفظ بسر، ابتسمت للكرة الفضية المقعرة في راحة يدي. ستتشظى - إن أسقطتها - إلى ملايين النسخ المتشابهة، ولو دفعتها قرب بعضها البعض، فسوف تلتحم، من دون أي صدع، في وحدة واحدة من جديد.

ابتسمت، وابتسمت للكرة الفضية الصغيرة.

لم أستطع أن أتخيل ما فعلوه بالسيدة مولي.

(15)

شقت فيلومينا غوينا طريقها بسيارتها الكلاديلاك سوداء، بهدوء تام، مثل عربة شعائرية، وسط حركة المرور الخانقة في الساعة الخامسة بعد الظهر. عما قليل ستعبر إحدى الجسور القصيرة التي تقوس نهر تشارلز، وسأفتح الباب حينها، بدون تفكير، مندفعة بكل قوة، عبر تيار حركة المرور، إلى سياج الجسر. قفزة واحدة فوقه، وسيغمر الماء رأسي.

قمت بتقطيع محرمة ورقية إلى كريات صغيرة، بحجم أقراص الدواء، وعبثت بها بين أصابع يدي، منتظرة أن يحين وقت فرصتي، كانت جالسة في وسط مقعد السيارة الخلفي، بين أمي وأخي اللذين انحنيا نحو الأمام قليلاً، مثل قضبان مائلة تغلق كل واحدة منهما الباب المحاذي لها.

كان بإمكاني رؤية امتداد اللون المغاير لرقبة السائق، على الرغم من اختفائها بين قبعته الزرقاء وقبة سترته السماوية، وبجواره شعر فضي وقبعة ريش زمردية كأنها آتية من طائر غريب هش الجناحين، اعتمرتها فيلومينا غوينا، الروائية المشهورة.

لم أكن متأكدة من سبب ظهور السيدة غوينيا. كل ما أعرفه هو أن حالتي قد لفتت انتباهها، وأنها كانت هي الأخرى، نزيلة مصحة للأمراض النفسية، وهي في أوج مسيرتها الأدبية.

قالت أمي إن السيدة غوينا قرأت عن حالتي في إحدى صحف بوسطن المحلية، فأرسلت إليها برقية تقول فيها: (هل سبب الحالة شاب ما؟)

حتى وإن كان سبب الحالة شاب ما، فلن تستطيع السيدة غوينا فعل أي شيء طبعاً.

لكن أمي أجابت على برقيتها قائلة: (كلا، إن الأمر يتعلق بالكتابة، فإيستر تعتقد أنها لن تكتب مرة أخرى).

ولهذا عادت السيدة غوينا إلى بوسطن بالطائرة، ثم أخذتني من الجناح الضيق لمستشفى المدينة الحكومي، وهي الآن تقلني بسيارتها إلى مستشفى خاص بحدائق وملاعب غولف، مثل النادي الريفي، حيث ستتكفل بدفع جميع نفقات علاجي، كما لو أنني حصلت على منحة ما. حتى أتماثل للشفاء على يد الأطباء الذين تعرفهم هناك.

أخبرتني أمي أنني يجب أن أشعر بالامتنان، قالت إن علاجي قد استهلك جميع مدخراتها تقريباً، ولولا السيدة غوينا لما عرفت أين ستضعني. لكنني كنت أعرف أين سينتهي بي المطاف. سأكون في المستشفى الحكومي الريفي الكبير، المجاور لهذا المستشفى الخاص.

كنت أعلم أنني يجب أن أشعر بالامتنان تجاه السيدة غوينا، لكنني فقد القدرة على الإحساس بأي شيء. لو أنها منحتني تذكرة سفر إلى أوروبا، أو رحلة بحرية حول العالم، لكان الأمر سيّان عندي، فأينما جلست - سواء على متن سفينة، أو في مقهى مطل على أرصفة باريس أو بانكوك - فإنني سأكون جالسة تحت ذات الجرس الزجاجي، أتصبب عرقاً، في هوائي الفاسد الخاص.

فتحت السماء الزرقاء قبتها فوق النهر، فامتلىء النهر بالأشرعة. وما إن هممت بالقفز خارج السيارة حتى وضعت أمي يدها على مقبض الباب، وكذلك فعل أخي.

أصدرت عجلات السيارة صوتاً مزعجاً وهو تسير فوق حاجز القضبان المتصالبة للجسر. لمعت الأشرعة والمياه والسماء الزرقاء والنوارس المعلقة في الهواء مثل بطاقة بريدية نادرة، وعبرنا الجسر.

غرقت في المقعد الرمادي الفخم وأغلقت عيني، طوقني هواء الجرس الزجاجي، من كل جانب، فعجزت عن الحركة.

حصلت على غرفتي الخاصة مرة أخرى.

ذكرتني هذه الغرفة بالغرفة التي في مستشفى الدكتور جوردن - سرير، خزانة منخفضة، خزانة ثياب، طاولة وكرسي. نافذة بحاجز شبكي بدون قضبان. تقع غرفتي في الطابق الأرضي،

حيث تكون النافذة قريبة جداً من الأرضية المغطاة بإبر الصنوبر، وتطل على ساحة مليئة بالأشجار ويحيط بها جدار من الطوب الأحمر. إن قفزت من النافذة فلن أتمكن من جرح ركبتي. بدا السطح الداخلي للجدار الطويل مصقولاً بعناية كالزجاج.

أرهقت رحلة الجسر أعصابي.

لقد أضعت فرصة مثالية من يدي. مرت مياه النهر قربي مثل شراب لم يلمسه أحد. ساورتني ظنون أنني لم أكن لأجرؤ على القفز، حتى مع عدم وجود أمي وأخي بالقرب مني.

وحين أنتهيت من إجراءات الدخول بالمبنى الرئيسي في المستشفى، جاءت فتاة نحيفة وقدمت نفسها: (اسمي الدكتورة نولان. سأكون الطبيبة المسؤولة عن حالة إيستر).

دهشت لانها امرأة. لم أكن أعتقد بوجود طبيبات نفسانيات. كانت تلك المرأة مزيجاً من (ميرنا لوي[77]) وأمي. كانت ترتدي بلوزة بيضاء، وتنورة طويلة مربوطة يشدها حزام جلدي عريض من منتصف الخصر، وتضع نظارات أنيقة على شكل هلال.

ولكن بعد أن اقتادتني الممرضة عبر حشائش الحديقة إلى مبنى مصنوع من الطوب القاتم، يسمى (كابلان caplan)، حيث سأقيم، لم تأت الطبيبة نولان لرؤيتي، بل جاء رجال شديدو الغرابة بدلاً منها.

استلقيت على سريري تحت البطانية البيضاء السميكة، فدخلوا غرفتي واحداً تلو الآخر، وعرفوا عن أنفسهم. لم أستطع أن أفهم لماذا كان عليهم أن يكونوا بهذا العدد، أو لماذا رغبوا في التعريف عن أنفسهم. فتبادر إلى ذهني أنهم يختبرونني، ليروا إن كنت قد انتبهت إلى عددهم الكبير، فازددت حذراً.

أخيراً، جاء طبيب وسيم، ذو شعر أبيض، وقال إنه مدير المستشفى. ثم بدأ بالحديث عن المهاجرين، والهنود الحمر، ومن ورث الأرض من بعدهم، وعن الأنهار الجارية في الجوار، ومن بنى أول مستشفى في البلاد، وكيف احترق، ومن بنى الثاني، حتى اعتقدت أنه ينتظر الوقت الذي سأقطعه فيه، لأخبره أن كل شيء تحدث به عن الأنهار والمهاجرين كان محض هراء.

لكنني اعتقدت، حينئذٍ، أن بعض حديثه قد يكون صحيحاً، فحاولت أن أتقصى أي جزء من حديثه كان صحيحاً، وأيه لم يكن كذلك، ولكنني عندما هممت بفعل ذلك، قال وداعاً.

انتظرت حتى سمعت أصوات جميع الأطباء وهي تتلاشى بعيداً. ثم ألقيت عني البطانية البيضاء، وانتعلت حذائي خارجة إلى الرواق. لم يوقفني أحد، فواصلت المسير حول زاوية جناح الرواق الذي أقطن فيه، ثم إلى رواق آخر، رواقٍ أطول من سابقه، عابرة غرفة الطعام المشرعة الأبواب.

كانت خادمة بزيّ أخضر تقوم بتجهيز الطاولات للعشاء. وفوق الطاولات كانت هناك مفارش كتانية بيضاء، وكؤوس زجاجية ومناديل ورقية. وكما يفعل السنجاب عندما يخزن حبات البندق في الشجر، خزنت في ذهني حقيقة أن الكؤوس مصنوعة من زجاج حقيقي. فقد كنا نشرب من أكواب ورقية في مستشفى البلدة الحكومي، ولم تكن لدينا سكاكين لتقطيع شرائح اللحم. دائماً ما كانوا يطهون اللحم، أكثر مما ينبغي، حتى نستطيع تقطيعه بسهولة بواسطة شوّك الطعام.

وصلت، أخيراً، إلى قاعة كبيرة تضم أثاثاً قديماً وسجادة رثة. وجدت فتاة مستديرة الوجه، لها شعر أسود قصير، تجلس على كرسي بذراعين، وتقلب صفحات إحدى المجلات، ذكرتني بإحدى قائدات فرق الكشافة التي كنت عضوة بها ذات يوم. نظرت إلى قدميها، كانت تنتعل حذاء مسطحاً بنياً، مصنوعاً من الجلد، مع شرائط متدلية من الأمام، كان من المفترض أن يكون الحذاء رياضياً، مثلما أوحت بذلك الأربطة المعقودة على شكل جوزة بلوط.

رفعت الفتاة عينيها وتبسمت (أنا فاليري، وأنت؟)

تظاهرت أني لم أسمعها، فخطوت خارج القاعة نحو نهاية الجناح التالي. وجدت في طريقي بابا يصل علّوه إلى مستوى الخصر، ولمحت من وراءه، عدداً من الممرضات.

(أين الجميع؟)

(في الخارج). كانت الممرضة تدون شيئاً ما، مرة بعد مرة، على قطع صغيرة من الشريط اللاصق. انحنيت عبر مدخل الباب، لأرى مالذي كانت تكتبه، فوجدت: إ. غريينوود، إ. غريينوود، إ. غريينوود.

(في الخارج أين؟)

(يوه، هناك، في ساحة الغولف، حيث يلعب فريق العلاج الوظيفي تنس الريشة).

انتبهت إلى وجود مجموعة من الثياب المكدسة فوق كرسي بجوار الممرضة. كانت نفس الثياب التي وضعتها الممرضة التي في المستشفى الأول، داخل الحقيبة الجلدية الفاخرة، عندما حصلت حادثة كسرالمرآة. بدأت الممرضات بوضع الملصقات التي دونتها الممرضة على الثياب.

عدت إلى القاعة الكبيرة، لم أستطع فهم ما يفعله هؤلاء الناس؛ يلعبون تنس الريشة والغولف. لا بد أنهم ليسوا مرضى على الإطلاق، ليقوموا بذلك.

جلست بجوار فاليري، وراقبتها بحذر. أجل! لابد أنها كانت في مخيم الفتيات للكشافة. كانت تقرأ نسختها المهترئة من مجلة فوغ Vogue، باهتمام بالغ.

(ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟) تساءلت (لا يبدو أنها تعاني من أي شيء).

(أتمانعين إن دخنت؟) مالت الطبيبة نولان إلى الخلف في الكرسي ذي الذراعين قرب سريري.

أخبرتها أن لا مانع لديّ، فلطالما أحببت رائحة الدخان. ظننت أنها لو دخنت، فسوف تمكث معي فترة أطول. كانت تلك هي المرة الأولى التي تأتي فيها الطبيبة نولان للتحدث معي. وحينما تغادر سأغرق في الفراغ القديم مرة أخرى.

(حدثيني عن الدكتور جوردن) قالت الطبيبة نولان فجأة (هل أحببته؟).

رمقتها بنظرة حذرة. ظننت أن جميع الأطباء متورطون بالأمر نفسه، وأنه، في مكان ما في هذا المستشفى، وفي زاوية سرية، ترقد آلة شبيهة تماماً بآلة الدكتور جوردن، جاهزة لصعقي حتى أخرج من جلدي مرة أخرى.

(كلا) قلت (لم أستلطفه أبداً).

(هذا مثير للاهتمام، ولكن لماذا؟)

(لم يعجبني ما فعله بي)

(ماذا فعل بك؟)

أخبرت الطبيبة نولان عن الآلة والوميض الأزرق والاهتزاز والضجيج المزعج. وجدتها هادئة جداً طوال الوقت الذي كنت أتكلم فيه معها.

(كان ذلك خطأ) قالت حينئذ (لا يفترض بالأمور أن تجري على هذا النحو).

حدقت فيها.

(إذا تم استخدامها بالطريقة الصحيحة) قالت الطبيبة نولان (فسيكون الأمر شبيهاً بالذهاب إلى النوم).

(إذا فعل شخص ذلك بي مرة أخرى، فسوف أقتل نفسي)

قالت الطبيبة نولان بحزم (لن تخضعي للعلاج بالصدمات الكهربائية هنا. وإن توجب ذلك) قالت متداركة (فسأخبرك بذلك مسبقاً، وأعدك أنه سيكون مختلفاً عن المرة السابقة. لماذا؟) أنهت كلامها (لأن الكثير من الناس يحبون هذا النوع من العلاج).

بعد أن غادرت الطبيبة نولان، عثرت على علبة ثقاب فوق طرف النافذة. لم تكن علبة من الحجم العادي، بل من الحجم الصغير جداً. فتحتها، فوجدت صفاً من العيدان البيضاء الصغيرة، برؤوس وردية. حاولت إشعال عودٍ منها، فانكمش في يدي.

لم أعرف السبب الذي جعل الطبيبة نولان تترك شيئاً مملاً كهذا معي. ربما فعلت ذلك لتعرف إن كنت سأعيدها. وضعت لعبة أعواد الثقاب بحذر شديد في جيب معطفي الصوفي الجديد. ولو سألتني الطبيبة نولان عنها، فسأخبرها أنني ظننتها مصنوعة من الحلوى، فأكلتها.

انتقلت امرأة جديدة إلى الغرفة المجاورة لي.

لا بد أنها آخر من نزل إلى المستشفى من بعدي، لذا فإنها لن تعرف مدى تردي حالتي، مثلما يعرف الآخرون. فكرت بالذهاب إليها، وتكوين صداقة معها.

كانت المرأة المستلقية في سريرها، ترتدي فستاناً أرجوانياً، ينعقد عند عنقها بدبوس مرصع بحجر كريم، ويصل إلى المنطقة الفاصلة بين ركبتيها وحذائها. كان شعرها الأحمر تالفاً، معقوداً في شكل كعكة، على طريقة المعلمات المتزمتات، وتضع نظارة رفيعة بإطار فضي معقود بمطاط أسود يصل إلى صدرها.

(مرحباً) بادرتها الحديث، وجلست على حافة السرير (اسمي إيستر، ما اسمك؟).

لم تحرك المرأة ساكناً، واستمرت بالتحديق في السقف. شعرت بالإهانة. خطر ببالي أن تكون فاليري أو شخص آخر قد أخبرها عن مدى غبائي فور وصولها إلى المستشفى.

أطلت ممرضة برأسها من الباب.

(أوه، أنت هنا) قالت لي (تزورين الآنسة نوريس، كم هذا لطيف!) ثم اختفت مرة أخرى.

لا أعرف كم قضيت من الوقت وأنا جالسة هناك، أحدق بسيدة اللون الأرجواني، متسائلة إن كانت ستفرج عن شفتاها الورديتان، وإن فعلت، فماذا ستقول؟

أخيراً، ومن دون أن تتكلم أو تنظر إليّ، حركت السيدة نوريس قدميها إلى داخل فردتي حذائها الأسود، ذي الأربطة المعقودة، في الجانب الآخر من سريرها، ثم غادرت الغرفة. ظننت أنها تحاول التخلص مني بطريقة مهذبة. ثم تبعتها بهدوء عبر الممر.

وصلت السيدة موريس إلى باب غرفة الطعام ثم توقفت قليلاً. كانت تسير بخطى مدروسة طوال طريقها إلى غرفة الطعام، واضعة قدميها وسط لفائف الورود التي تناسقت بعناية على شكل نمط مكرر في نسيج السجادة. انتظرت قليلاً، ثم رفعت قدميها، الواحدة تلو الأخرى، فوق عتبة الباب، ومن ثم إلى داخل غرفة الطعام، كما لو كانت تخطو فوق عتبات درج متباعدة.

قامت بالجلوس على طاولة مستديرة مغطاة بمفرش مصنوع من الكتان، وفردت منديلاً فوق حجرها.

(لن نقدم العشاء قبل ساعة من الآن)

لكن السيدة نوريس لم تبد أي استجابة، أطرقت رأسها بطريقة مهذبة.

سحبت كرسياً في الجهة المقابلة لها على الطاولة وفردتُ منديلاً. لم نتكلم. لكننا جلسنا هناك، وسط صمتٍ عميق الرفق والحنان، إلى أن دق جرس العشاء عبر الممرات.

(تمددي) قالت الممرضة (سأحقنك مرة أخرى).

استدرت على بطني فوق السرير، ورفعت تنورتي. ثم سحبت بيجامتي الحريرية إلى الأسفل.

(يا إلهي! ماذا ترتدين تحت هذه الثياب؟)

(بيجامة، حتى لا اضطر إلى ارتداء ثيابي في كل مرة، ثم خلعها من جديد)

أصدرت الممرضة صوتاً مراوغاً ثم قالت: (في أية جهة؟). كان ذلك مجرد دعابة قديمة.

رفعت رأسي، ونظرت إلى مؤخرتي العارية. كانت مليئة بالرضوض الأرجوانية والبنية والزرقاء، نتيجة لكل الحقن السابقة. بدا الجانب الأيسر أغمق من الأيمن.

(اليمنى).

(كما تشائين).

غرست الممرضة حقنتها في داخلي، فجفلت، متلذذة بالألم القليل، كانت الممرضات يحقنني ثلاث مرات كل يوم، وفي كل مرة، تعطيني إحداهن كوباً من عصير الفاكهة المحلى، ثم يقفن على مقربة مني، حتى أنتهي من شربه.

(أنت محظوظة) قالت فاليري (ها أنت تخضعين للعلاج بالإنسولين[78]).

(لم يحدث أي شيء).

(أوه، سيحدث. لقد جربته. أخبريني عندما تشعرين بالتجاوب معه).

لكنني لم أشعر مطلقاً بأي تجاوب معه، كنت وزني يزداد ويزداد، ليس إلا. لقد ضاقت عليّ الملابس الفضفاضة التي اشترتها لي أمي، وحين نظرت إلى بطني المنفوخة وأفخاذي العريضة،

شعرت بالامتنان لأن السيدة غوينا لم تشاهدني وأنا على هذه الحالة، لأنني بدوت مثل سيدة على وشك الإنجاب.

(هل شاهدتي ندباتي؟)

أزاحت فاليري الشعر الأسود المنسدل على جبينها، فظهرت علامتان شاحبتان في كل طرف من جبينها، كما لو كان لها قرنان، ذات يوم، ثم قامت باستئصالهما.

كنا نمشي سوية، برفقة المعالج الرياضي، في حدائق المصحة. أصبحت أحظى - في هذه الايام - بشرف التنزه أكثر مما مضى. لم يسمحوا للسيدة نوريس بالخروج أبداً.

قالت فاليري أنه لا يتوجب على السيدة نوريس أن تبقى في مبنى كابلان، بل في مبنى الحالات المستعصية، والتي يطلقون عليها اسم (واي مارك Wymark).

(أتدرين ما هاتان الندبتان؟) سألت فاليري بإلحاح

(كلا. ما هما؟)

(أجريت لي عملية جراحية في الفص الأمامي لدماغي)

(كيف تشعرين؟)

(بخير، لم أعد غاضبة. كنت، في السابق، غاضبة دوماً. كنت أقطن في واي مارك، والآن في كابلان. كما يمكنني أن أذهب إلى المدينة الآن، إو إلى التسوق، أو لمشاهدة فيلم برفقة إحدى الممرضات)

(ماذا ستفعلين عندما تغادرين)

(أوه، لن أغادر) ضحكت فاليري (أنا أحب هذا المكان).

(ويوم المغادرة!)

(لم يتوجب عليّ أن أغادر؟)

كانت الممرضة تفتح الأدراج وتغلقها بسرور، وتطوي أمتعتي في حقيبة سوداء عادية.

لا بد أنهم سينقلونني إلى مبنى واي مارك.

(أوه، سوف تنتقلين إلى الجانب الأمامي من البناية وحسب) قالت الممرضة مبتهجة (سيعجبك المكان، فثمة الكثير من أشعة الشمس هناك).

وحين خرجنا إلى الممر، رأيت السيدة نوريس تنتقل هي الأخرى. كانت ممرضة شابة ومرحة، شبيهة بالتي ترافقني، تقف عند باب غرفتها، وتساعدها على ارتداء معطف أرجواني ذي ياقة من فرو سنجاب هزيل.

قضيت الساعات الطوال، وأنا جالسة على طرف سرير السيدة نوريس، رافضة اللهو والتنزه والمشاركة بمباريات تنس الريشة، وحتى مشاهدة الأفلام الأسبوعية، التي كنت استمتع بها، بدون أن تشاهد نوريس أي منها مطلقاً - حتى أتأمل بشفاهها الصغيرة الشاحبة، والمطبقة بصمت.

فكرت كم سيكون مثيراً لو فتحت فمها وتحدثت إلي، حينها سوف أركض إلى الممر وأخبر الممرضات، سيثنون علي لما قمت به من تشجيع السيدة نوريس، وقد يسمحوا لي بالحصول على امتيازات التسوق ومشاهدة الأفلام في وسط المدينة، وبذلك يكون هروبي أكيداً.

لكن السيدة نوريس، لم تنطق بشيء طوال فترة سهري معها.

(إلى أين يأخذونكِ)، سألتها.

لمست الممرضة مرفق السيدة نوريس، فاهتزت كما لو كانت دمية بعجلات.

(ستُنقل إلى مبنى واي مارك) همست الممرضة لي (أخشى أن السيدة نوريس لم تحرز أي تقدم في العلاج مثلما فعلتِ).

شاهدت السيدة نوريس وهي ترفع قدماً، ثم الأخرى، فوق الدرج اللامرئي الذي يسد عتبة الباب الأمامية.

(لدي مفاجأة لكِ) قالت الممرضة وهي تدخلني إلى غرفة مشمسة في الجناح الأمامي الذي يطل على ملاعب الغولف الخضراء. (انضم للمستشفى شخص تعرفينه).

(شخص أعرفه؟)

ضحكت الممرضة (لا تنظري إليّ هكذا، ليس شرطياً) وعندما وجدتني لم أقل شيئاً أضافت (تقول إنها صديقة لكِ. تقيم في الغرفة المجاورة. لم لا تزورينها؟)

ظننت الممرضة تمازحني، وأنني إن طرقت باب الغرفة المجاورة فلن أسمع جواباً. وإن دخلتها، فسأجد السيدة نوريس تفك أزرار معطفها الأرجواني بياقته التي من فرو السنجاب، وهي مستلقية في سريرها، وفمها يتفتح من إصيص جسدها الهادىء مثل برعم ورد.

ورغم ذلك، خرجت وطرقت باب الغرفة المجاورة.

(تفضلي!) نادى صوت مبتهج.

فتحت الباب قليلاً، ونظرت إلى داخل الغرفة. كانت تجلس قرب النافذة، فتاة ضخمة، كالفرس، مرتدية بنطالاً مخصصاً لركوب الخيل، وتنظر إليّ بابتسامة عريضة.

(إيستر!) قالت لاهثة، كما لو كان تركض لمسافة طويلة ثم تعثرت. (كم جميل أن أراك، أخبروني أنكِ هنا).

(جوان؟) قلت بتردد، ثم نطقت الاسم مرة أخرى، بشيء من الذهول والاضطراب.

تبسمت جوان، كاشفة عن أسنانها الكبيرة اللامعة التي لا خطأ بها.

(بشحمها ولحمها، كنت أعرف أنك ستتفاجئين).

(16)

كانت غرفة جوان، بخزانتها ومكتبها وطاولتها وكراسيها وأغطيتها البيضاء وحرف (C) الذي رُسِم بخط أزرق كبير عليها، مشابهة تماماً لغرفتي. خطر ببالي أن تكون جوان قد استأجرت غرفة في المصحة في الوقت الذي علمت فيه بوجودي هنا، وتظاهرت بالمرض، على سبيل الدعابة، ليس إلاّ. فهذا هو الشيء الوحيد الذي يفسر سبب إخبارها الممرضة أنني صديقتها. فأنا لم أختلط بها يوماً، إلا بأقل ما تستوجبه العلاقات الرسمية والباردة.

(كيف وصلت إلى هنا؟) جلست متكورة في سرير جوان.

(لقد قرأت عنك). قالت جوان

(ماذا؟)

(قرأت عنك، وهربت)

(ماذا تقصدين؟) قلت بحزم.

(حسناً)، مالت جوان إلى الوراء في أريكة المصحة ذات القماش القطني المزهر (كنت أعمل خلال الصيف، لدى مدير منظمة شبيهة بالماسونية، كما تعلمين، ولكنها ليست ماسونية. كنت أعاني على نحو مأساوي، وأُصبت بتورم في مفاصلي فلم أستطع المشي على نحو سليم، وارتديت، في آخر أيامي هناك، جزمة مطاطية للعمل، عوضاً عن الحذاء العادي، ولك أن تتخيلي تأثير ذلك على بنفسيتي...)

لم يكن هناك سوى تفسيران لما قالته، إما أن تكون جوان مجنونة - لارتدائها جزمة مطاطية أثناء العمل - أو أنها كانت تحاول معرفة مدى جنوني، إن اعتبرت قولها صادقاً، بالإضافة إلى أن أورام المفاصل لا تصيب سوى كبار السن. قررت التظاهر أنها مجنونة، وأنني أساير جنونها وحسب.

(أشعر بالسوء عندما لا أنتعل حذاء عادياً) قلتُ بابتسامة غامضة (هل آلمتك قدماك كثيراً؟).

(ألمٌ فضيع، ليس هذا فقط، بل كان مديري - الذي انفصل للتو عن زوجته، ولم يستطع الحصول على الطلاق، لأن ذلك يتعارض مع مبادىء المنظمة - يلاحقني في كل مكان ويضايقني في كل دقيقة، وكلما حركت قدمي أوجعتني كالشيطان، وإذا جلست على مكتبي، توالت المضايقات علي في كل حين، كما لو كان يريد أن يتحرر مما يثقل صدره...)

(لماذا لم تقدمي استقالتك؟)

(أوه، لقد استقلت، إلى حد ما. تغيبت عن العمل في إجازة مرضية. لم أخرج من غرفتي قط، ولم أرَ أحداً. حشرت الهاتف في أحد الأدراج، ولم أجب على أية مكالمة... ثم أرسلني طبيبي إلى طبيب نفساني في هذا المستشفى الكبير. كان موعدي معه في الثانية عشرة ظهراً، وكنت في حالة مزرية، وعندما حانت الساعة الثانية عشرة والنصف، جاءت موظفة الاستقبال، وأخبرتني أن الطبيب قد خرج لتناول طعام الغداء. ثم سألتني إن كنت أود الانتظار، فأجبتها بنعم).

(وهل عاد؟) بدا نسيج القصة محبوكاً بعناية، أبعد مما تصل إليه قدرات جوان، لكنني تركتها تسترسل، لأرى أين سينتهي بها الأمر.

(أوه بالطبع. كنت على وشك أن أنتحر، فقد قلت لنفسي: إن لم يقم هذا الطبيب بعمله، فستكون النهاية. حسناً، ثم قادتني موظفة الاستقبال عبر ممر طويل، وحين وصلنا إلى الباب، استدارت نحوي قائلة: (هل لديك مانع إن رافق الطبيب بضعة طلاب؟) ما عساي أن أقول؟ (أوه، كلا) أجبتها، ثم خطوت إلى داخل الغرفة فوجدت تسعة أزواج من العيون تحدق بي! تسعة أزواج! ثماني عشرة عيناً منفصلة... لو أخبرتني موظفة الاستقبال تلك، بوجود أحد عشر شخصاً في تلك الغرفة، لغادرتها على الفور. لكن الوقت تأخر على فعل أي شيء. حسناً، كنت في ذلك الوقت، أرتدي معطفاً من الفرو....)

(في أغسطس؟)

(أوه، كان يوماً من تلك الأيام الباردة الرطبة، وكنت سأقابل أول طبيب نفساني في حياتي، تعلمين كيف يكون الأمر. على أية حال، أخذ الطبيب يحدق في معطف الفرو طوال فترة حديثي معه، وكان بإمكاني أن أعرف بسهولة بماذا كان يفكر، وحين طلبت منه أن أدفع له الرسوم المخفضة، الخاصة بالطلبة، بدلاً من الرسوم الكاملة. كنت أستطيع رؤية علامات الدولار وهي تلمع في عينيه. حسناً، أخبرته أنني لا أعرف كل ما يتعلق بأورامي، وهاتفي الملقى في الدرج، وكيف أردت قتل نفسي. حينئذٍ، طلب مني أن أنتظر في الخارج، فيما ناقش حالتي مع الآخرين، وحين دعاني مرة أخرى إلى الغرفة، أتعرفين ماذا قال لي؟)

(ماذا؟)

ضم يديه معاً، ثم نظر إليّ قائلاً: (آنسة غيلنيغ، قررنا أن تستفيدي من برنامج العلاج الجماعي).

(العلاج الجماعي؟) لابد أن صوتي بدا مصطنعاً كصدى غرفة، لكن جوان لم تنتبه.

(هذا ما قاله. هل يمكنك تخيل فكرة أن أرغب في قتل نفسي، ثم أذهب للتحدث عن ذلك لمجموعة من الغرباء الذي يشاركونني نفس الحال...)

(ذلك محض جنون) شعرت أني مستغرقة في الأمر رغماً عني. (حتى إنه ليس فعلاً إنسانياً).

(هذا ما قلته بالضبط. ذهبت مباشرة إلى المنزل وكتبت رسالة إلى ذلك الطبيب. كانت رسالة جميلة شرحت فيها كيف أن شخصاً مثله لا يستحق أن يكون طبيباً يساعد المرضى والمحتاجين...)

(هل تلقيت جواباً؟).

(لا أدري. كان ذلك في اليوم الذي قرأت فيه عنكِ)

(ماذا تقصدين؟)

(أوه!) قالت جوان (كيف اعتقدت الشرطة أنك ميتة، وكل ما قيل عن اختفاءك. أحتفظ بمجموعة من قصاصات الجرائد في مكان ما) سحبت نفسها من السرير، ففاحت رائحة مزكمة وقوية جداً مثل رائحة الخيل. كانت جوان البطلة الفائزة في مسابقة قفز الخيول عن الحواجز في مهرجان الفروسية الذي يعقد في الكلية كل سنة، فتساءلت إن كانت تنام في إسطبل.

تفحصت جوان حقيبتها المفتوحة وعادت بمجموعة من قصاصات الجرائد،

(هاك، ألقِ نظرة).

أظهرت القصاصة الأولى صورة فوتوغرافية مكبرة لفتاة بهالات سوداء محيطة بعينيها، وابتسامة تلوح فوق شفاه سوداء. لم أستطع تخيل المكان الذي التقطتُ فيه تلك الصورة التافهة، حتى لاحظت القرطين والقلادة، التي تحمل علامة بلوومنغدال[79]، وهو تشع نوراً ساطعاً، مثل نجوم مزيفة.

طالبة جامعية مفقودة

أمٌ قلقة

تحدثت المقالة التي أسفل الصورة عن فتاة اختفت من منزلها في السابع عشر من شهر أغسطس، وهي ترتدي تنورة خضراء، مخلفة وراءها رسالة قصيرة تقول فيها أنها خرجت في نزهة طويلة. وحين لم تعد الآنسة غريينوود بحلول منتصف الليل - قالت المقالة - اتصلت أمها بشرطة البلدة.

في القصاصة الثانية كانت هناك صورة لي مع أمي وأخي، كنا نجلس بسعادة في ساحة منزلنا الخلفية. لم أعرف من التقط تلك الصورة، إلى أن لاحظت أنني كنت مرتدية بنطالاً قطنياً، وأنتعل حذاء خفيفاً، فتذكرت أنها نفس الأشياء التي كنت أرتديها خلال صيف قطف السبانخ، وكيف أن دودو كنواي كانت قد مرت بنا، في وقت الظهيرة الحار، والتقطت بضع صور عائلية لنا، نحن الثلاثة. طلبت السيدة غريينوود نشر هذه الصورة على أمل أن تشجع ابنتها على العودة إلى المنزل.

قلق حول حيازة فتاة لأقراص منومة

صورة معتمة، التقطت في منتصف الليل في إحدى الغابات، لعشرة أشخاص كانت لديهم وجوه مقمرة. بدا الواقفون في نهاية الصف غريبي الأطوار، وقصيري القامة على نحو غير عادي، حتى تنبهت إلى أنهم ليسوا بشراً، بل كلاباً. قاموا باستخدام الكلاب البلوسية للبحث عن الفتاة المفقودة. يقول رقيب الشرطة بيل هندلي: إن المعطيات لا تطمئن بخير.

العثور على فتاة لا تزال على قيد الحياة!

أظهرت الصورة الأخيرة كادر الشرطة وهم يرفعون بطانية طويلة مرتخية تغطي وجهاً ملفوفاً، بلا ملامح، في مؤخرة سيارة الإسعاف. ثم ذكرت المقالة كيف سمعت أمي، وهي تغسل الملابس التي تراكمت منذ اسبوع في القبو، أنيناً خافتاً ينبعث من فجوة مهجورة.

وضعت القصاصات على امتداد البياض الذي يغطي السرير.

(احتفظي بها) قالت جوان (يتوجب عليك لصقها في سجل القصاصات).

طويت القصاصات ودسستها في جيبي.

(لقد قرأت عنك) واصلت جوان حديثها (ليس عن الطريقة التي عثروا بها عليك، وإنما عن كل التفاصيل التي تعلقت بما حصل لك، ثم جمعت كل نقودي، وركبت في أول رحلة طيران قادمة إلى نيويورك).

(لم نيويورك؟)

(أوه، اعتقدت أنه سيكون من الأسهل أن أقتل نفسي في نيويورك).

(ماذا فعلتِ؟)

تبسمت جوان بخجل ثم مدت يديها، رافعة راحتيها إلى الأعلى. ومثل سلسلة جبلية مصغرة، ظهرت آثار كدمات حمراء كبيرة على ثنايا معصمها الأبيض.

(كيف فعلتِ ذلك؟) ولأول مرة أفكر بوجود شيء مشترك بيني وبين جوان.

(حككت معصمي بقوة بنافذة رفيقتي بالسكن).

(أية رفيقة؟)

(رفيقتي القدمية، أيام الكلية. كانت تعمل في نيويورك، ولم أستطع التفكير في مكان آخر أقيم فيه، بالإضافة إلى أن. مالي قد أوشك على النفاد، فلجأت إليها كي أشاركها السكن. عثر علي والداي هناك، بعد أن كتبت إليهما قائلة إنني كنت أتصرف بسخافة، فركب أبي الطائرة مباشرة، وأعادني إلى المنزل).

(لكنك الآن بحالة جيدة) صرّحت لها.

نظرت إليّ جوان بعينيها الرماديتين كالحصى. (أعتقد ذلك)، قالت (ألست كذلك؟)

استولى عليّ النوم بعد وجبة العشاء.

أيقظني صوت عالٍ. سيدة بانستر، سيدة بانستر، سيدة بانستر، سيدة بانستر. وحين صحوت وجدت أنني كنت أضرب عمود السرير بيدي وأنادي. هرعت السيدة بانستر، الممرضة المناوبة في الفترة المسائية، إلى الغرفة، بملامحها الحادة المشمئزة.

(أنتِ هناك، لا نريدك أن تكسري هذه).

ثم فكت حزام ساعة يدي.

(ما الخطب؟ ماذا جرى؟)

التوى وجه السيدة بانستر بابتسامة سريعة. (لقد تعرضت لانتكاس).

(انتكاس؟)

(نعم، كيف تشعرين؟)

(شعور مضحك، كأنني شعاعٌ من ضياء، أو نسمة من هواء).

ساعدتني السيدة بانستر على الجلوس.

(ستكونين بحال أفضل الآن. أفضل من أي وقت مضى. أترغبين بشي من الحليب الساخن؟)

(أجل)

وحين رفعت السيدة بانستر الكوب إلى شفتي، قمت بنفخ الهواء على الحليب الساخن، فانساب من لساني إلى جوفي. كنت أتلذذ بتذوقه، كما يتذوق الطفل حليب أمه.

(أخبرتني السيدة بانستر أنك تعرضت لانتكاسة). أجلست الطبيبة نولان نفسها على الأريكة التي بجانب النافذة، وأخرجت علبة ثقاب بالغة الصغر. بدت مثل العلبة التي خبأتها في معطفي، فخطر ببالي أن تكون إحدى الممرضات قد عثرت عليها هناك، وأعطتها إلى الطبيبة نولان من دون أن تخبر أحداً.

حكت الطبيبة نولان عود ثقاب على طرف العلبة الجانبي، فهبّ للحياة لهيب أصفر حار، فراقبتها وهي تشعل به سيجارتها.

(تقول السيدة بي، إنك تشعرين بتحسن)

(شعرت بذلك قليلا، ثم عدت كما السابق)

(لديّ أخبار لك)

انتظرت، قضيت كل صباحات تلك الأيام التي توقفت عن إحصاء عددها، وكل فترات الظهيرة والمساء، ملفوفة بملاءتي البيضاء على كرسي طويل، قابل للطي، في محراب مظلل، متظاهرة بالقراءة. راودتني فكرة ملّحة أن الطبيبة نولان تنوي أن تمنحني بضعة أيام، لتقول لي بعدها ما قال الدكتور جوردن: (آسفة، لا يبدو أنك تتحسنين، من الأفضل أن تخضعي للعلاج بالصدمة الكهربائية....)

(حسناً، ألا تريدين أن تعرفي ما هي؟)

(ماذا؟) قلت بصوت منخفض، ثم هيأت نفسي.

(لن تستقبلي أي زوار لأجل مسمى).

حدقت، منهدشة، في الطبيبة نولان (حسناً، هذا رائع)

(كنت أعرف أن ذلك سوف يسعدك) وابتسمت.

ثم نظرت، ونظرت الطبيبة نولان معي، إلى سلة المهملات التي بجوار مكتبي. كانت هناك براعم دموية حمراء لمجموعة من ورود ذات سيقان طويلة، تتدلى من سطح السلة.

في ظهر ذلك اليوم، جاءت أمي لزيارتي.

كانت أمي نموذجاً واحداً من طابور طويل من الزوار: متعهدة توظيفي السابقة، والسيدة التي كانت عضوة بالجمعية العلمية المسيحية، والتي قامت بالتنزه معي في الحديقة وهي تتحدث عن السديم الذي ينبعث من الأرض في الإنجيل، وأن السديم كان خطأ، وأن مشكلتي تكمن في إيماني بالسديم، وحين أتوقف عن الإيمان به، فسوف ينتهي كل ما يتعلق به، وأدرك أنني كنت دائماً بخير، إضافة إلى مدرس الإنجليزية في المدرسة الثانوية، والذي جاء محاولاً تعليمي لعبة تركيب الكلمات، معتقداً أنها قد تعيد لي اهتمامي بالكلمات، وفيلومينا غوينا لم تكن راضية عما يفعله الأطباء، فاستمرت بتوجيه النقد لهم.

ضقت ذرعاً بتلك الزيارات.

سأكون جالسة في محرابي المظلل، أو في غرفتي، فتظهر ممرضة مبتسمة لتعلن عن مجيء هذا الزائر أو ذاك. وذات مرة، أحضروا كاهن كنيسة الموحدون، والذي لم أستلطفه مطلقاً. كان في غاية التوتر طيلة الوقت، وأستطيع معرفة أنه كان يظنن أنني مجنونة تماماً، لأنني آمنت بالجحيم الدنيوي، وكيف يتوجب على أناس بعينهم (مثلي) أن يعيشوا في الجحيم قبل أن يموتوا، حتى لا يفوتهم العذاب الذي كان يجب أن يقاسوه بعد الموت، لأنهم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، وأن كل ما يؤمن به المرء سيصيبه بعد موته.

كرهت تلك الزيارات، لأنني شعرت أن كل ما يفعله أولئك الزائرون هو المقارنة بين بدانتي وشعري اللزج، وما كنت عليه في السابق، وبين ما يريدونني أن أكون عليه، كانوا يغادرون من الزيارة وهم في غاية الارتباك.

لو أنهم تركوني وشأني، لنعمت ببعض السلام.

كانت أمي هي الأسوأ، لم توبخني أبداً، لكنها لم تكف عن التوسل إليّ، بوجه حزين، لأخبرها عن الخطأ الذي اقترفته. قالت إنها متيقنة أنّ الأطباء يظنون أنها اقترفت شيئاً خطأ، لأنهم سألوها أسئلة كثيرة بخصوص تعليمي أصول استخدام الحمام، مع أنني كنت مدربة تماماً على استخدام الحمام منذ سنة مبكرة جداً، ولم تواجه أمي أي مشكلة معي فيما يتعلق بتعليمي وتربيتي.

في ظهيرة ذلك اليوم، جاءتني أمي ببعض الزهور.

(احتفظي بها ليوم جنازتي) قلتُ.

تجعد وجه أمي، وبدت على وشك البكاء.

(ولكن يا إيستر، أتذكرين أي يوم نحن فيه الآن؟)

(كلا)

ظننته يوم القديس فالنتاين.

(إنه يوم ميلادك).

حينها، ألقيت الزهور في سلة المهملات.

(كان تصرف أمي سخيفاً)، أخبرت الطبيبة نولان.

أطرقت الطبيبة نولان. وكأنها تعلم ما كنت أقصده.

(إني أكرهها) قلت، وانتظرت الضربة القاضية.

لكن الطبيبة نولان اكتفت بالتبسم، كما لو أن شيئاً ما قد أدخل السرور عليها، ثم قالت: (أظنك كذلك).

(17)

(أنت فتاة محظوظة اليوم).

أزاحت الممرضة الشابة صينية الإفطار من أمامي، لتتركني ملتفة بملاءتي البيضاء، كمسافرة تتنفس هواء البحر على متن إحدى السفن.

(لم أنا محظوظة).

(حسناً، لا أعلم إن كان يجب عليك أن تعرفي ذلك الآن، لكنك ستنتقلين اليوم إلى مبنى بلسايز Belsize) نظرت الممرضة إلي منتظرة ردة فعلي.

(بلسايز) قلت (لا يمكنني الذهاب إلى هناك).

(ولكن لماذا؟)

(لست مستعدة. لست جيدة بما فيه الكفاية).

(بل على خير ما يرام. لا تقلقي، لو لم تكوني بخير لما فكروا بنقلك إلى هناك).

بعد أن غادرت الممرضة، حاولت أن أستنتج سر هذه الخطوة غير المسبوقة التي قامت بها الطبيبة نولان. ماذا كانت تحاول أن تثبت؟ أنا لم أتغير، ولم يتغير أي شيء. لقد كان بلسايز أفضل مكان يرسل إليه المرء، فمنه عاد الناس إلى أعمالهم ومدارسهم وبيوتهم.

سأجد جوان في بلسايز. وكل ما يتعلق بجوان من كتب الفيزياء ومضارب الغولف وتنس الريشة إلى صوت أنفاسها وهمساتها وهي تحدد الفارق الذي يفصلني عمن تماثلوا للشفاء. لقد كنت

أتتبع أخبار تطور حالتها منذ أن غادرت مبنى كابلان، عبر مصادر المعلومات السرية التي تحتفظ بها المصحة.

حظيت جوان بامتياز التنزه مشياً على الأقدام، وامتياز التسوق والذهاب إلى البلدة. كان جمعي لأخبار جوان، كبيرها وصغيرها، يخلف شعوراً بالمراراة والنقص في داخلي. رغم أنني كنت أستقبلها بسعادة ظاهرية. لعل جوان كانت مثالاً حياً لأفضل نسخة قديمة من نفسي. مصممة خصيصاً لتعقبي وتعذيبي.

ربما تكون جوان قد ذهبت حين أصل إلى بلسايز.

على الأقل، يمكنني أن أنسى، في بلسايز، أمر العلاج بالصدمات الكهربائية. كانت هناك الكثير من النساء اللواتي كن يتلقين علاجاً بالصدمات الكهربائية في كابلان. كنت أستطيع معرفة المريضة التي تتعرض لذلك عندما لا أجد صحن الإفطار الخاص بها مع بقية وجباتنا، حيث تتلقى المريضات العلاج أثناء إفطارنا في غرفنا، ومن ثم يأتين إلى صالة الطعام، هادئات ومنهكات، تقودهن الممرضات، مثل الأطفال، ويشرعن في تناول وجبات إفطارهن هناك.

كلما سمعت صوت الممرضة وهي تطرق باب الغرفة حاملة صينية الإفطار كل صباح، تنفست الصعداء، لأنني أعلم أنني سأكون في ذلك اليوم محمية من دائرة الخطر. لم أفهم كيف أمكن للطبيبة نولان أن تعرف إن كان المرء سيغط في النوم أثناء الصعقة الكهربائية مالم تكن قد تعرضت لذلك بنفسها. كيف لها أن تعرف إن كان المرء يتظاهر بالنوم وهو يشعر بكل شحنات الكهرباء والضوضاء التي تبثها في داخله طوال الوقت؟

تناهى إلى مسامعي صوت بيانو قادم من أقصى الممر.

جلست هادئة أثناء العشاء، مصغية بإمعان لثرثرة نساء بلسايز. كن يرتدين ثياباً مواكبة للموضة، ويضعن مساحيق المكياج بمهارة عالية، وكان بعضهن متزوجات. وكان عدد منهن قد ذهب للتسوق في البلدة، فيما ذهب عدد آخر لزيارة أصدقاءهن. وطيلة فترة العشاء لم يوقفن عن تكرار تلك الدعابات الخاصة بهن.

(سأتصل بجاك) قالت امرأة تدعى ديدي (لكنني أخشى ألا يكون في البيت. ولكن مع ذلك، سأعرف أين أتصل به. حسناً).

ضحكت المرأة الشقراء القصيرة الرشيقة التي تجلس على طاولتي. (قابلت الدكتور لورنغ عندما قصدت مكتبه اليوم) جحظت بعينيها الزرقاوين السارحتين كدمية صغيرة (لا أمانع في استبدال بيرسي العجوز بعارض آخر).

وفي الطرف الآخر من الغرفة، كانت جوان تلتهم شرائح اللحم المعلب والطماطم المشوية بشهية كبيرة. بدت في غاية الارتياح بين تلك النساء، فعاملتني ببرود، وبشيء من الاحتقار، كما لو كنت من معارفها المبعدين والذين هم أقل شأناً منها.

ذهبت إلى النوم بعد العشاء مباشرة، لكنني سمعت موسيقى البيانو، فتخيلت جوان وديدي ولوبيل (السيدة الشقراء) وبقية النسوة، وهن يضحكن ويتهامسن من وراء ظهري، في غرفة المعيشة. لابد أنهن كن يتحدثن عن مدى فظاعة تواجد أشخاص مثلي في بلسايز، وأنني يجب أن أكون في واي مارك بدلاً من ذلك.

قررت أن أضع حداً لحديثهم البذيء.

خطوت عبر الممر إلى الأضواء وأصوات الضوضاء المبتهجة بينما كانت الملاءة تحيط بكتفي كالدثار.

استمعت إلى ديدي، لآخر المساء، وهي تعزف بعض أغانيها على البيانو الكبير، بينما كانت الأخريات جالسات يلعبن البريدج Bridge [80] ويتبادلن أطراف الحديث، كما لو كُنّ في سكن الكليّة، غير أنّ معظمهن كن أكبر بعشر سنين من عمر فتيات الكلية.

كانت إحداهن، وهي امرأة ضخمة، طويلة القامة، ذات شعر رمادي، وصوت جهوري رنان، تدعى السيدة سافاج، قد درست في كلية فاسار[81]. أستطيع التكهن بأنها كانت سيدة من الطبقة العليا في المجتمع، لأنها لم تكن تتحدث إلا عن الفتيات اللواتي يظهرن لأول مرة في حفلات الحفلات الاجتماعية. بدا أن لها بنتين، أو ثلاثاً، كن على وشك الظهور - في تلك السنة - في إحدى الحفلات الاجتماعية، لكنها أفسدت تلك الحفلة حين التحقت بالمصحة.

ابتكرت ديدي أغنية واحدة سمتها (بائع الحليب)، واستمر الجميع بنصحها بضرورة أن تقوم بنشرها، لأنها ستحقق نجاحاً كبيراً. كانت يداها تعزفان لحناً قصيراً على مفاتيح البيانو، مثل وقع أقدام مهر صغير وهو يمشي ببطء، ثم لحناً آخر، شبيه بصفير بائع الحليب، ثم تدمج اللحنين معاً.

(هذا لطيف جداً)، قلت بعفوية.

كانت جوان تتكىء على طرف البيانو، متصفحة عدداً جديداً من إحدى مجلة الموضة، بينما كانت ديدي تبتسم إليها كما لو كانتا تتقاسمن سراً بينهما.

(أوه، إيستر) قالت جوان حينئذ، وهي تحمل المجلة، (أليست هذه أنتِ؟).

توقفت ديدي عن العزف. (دعيني أرى). أخذت المجلة، وتفحصت الصفحة التي أشارت إليها جوان، ثم نظرت إليّ.

(أوه. كلا) قالت ديدي. (بالتأكيد كلاّ). نظرت إلى المجلة، ثم إليّ (إطلاقاً).

(أوه، لكنها إيستر، أليست كذلك، إيستر؟) قالت جوان.

اقتربت لوبيل والسيدة سافاج، ثم تظاهرت أنني أعرف ما يجري ورافقتهن إلى البيانو.

أظهرت صورة المجلة فتاة ترتدي فستان سهرة أبيض بدون أكتاف، تكاد تتشقق من الضحك، بصحبة مجموعة كبيرة من الشبان الذين كانوا يتحلقون حولها من جميع الجهات. كانت الفتاة ممسكة بكأس ممتلىء بشراب شفاف، وبدا أنها تحدق إلى ما فوق كتفي، في شيء شاخص خلفي، بالجهة القريبة من اليسار بالتحديد. فجأة، شعرت بأنفاس خفيفة على مؤخرة رقبتي، فاستدرت.

كانت الممرضة المناوبة بالفترة الليلة قد دخلت إلى الغرفة بنعليها المطاطين الخفيفين، من دون أن يشعر بها أحد.

(لا تمزحي) قالت (هل هذه حقاً أنتِ؟)

(كلا، ليست أنا. جوان مخطئة تماماً. إنها شخص آخر).

(أوه، قولي إنها أنتِ!) صاحت ديدي.

لكنني تظاهرت أنني لم أسمعها، فاستدرت مبتعدة. ثم توسلت لوبيل الممرضة لتكون اللاعبة الرابعة في لعبة البريدج، فقرّبتُ كرسيّاً لأشاهد اللعب، رغم أنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذه اللعبة، إذ لم يكن لديّ وقت كي أتعلمها خلال سنوات الكليّة، كما تفعل جيمع الفتيات الثريّات.

حدقت في الوجود المسطحة لملوك أوراق لعبة البوكر وملكاتها وأولادها، واستمعت إلى الممرضة وهي تحكي عن مدى صعوبة حياتها.

(أنتن، أيتها السيدات، لا تعرفن كيف تكون الحياة حين يعمل المرء في وظيفتين)، قالت. (في الليل أكون هنا، أراقبكن....)

ضحكت لوبيل (أوه، نحن بصحة جيدة. نحن أفضل من في المجموعة، وأنت تعلمين ذلك).

(أوه، أنتنّ على خير ما يرام) مرّرت الممرضة علبة من لبان بنكهة النعناع، ثم سحبت قطعة وردية من غلافها الفضي ومضغتها. (أنتنّ بخير، إنهن تلك المغفلات، في المستشفى الحكومي، من يقضون مضجعى).

(هل تعملين في المكانين معاً) سألت باهتمام مفاجىء.

(بالطبع) أعطتني الممرضة نظرة مباشرة في عيني، أستطيع أن أقول إنها تعلم في قرارة نفسها أن لا مكان لي في بلسايز أبداً (لن ترغبين في التواجد هناك للحظة واحدة، سيدة جاين).

وجدت أنه من الغريب أن تناديني الممرضة بالسيدة جاين، وهي تعلم اسمي الحقيقي جيداً.

(لماذا؟) سألتها بإلحاح.

(أوه، إنه ليس بالمكان الرائع مقارنة بهذا المستشفى الذي على طراز النوادي الريفية المنظمة. لا يوجد شيء هناك، ليس هناك علاج وظيفي يعتد به، ولا يمكنك التنزه.....)

(لماذا لا يسمحون بالتنزه؟)

(ليس هناك ما يكفي من المو... ظف... ين). حاولت الممرضة الغش في اللعب فغمغمت لوبيل.

(صدقوني، عندما أجمع ما يكفي من المال لشراء سيارة، سأترك العمل هناك فوراً).

(وهل ستتركين العمل هنا أيضاً) أرادت جوان أن تعرف.

(بالطبع، سأكتفي بالحالات الخاصة فقط، إن شعرت برغبة في ذلك....)

حينئذ، توقفت عن الإستماع إليهنّ.

شعرت أن الممرضة قد تلقت تعليمات بأن تظهر البدائل المتاحة أمامي. إما أن أتعافى، أو أتداعى إلى الأسفل، فالأسفل، كنجم محترق، من بلسايز إلى كابلان إلى وايمارك، وبعد أن تيأس الطبيبة نولان والسيدة وغوينيا مني سينتهي بي المطاف إلى مستشفى الولاية المجاورة.

ضممت البطانية حولي، ودفعت الكرسي إلى الوراء.

(أتشعرين بالبرد) سألت الممرضة بوقاحة.

(أجل) قلتُ، وأنا أسير عبر الممر. (إني أتجمد من البرد).

استيقظت دافئة وهادئة في شرنقتي بيضاء. كان هناك رمحٌ من أشعة الشمس الشتوية الخافتة يلمع في المرآة، وفي الكؤوس المصفوفة فوق الخزانة المنخفضة، وفي مقبض الباب المعدني. وتناهت إلى مسماعي، أصوات قرقعة الصباح الباكر التي تحدثها الخادمات في المطبخ وهن يعددن صينيات الإفطار.

سمعت الممرضة وهي تطرق الباب المجاور لغرفتي، ودوى صوت السيدة سافاج الناعس في الطرف البعيد من الممر، فدخلت الممرضة إلى غرفتها حاملة الصينية المجلجلة. لكم شعرت برعشة ممتعة ومفرحة وأنا أنظر إلى البخار المتصاعد من إبريق القهوة الخزفي الأزرق وكوب الإفطار الخزفي الأزرق وإبريق القشدة الخزفي الكبير الأزرق مع أزاهر الأقحوان التي تغطيه من الأعلى.

بدأت أشعر بالاستسلام.

إن كنت سأنهار، فأقل ما يمكنني فعله هو أن أتمسك بمسراتي الصغيرة بإقصى ما لديّ من قوة.

طرقت الممرضة الباب، ودون أن تنتظر جواباً، دخلت إلى الغرفة.

كانت ممرضة جديدة (فغالباً ما كانوا يغيّرون طاقم الممرضات) ذات وجه هزيل، بلون الرمل، وشعر رملي، والكثير من النمش الذي يرقط أنفها النحيل. لسبب ما أصابني منظر هذه الممرضة بالكآبة، ولم أعرف أن منشأ غرابتها جاء من كونها خالية الوفاض، إلا حين خطت عبر الغرفة بخطى واسعة.

فتحت فمي لأسأل عن صينية إفطاري، لكنني أسكت نفسي فوراً. ربما ظنتني الممرضة شخصاً آخر، مثلما تفعل الممرضات الجدد في أغلب الأحيان. لا بد أن شخصاً ما في بلسايز سوف يخضع للعلاج بالصدمة الكهربائية، فقامت بالخلط بيني وبينه، على نحو مفهوم تماماً.

انتظرت حتى أنهت الممرضة جولتها الصغيرة في غرفتي، بعدما رتبت كل الأدوات في مواضعها واستقامت لتأخذ الصينية التالية إلى غرفة لوبيل التي تقع على بعد باب واحد في الممر.

ثم دفعت قدمي في الحذاء، وسحبت بطانيتي معي، لأن الصباح كان مشرقاً، ولكن في غاية البرودة، وعبرت مباشرة إلى المطبخ. كانت الخادمة ذات الرداء الوردي تملأ صفاً من أباريق القهوة، الزرقاء الخزفية، من غلاية كبيرة على الموقد.

نظرت بمحبة إلى صف الصينيات التي تنتظر ـ المناديل الورقية البيضاء وقد تم طيّها في شكل مثلثات حادة متساوية الأضلاع، ثم وُضع كل منديل أسفل شوكة فضية، والقباب الباهتة من بيض مسلوق في فناجين بيض زرقاء، وأصداف محار زجاجية مملوءة بمربى برتقال. كل ما عليّ فعله هو أن أمد يدي وأطالب بصينيتي، فيعود العالم إلى طبيعته مرة أخرى.

(لقد وقع خطأ ما)، أخبرت الخادمة، وأنا أنحنى على المنضدة، متحدثة بصوت منخفض وسريّ (لقد نسيت الممرضة الجديدة إحضار صينية إفطاري اليوم).

تمكنت من اصطناع ابتسامة مشرقة لأبيّن لها أنني لا أضمر أيّة مشاعر عدوانية.

(ما اسمكِ؟)

(غريينوود، إيستر غريينوود).

(غريينوود، غريينوود، غريينوود). كانت سبابتها ذات الثآليل تفتش في قائمة أسماء مرضى بلسايز المعلقة على جدار المطبخ (غريينوود، لا فطور اليوم).

قبضت على حافة المضدة بكلتا يديّ.

(لا بد أن خطأ ما قد وقع. هل أنت متأكدة أن الاسم هو غريينوود؟).

(غريينوود) قالت الخادمة بحزم، حين دخلت الممرضة.

نظرت إلينا الممرضة متسائلة.

(آنسة غريينوود تريد صينيتها)، قالت الخادمة، وهي تتحاشى النظر إلى عيني.

(أوه) ابتسمت الممرضة إليّ (سوف تحصلين على صينيتك في وقت لاحق هذا الصباح، آنسة غريينوود، أنتِ...)

لكنني لم أنتظر سماع ما قالته الممرضة. انطلقت بخطى عمياء نحو القاعة، لا أريد أن أذهب إلى غرفتي، لأنها ستكون المكان الذي سيأتون إليه لإحضاري، ولكنني سأذهب إلى محرابي، والذي كان أقل شأناً من محراب كابلان، ولكنه، على أية حال، منزوٍ بمكان هادىء في الممر، حيث لن تأتي جوان ولوبيل وديدي والسيدة سافاج.

تكومت في أقصى زاوية من المحراب والبطانية على رأسي. لم يكن ما أصابني

بسبب خضوعي للعلاج الصدمة الكهربائية، بل بسبب خيانة الطبيبة نولان السافرة لي، لقد أحببت الطبيبة نولان، أحببتها بصدق، ومنحتها ثقتي على طبق من فضة، وأطلعتها على كل شيء، ولقد وعدتني، مخلصة، أن تحذرني قبل أن أخضع لجلسة علاج جديدة.

لو أخبرتني في الليلة الماضية، لبقيت مستيقظة طوال الليل، خائفة بلا شك، وأترقب بارتياب، وما إن يطلع النهار حتى أكون قد هيّأت نفسي واستعدت هدوئي. سأعبر الممر في وسط

ممرضتين - مارة بديدي ولوبيل والسيدة سافاج وجوان - وأنا بكامل كرامتي، مثل شخص استسلم، بهدوء، للإعدام.

انحنت الممرضة ونادت اسمي.

تسللت إلى الوراء وتكورت أكثر في الزاوية. اختفت الممرضة. كنت أعلم أنها ستعود في غضون دقيقة، مع رجلين ضخمين، فيحملاني، وأنا أصرخ ضاربة بكفيّ وقدميّ، متجاوزة الجمهور المبتسم والمحتشد في حجرة الجلوس.

أحاطتني الطبيبة نولان بذراعها وعانقتني كأم.

(قلت أنك ستخبرينني!) صرخت عليها من وراء البطانية المكرمشة.

(لكنني أخبرك الآن)، قالت الطبيبة نولان. (لقد جئت باكراً حتى أخبرك بذلك، وسآخذك بنفسي إلى هناك).

حدقت فيها عبر أجفاني المنتفخة. (لماذا لم تخبريني ليلة البارحة؟).

(ظننت أن ذلك سيبقيك مستيقظة. لو كنت أعلم...).

(قلتِ أنّك ستخبريني).

(اسمعي، إيستر) قالت الطبيبة نولان. (سأرافقك إلى هناك. سأكون معك طوال الوقت، سيكون كل شيء على ما يرام، كما وعدتك. سأكون هناك حينما تستيقظين، وسأعيدك إلى غرفة مرة أخرى).

نظرت إليها، فبدت مستاءة.

انتظرت قليلاً. ثم قلت: (عديني أنك ستكونين هناك).

(أعدك)

أخذت الطبيبة منديلاً ومسحت وجهي. ثم أحاطت ذراعها بذراعي، كصديقة قديمة، وساعدتني على النهوض، فمضينا نمشي في الممر. تشابكت البطانية حول قدمي، فتركتها تسقط،

لكن الطبيبة نولان لم تنتبه إلى ذلك. مررنا بجوان، وهي تغادر غرفتها، فرمقتها بابتسامة إزدراء، ذات مغزى، فتراجعت إلى الوراء، وانتظرت حتى عبرنا.

ثم فتحت الطبيبة نولان باباً في نهاية الممر، وقادتني أسفل سلالم متواصلة تفضي إلى إلى ممرات الطابق السفلي الغامضة التي ترتبط، في شبكة متقنة من الأنفاق والجحور، مع جميع المباني المختلفة للمستشفى.

كانت جدران الممر مشرقة، بيضاء اللون، وثمة مغسلة بيضاء ومصابيح كهربائية بسيطة معلقة في فتحات السقف الأسود. كانت أسرة نقل المرضة وكراس متحركة تتناثر، هناك وهناك، بجوار الأنابيب التي تصدر أصوات الهسهسة والقرقعة، والممتدة والمتفرعة في نظام عصبيّ معقد على طول الجدران اللامعة، تشبثت بذراع الطبيبة نولان مثلما يحتمي المرء من الموت، فكانت تعتصر ذراعي، مشجعة، بين الحين والآخر.

أخيراً، توقفنا عند باب أخضر، كُتب عليه بحروف سوداء: المعالجة الكهربائية. تراجعت إلى الوراء، فيما انتظرت الطبيبة نولان. ثم قالت: (لننتهِ من الأمر)، ثم دخلنا.

لم يكن في غرفة الانتظار، فيما عداي والطبيبة نولان، سوى رجل شاحب برداء حمام ماروني رث، بصحبة ممرضته المرافقة.

(أترغبين في الجلوس؟) أشارت الطبيبة نولان إلى مقعد خشبيّ، لكنني شعرت بالثقل في قدميّ، ففكرت بصعوبة أن أقوم من مقعدي عندما يأتي الأشخاص المكلفون بالعلاج.

(من الأفضل أن أبقى واقفة).

أخيراً، دخلت من الباب الخارجي امرأة طويلة، شديدة الشحوب، ترتدي سترة بيضاء. ظننت أنها ستأخذ الرجل الذي كان يرتدي رداء حمام باروني، لأنه كان هناك قبلي، لكنني تفاجأت عندما اتجهت نحوي.

(صباح الخير دكتورة نولان) قالت المرأة، وهي تضع ذراعها حول كتفي. (أهذه إيستر؟)

(أجل، سيدة هيوي. إيستر، هذه السيدة هيوي، سوف تعتني بكِ. لقد أخبرتها عنكِ).

بدا لي أن تلك المرأة بطول سبعة أقدام. انحنت عليّ بطريقة وديّة، فرأيت أن وجهها (بأسنانه البارزة في المنتصف) لا يزال يحتفظ بشيء من آثاء حب الشباب. بدا شبيهاً بخرائط فوهات البراكين على القمر.

(أظنّ أنّنا سنبدأ بك، إيستر)، قالت السيدة هيوي (لن يبالي السيّد آندرسن لو انتظر قليلاً، أليس كذلك سيد آندرسن؟).

لم ينطق السيد آندرسن بشيء. هكذا، وذراع السيدة هيوي حول كتفي، والطبيبة نولان تتبعنا، دخلت إلى الغرفة التالية.

عبر شقيّ عينيّ، اللذين لم أجرؤ على فتحهما كثيراً، مخافة ألا يصعقني منظر الموت برمته، رأيت السرير العالي بملاءته البيضاء المشدودة عليه تماماً، والآلة التي خلفه، والشخص المقنّع الجالس خلف الآلة، والذي لم أستطع تحديد ما إن كان ذكراً أو أنثى، ومجموعة أخرى من الأشخاص المقنّعين الذي كانوا يتحلقون حول سريري من كل جانب.

ساعدتني السيدة هيوي بالصعود والتمدد على ظهري.

(تحدثي معي) قلتُ.

أخذت السيدة هيوي تتحدث بصوت منخفض ومهدئ، وتضع مرهماً على صدغي، وتثبت الأزرار الكهربائية الصغيرة على جانبيّ رأسي. (ستكونين على ما يرام، لن تشعري بشيء، عضيّ فقط....) ثم وضعت شيئاً ما فوق لساني، فعضضت مذعورة، ومسحني الظلام مثلما تُمسح الطباشير من على صفحة السبورة.

(18)

(إيستر)

استيقظت من سبات عميق، والعرق يبلل ملابسي، كان أول شيء وقعت عليه عيناي وجه الطبيبة نولان وهي يتماوج أمامي قائلاً: (إيستر، إيستر).

فركت عيني بيد متثاقلة.

أستطيع أن أرى، خلف الطبيبة نولان، جسد امرأة بثوب ذي مربعات بيضاء وسوداء، ممدد على سرير خفيف نقال، كما لو كان جسدها قد سقط من ارتفاع شاهق. وقبل أن أرى المزيد، قادتني الطبيبة نولان عبر الباب إلى هواء منعش تعلوه سماء زرقاء.

كل الحرائق والمخاوف التي اعترتني تلاشت إلى العدم، وغمرني السلام في لمح البصر، كان الجرس الزجاجي، معلقاً فوق على رأسي، متدلياً على ارتفاع خمسة أقدام، متيحاً لجسدي مصفاحة نسائم الهواء.

(لقد كان كما أخبرتك، أليس كذلك؟) قالت الطبيبة نولان، ونحن نسير عائدتين إلى بلسايز معاً فوق خشخشة أوراق الشجر البنية.

(بلى).

(حسناً، سيكون الأمر كذلك دائماً)، قالت بحزم (ستخضعين للعلاج بالصعقة الكهربائية ثلاث مرات في الأسبوع، يوم الثلاثاء والخميس والسبت).

ابتلعت نفساً كبيراً من الهواء.

(إلى متى سيستمر ذلك؟)

(يعتمد الأمر) قالت الطبيبة نولان (عليك وعلي)

أخذت السكين الفضية وكسرت طرف بيضتي. ثم وضعت السكينة وواصلت التحديث فيها. حاولت أن أفكر في سبب حبي للسكاكين، لكن عقلي انزلق في دوامة من الأفكار، وراح يتأرجح، مثل طائر، وسط الهواء الفارغ.

كانت جوان وديدي جالستين بالقرب من بعضهما على مقعد البيانو، وكانت ديدي تعلم جوان عزف الجزء الأخير من مقطوعة (عيدان الطعام Chopsticks [82])، فيما تعزف هي الإيقاع الجانبي.

فكرت كم من المحزن أن تبدو جوان مثل فرس، بتلك الأسنان الكبيرة والعينين الجاحظتين كحصاتين رماديتين. يا للهول! إنها لم تستطع حتى الاحتفاظ بشخص مثل بدي ويلارد. أما ديدي، فكان من الواضح أن زوجها يعيش مع عشيقة أخرى، حتى جعل منها امرأة بائسة، مثل قطة عجوز، كريهة الرائحة.

(وصلتني رسا... لة) غمغمت جوان، وهي تطل برأسها الأشعث من باب غرفتي.

(هنيئاً لك) أبقيت عينيّ على كتابي. فمنذ أن انتهيت من جلسات العلاج بالصعقة الكهربائية، والتي تلقيتها على مدى فترة قصيرة استغرقت خمس جلسات بالتوالي، وبعد أن حظيت بامتيازات الذهاب للتنزه في المدينة، وجوان تلازمني كذبابة فاكهة ضخمة، لاهثة، كما لو أن بإمكانها أن تمتص حلاوة الشفاء بمجرد الاقتراب منيّ.

لقد جرّدوها من كتب الفيزياء وأكوام الدفاتر السلكية التي تعج بملاحظات دروسها الجامعية، والتي تراكم فوقها الغبار وتكدست في غرفتها، وقد أُجبرت على ملازمة المكان من جديد.

(ألا تريدين أن تعلمي من هو مرسلها؟)

دخلت جوان إلى الغرفة وجلست على طرف سريري. أردت أن أخبرها بأن تنصرف من أمامي فوراً، فكل شيء يتعلق بها يصيبني بالذعر، لكنني لم أقوى على ذلك.

(حسناً) وضعت إصبعي بين دفتيّ الكتاب وأغلقته. (من أرسلها؟)

أخرجت جوان مظروفاً أرزق باهتاً من جيب تنورتها ولوحت به لتستثير غضبي.

(حسناً، أليست هذه مصادفة!) قلت.

(ماذا تقصدين ب - »مصادفة«).

ذهبت إلى مكتبي وأخرجت مظروفاً أزرق باهتاً ولوحت به إلى جوان كمنديل وداع. (لقد وصلتني رسالة أيضاً. أتساءل إن كانت نفس الرسالة).

(هو أفضل حالاً الآن)، قالت جوان (لقد غادر المستشفى)

عمّ الهدوء قليلاً.

(هل ستتزوجينه؟)

(كلا) قلت (وأنتِ؟)

ابتسمت جوان ابتسامة عريضة كما لو كانت تتهرب من الإجابة. (لم أكن أحبه كثيراً، على أية حال)

(أوه؟)

(كلاّ، لقد أحببت عائلته).

(أتقصدين السيد والسيدة ويلارد؟).

(نعم). انزلق صوت جوان أسفل عمودي الفقري كتيار كهربائي (لقد أحببتهما. كانا رائعين، في غاية السعادة، عكس والديّ. كنت أذهب لزيارتهم دائماً) صمتت قليلاً (حتى أتيت أنتِ).

(آسفة) ثم أضفت (لم توقف عن زيارتهما، إن كنت قد أحببتهما إلى تلك الدرجة؟)

(أوه، لم أقوى على ذلك) قالت جوان (ليس وأنت تواعدين بدي. كنت سأبدو... لا أعلم... مثيرة للسخرية).

فكرت قليلاً (ستبدين كذلك فعلاً).

(هل) قالت جوان بتردد (ستسمحين له بالمجيء؟)

(لا أعلم).

اعتقدت في البداية، أن مجيء بدي لزيارتي في المصحة سيكون أمراً فظيعاً، فلعله سيأتي ليتشمت بي، ومخالطة الأطباء الآخرين. ثم نظرت إلى الأمر كخطوة لإنزاله المنزلة التي تليق به، والتخلي عنه، على الرغم من عدم وجود شخص غيره في حياتي، لا مترجم فوري، ولا أحد، لكنه كان الخيار الخطأ الذي توقفت عن التعلق به. (هل ستسمحين له بالمجيء؟)

(أجل) همست جوان. (لعله سيصطحب أمه معه. سأطلب منه أن يحضرها...)

(أمه؟)

عقدت جوان حاجبيها (أحب السيدة ويلارد. السيدة ويلارد رائعة، إنها مذهلة، لقد كانت أماً حقيقية بالنسبة لي دائماً).

كنت أحتفظ بصورة للسيدة ويلارد، وهي ترتدي ثوباً صوفياً رُسمت عليه أشجار بمختلف الألوان، كانت ترتدي حذاء مسطحاً، وتلقي حكماً أمومية موروثة. كان السيد ويلارد طفلها المدلل، وكان صوته عالياً وواضحاً مثل صوت طفل صغير. جوان والسيدة ويلارد.... جوان.... والسيدة ويلارد.....

طرقت باب ديدي في ذلك الصباح حتى أستعير منها الصفحة التي تحتوي على مقطعين في دفترها الموسيقيّ. انتظرت بضع دقائق، فلم أسمع جواباً. فكرت أنها ليست في الداخل، لذا لن يضر أن أحصل على صفحة الموسيقى من مكتبها، دفعت الباب، وخطوت إلى الغرفة.

في بلسايز - حتى في بلسايز - للأبواب أقفالها، لكن المرضى لا يمتلكون مفاتحها. الباب المغلق يشير إلى الخصوصية، وكنا نحترم ذلك مثلما يحترم الناس الأبواب المؤصدة بالمفاتيح. كانت

الواحدة منا تطرق وتطرق ثم تنصرف. تذكرت هذا وأنا واقفة، أضحت عيناي عديمة الفائدة في ظلام الغرفة الحالك، بعد أن تسلطت عليها أنوار الممر الباهرة.

أبصرت، حين اتضحت الرؤية، جسداً ينهض من السرير. ثم استمعت لضحكات شخص ما على نحو خافت. رتب الجسد شعره، وحدقت بي، من الظلمة، عينان شاحبتان بلون الحصى. استلقت ديدي على الوسائد، عارية الساقين، تحت فستان نومها الصوفي الأخضر، ونظرت إليّ بابتسامة قصيرة ساخرة. وتوهجت سيجارة من بين أصابع يدها اليمنى.

(أردت فقط...) قلتُ.

(أعرف) قالت ديدي (الموسيقى).

(أهلاً، إيستر)، قالت جوان حينئذ، فجعلني صوتها الحاد أصاب بالغثيان (انتظريني، إيستر، سأرافقك لأعزف معك).

قالت جوان بشجاعة: (لم أقع في حب بدي ويلارد مطلقاً. لقد ظن أنه يعرف كل شيء. ظن أنه يعرف كل شيء عن النساء....)

نظرت إلى جوان، ورغم الشعور المروع، وكراهيّتي القديمة لها والمتأصلة في أعماقي، إلا أنّها فتنتني. كنت من يراقب أحد سكان كوكب المريخ، أو ضفدعاً بثآليل على وجه التحديد. لم تكن أفكارها أفكاري، ولا مشاعرها مشاعري، لكنها لم تكن تفارقني، حتى أصبحت أفكارها ومشاعرها نسخة ساخرة وسوداوية لمشاعري وأفكاري.

كنت أتساءل في بعض الأحيان، إن كانت جوان من صنع مخيلتي، وفي أوقات أخرى أسأل نفسي أكانت سوف تستمر في الظهور في كل أزمة في حياتي لتذكرني بما كنت عليه، وبما مررت به، لتواصل أزمتها الخاصّة، والمشابهة لأزمتي، أمام ناظريّ.

(لا أفهم مالذي تراه المرأة في امرأة أخرى)، قلتُ للطبيبة نولان أثناء مقابلتي معها في تلك الظهيرة. (ما الذي تراه المرأة في امرأة أخرى ولا تراه في الرجل؟)

فكرت الطبيبة نولان قليلاً ثم قالت: (الرقة)، فأفحمني ردها.

(أحبّكِ)، كانت جوان تقول (أحبّكِ أكثر من بدي).

وعندما استلقت على سريري بابتسامة سخيفة تعلو محيّاها، تذكرت فضيحة صغيرة حدثت في سكن الجامعة، حين بدأت طالبة سمينة، - في سنتها الدراسيّة الأخيرة، لها نهدان في غاية التضخم والترهل، عطوفة كالجدّة، ومتخصصة متدينة في اللاهوت - تلتقي كثيرا بفتاة طويلة بلهاء، في سنتها الدراسية الأولى، ذات تاريخ حافل بقصص علاقاتها الفاشلة مع الشبان الذين قطعوا علاقتهم بها فور أن تعرفوا عليها بمختلف الطرق المبتكرة. كانت الفتاتان تتسكعان سويّاً طوال الوقت، وفي يوم من الأيام، ضبطتهما إحداهن وهما تتعانقان - مثلما تقول الحكاية - في غرفة الطالبة السمينة.

سألت الفتاة التي وشت بهما:(ولكن، ماذا كانتا تفعلان؟). فكلما فكرت بتواجد الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، عجزت عن تصور الأشياء التي يمكن أن يقوموا بها فعلاً.

(أوه، كانت ميلي تجلس على الكرسي وثيودورا مستلقية في السرير، وكانت ميلي تمسّد شعر ثوردورا).

خاب أملي، ظننت أنها ستوحي إليّ بشيء من الأفعال الشريرة. تساءلت إن كان كل ما تفعله النساء في صحبة بعضهن البعض هو التمدد والعناق.

بالطبع، لقد أقامت شاعرة كليّتي المشهورة مع امرأة أخرى - وهي عالمة كلاسيكيّة عجوز، قصيرة القامة، لها تسريحة شعر هولنديّة قصيرة، وحين أخبرت الشاعرة أنني قد أقدم على الزواج، وأنجب مجموعة من الأطفال ذات يوم، نظرت إليّ برعب، ثم صاحت: (ولكن ماذا عن حياتك المهنية؟)

شعرت بألم في رأسي. لماذا كنت دائماً محط اهتمام العجائز غريبات الأطوار؟ كانت هناك الشاعرة المشهورة وفيلومينا غوينا وجيسي وسيّدة الجمعية العلمية المسيحيّة، والله يعلم من أيضاً. جميعهن رغبن في رعايتي بطريقة أو بأخرى، وكان عليّ، لقاء ذلك، أن أصبح نسخة عنهن.

(أحبّك).

(هذا صعب يا جوان) قلت لها، وأنا ألتقط كتابي. (لأنني لا أحبّكِ. رؤيتك تجعلني أشعر برغبة بالتقيّؤ، إن كان يهمّك أن تعرفي).

ثم غادرت الغرفة، تاركة جوان مستلقية، بثقل فرس عجوز، فوق سريري.

....

انتظرت الطبيب، متساءلة إن كان يجب عليّ أن ألوذ بالفرار. كنت أعلم أنّ ما أقوم به مخالف للقانون، في ماساتشوستس على الأقل، لأن الولاية كانت تعج بالكاثوليك، لكن الطبيبة نولان ذكرت أن هذا الطبيب صديق قديم لها، ويتصرف بحكمة.

(ما سبب الزيارة؟) أرادت موظفة الإستقبال، ذات زي العسكريّ الأبيض، أن تعرف، وهي تضع علامة على اسمي في القائمة.

(ماذا تقصدين ب - »سبب الزيارة»؟) لم أفكر أن بإمكان أحد - سوى الطبيب - أن يسألني مثل هذا السؤال، وكانت غرفة الانتظار العامة تعج بالمرضى الآخرين، الذين كانوا ينتظرون أطباء آخرين، كن نساء حوامل أو بصحبة أطفالهن، فشعرت بعيونهن وهي تحدق في بطني المسطح الذي لم يمسسه بشر.

نظرت إليّ موظفة الاستقبال، فتورد خدي.

(زيارة للفحص، أليس كذلك؟) قالت بكياسة. (أردت معرفة ذلك حتى أحدد الأجرة. هل أنت طالبة؟).

(أج... ل)

(ستدفعين نصف الأجرة إذن. خمسة دولارات، بدلاً من عشرة. هل أرسل الفاتورة إلى عنوانك؟).

كنت على وشك أن أعطيها عنوان منزلي، المكان الذي سوف أكون فيه عندما تصل الفاتورة، لكننّي فكرت بأمي وهي تفتحها وتقرأ ما كُتب فيها. كان العنوان البديل الذي لديّ هو الصندوق البريديّ الذي يستخدمه الأشخاص الذين لا يرغبون في أن يعرف الآخرون أنهم يقيمون

في مصحة عقلية. خطر ببالي أن تتعرف موظفة الاستقبال على الرقم، فقلت لها: (من الأفضل أن أدفع الآن)، وسحبت خمسة دولارات من الرزمة التي في حقيبة يدي.

كانت الخمسة دولارات جزءاً مما أرسلته لي فيلومينا غوينا كشكل من أشكال الهدايا التي تعبر عن تمنيّاتها لي بالشفاء. تساءلت عما يمكن أن تفكر به حين تعرف الغرض الذي استخدمت نقودها من أجله.

وسواء عرفت فيلومينا بذلك أم لم تعرف، فإنها كانت تشتري حرّيتي.

(كم أكره فكرة أن أكون طوع بنان رجل ما) أخبرت الطبيبة نولان (لا يكترث الرجل بما يجري في العالم إطلاقاً، بينما تتعلق صورة طفل فوق رأسي مثل عصا كبيرة، كي لا أضل طريقي).

(هل كنت ستتصرفين على نحو مختلف لو لم تكون منشغلة بفكرة إنجاب طفل ما؟)

(أجل) قلت (لكن...) وأخبرت الطبيبة نولان عن المحامية المتزوجة ومقالها (في الدفاع عن العفة).

انتظرت الطبيبة نولان حتى أنهيت كلامي، ثم غرقت بالضحك. (مجرد أكاذيب)، قالت، وخطت اسم هذا الطبيب وعنوانه على ورقة وصفة طبية.

تصفحت بتوتر عدداً حديثاً من مجلة الأطفال Baby Talk. كانت وجود الأطفال الممتلئة، المتوهجة، تبتسم في وجهي، صفحة إثر صفحة - أطفال بلا شعر، أطفال بلون الشوكولاته، أطفال بوجوه تشبه وجه أيزنهاور Eisenhower[83]، أطفال يتدحرجون لأول مرّة، أطفال يمدون أياديهن لالتقاط لعبة مخشخشة، أطفال يتناولون أول ملعقة من طعام غير مهروس، أطفال يقومون بكل تلك الخدع الصغيرة ليبدون كباراً، خطوة خطوة، في عالم قلق ومضطرب.

شممت مزيجاً من رائحة ال - (بابليوم)[84] والحليب الحامض والحفاظات التي تفوح منها رائحة نتنة شبيهة برائحة السمك الفاسد، فأنتابني خليط من مشاعر الحزن والحنان. كم يبدو سهلاً إنجاب الأطفال بالنسبة لأولئك النسوة اللواتي يحطن بي! لِمَ أنا مختلفة عنهن، وليس لدي تلك

الغريزة التي تدفعني لأن أصبح أماً؟ لِمَ أفتقد القدرة على تخيل نفسي منذورة لرعاية طفل بدين غارق في البكاء مثل دودو كنواي؟

سأجنّ إن اعتنيت بطفل طيلة يوم كامل.

نظرت إلى الطفل المتكور في حضن المرأة الجالسة أمامي. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن عمره، فأنا أجهل هذه الأمور، كل ما استطعت استنتاجه هو أنه يستطيع التكلم بكثرة وبسرعة ولديه عشرون سناً خلف شفتيه الورديّتين المزمومتين. كان رأس الطفل متراخياً على كتفيه (بدا بدون رقبة) ويتطلع إليّ بمظهر أفلاطونيّ حكيم.

كانت أم الطفل تتبسم وتتبسم، حاملة ذلك الطفل كما لو كان أول أعجوبة في العالم. راقبت الأم والطفل باحثة عن إشارة تدل على رضاهما المتبادل، ولكن قبل أن أكتشف أي شيء، نادى الطبيب على اسمي.

(ترغبين في إجراء فحص) قال الطبيب مبتهجاً، فانتابني شعور بالراحة لأنه ليس من نوعية الأطباء الذين يطرحون أسئلة حرجة. ساورتني فكرة إخباره أنني أخطط للزواج ببحار ما إن ترسو سفينته في ميناء بتشارلز تاون البحر، وأنني لا أرتدي خاتم الخطوبة في إصبعي، لأننا نعاني من الفقر المدقع، لكنني عدلت عن تلك القصة المثيرة في اللحظة الأخيرة، فقلت بكل بساطة (أجل).

صعدت على سرير الفحص، وأنا أفكر في نفسي (إنني أصعد إلى حرّيتي، سأتحرر من الخوف، سأتحرر من الزواج بالرجل الخطأ (مثل بدي ويلارد) لأجل الجنس فقط، سأتحرر من منازل فلورنس كرتندن Florence Crittenden[85] حيث تذهب جميع الفقيرات (من أمثالي) لأجل إجراء فحص كهذا، مجبرات، نتيجة ما صنعوه بإيديهم،، بصرف النظر عن....)

وحين أعود إلى المصحة بالصندوق المغلف بالورق البنيّ في حضني، سأبدو مثل أي سيدة تعود، بعد قضاء يوم طويل في البلدة، وهي تحمل كعكة من مخبز كرافت، أو قبعة من متجر فيلين، مهداة إلى خالتها العانس. ثم، تلاشت مخاوفي تدريجياً من أن تكون لعيون الكاثوليك أشعة سينية، فشعرت بالراحة. وأظنني قد استفدت من امتيازات التسوق على أكمل وجه.

كنت سيدة نفسي.

وكانت الخطوة التالية هي أن أجد الرجل المناسب.

(19)

(سأصبح طبيبة نفسية).

تحدثت جوان بحماسها المعتاد الذي يصاحبه صوت أنفاسها. كنا نحتسي عصير التفاح في صالة بلسايز.

(أوه) قلت وأنا أبلع ريقي (هذا رائع).

(لقد دار بيني وبين الطبيبة كوين حديث مطول حول ذلك، أخبرتني أنها تعتقد أن ذلك ممكن جداً). كانت الطبيبة كوين - المشرفة على العلاج النفسي لجوان، سيدة جميلة، داهية، وعزباء، وغالباً ما كنتُ أفكر أنها لو أشرفت على علاجي لبقيت في كابلان، أو في وايمارك على الأرجح. تتسم الدكتورة كوين بصفة مثاليّة تثير اهتمام جوان، لكنها تصيبني بالقشعريرة.

تحدثت جوان عن (الأنا والآخر)، فحولت اهتمامي إلى شيء آخر، إلى الصندوق البنيّ غير المغلف الذي في درجيّ السفليّ. لم أتحدث عن الأنا والآخر مع الطبيبة نولان من قبل. في الواقع، لم أعرف عن ماذا كنت أتحدث.

(.... سأذهب للعيش في الخارج، الآن).

حينئذ، استدرت نحو جوان. (أين؟) سألتها بإلحاح، محاولة أن أخفي شعوري بالغيرة.

أخبرتني الطبيبة نولان إن كليتي ستسقبلني مرة أخرى خلال الفصل الثاني، بتوصية منها وبمنحة مدفوعة التكاليف من فيلومينا غوينا، لكن الأطباء اعترضوا على إقامتي مع أمي خلال الفترة الفاصلة، لذا، فإنني سأبقى في المصحة حتى يبدأ الفصل الدراسيّ الشتويّ.

ورغم ذلك فقد شعرت بالتعرض للظلم، فقد حظيت جوان بهذا الامتياز.

(أين؟) سألتها بإلحاح، مرة أخرى (لن يسمحوا لك أن تعيشي أينما أردتِ، أليس كذلك؟) لم تكن جوان قد حظيت بامتيازات الذهاب إلى البلدة، مرة أخرى، إلا في ذلك الاسبوع.

(أوه، كلا، بالطبع، كلا. سأعيش في كيمبريدج مع الممرضة كيندي، فقد انتقلت رفيقتها في السكن للعيش مع زوجها، وهي بحاجة إلى من يشاركها الشقة).

(نخبك!) رفعت كأس عصير التفاح، وقرعنا كؤوسنا معاً. ورغم تحفظاتي العميقة، إلا أنه قد خطر ببالي أنني سوف أنظر إلى جوان بتقدير دائماً، كان الأمر كما لو أننا قد اجتمعنا تحت ظرف قاهر، كحرب أو طاعون، فتقاسمنا عالمنا الخاص.

(متى ستغادرين؟).

(في مطلع الشهر القادم).

(رائع).

بدت جوان حزينة (سوف تأتين لزيارتي، أليس كذلك، إيستر؟)

(بالطبع)

لكنني فكرت باستحالة حدوث ذلك.

....

(هذا مؤلم) قلت (هل من المفترض أن يؤلمني؟)

لم ينبس إيرون ببنت شفة. ثم قال: (يؤلم أحياناً).

قابلت إيرون على سلالم مكتبة وايدنر. كنت واقفة في أعلى سلالم طويلة، أطل على البنايات، ذات القرميد الأحمر، التي تسور الساحة الغارقة بالثلج، متهيئة لأستقل عربة الترولي، حتى أعود إلى المصحة، حينها جاء شاب طويل، قبيح إلى حد ما، يرتدي نظارات طبيّة، وقال: (كم الساعة من فضلك؟)

ألقيت نظرة على ساعتي. (الرابعة وخمس دقائق)

ثم نقل الرجل الكتب، التي كان يحملها على بطنه - كصينيّة غداء - إلى ذراع آخر، كاشفاً عن معصم نحيف.

(ولكنك تمتلك ساعة أيضاً!)

نظر الرجل بحزن إلى ساعته. رفعها وهزّها قرب أذنه (إنها لا تعمل) ثم تبسم على نحو جذاب. (إلى أين تذهبين؟)

كنت على وشك أن أقول: (عائدة إلى المصحة)، لكنني تأملت خيراً في ذلك الرجل، فعدلت عن الفكرة، قائلة: (إلى البيت).

(أترغبين ببعض القهوة أولاً؟)

أصابتني الحيرة، فمن المفترض أن أكون في المصحة لتناول العشاء، ولم أشأ أن أتأخر فأطرد من هناك إلى الأبد.

(هل سيكون فنجان القهوة صغيراً جداً؟)

قررت أن أمارس شخصيتي العفوية الجديدة على هذا الرجل الذي أخبرني، خلال حيرتي، أن اسمه إيرون، وأنه يعمل في تدريس الرياضيات مقابل أجر مرتفع للغاية. فقلت: (جيد). وأنا أوازن خطواتي على إيقاع خطواته، مشيت إلى جانبه، فوق السلالم الممتدة والمغطاة بالجليد.

لم أقرر إغواء إيرون إلا بعد أن شاهدت مكتبه الذي خصصه للدراسة. كان إيرون يقيم في شقة مريحة ومعتمة في الطابق الأرضي وسط شارع متهدم بضاحية كيمبريدج. فقادني إلى هناك - لاحتساء كأس من البيرة - بعد أن انتهينا من شرب ثلاثة أكواب من القهوة المرّة في مقهى مخصص للطلبة. جلسنا في على مقاعد جلدية بنية محشوة، تحيط با تلال من كتب غامضة تعلوها الغبار، كتب تحتوي على معادلات هائلة مصفوفة في صفحة واحدة، بطريقة فنيّة، مثل قصيدة شعرية.

لم أرغب قط باحتساء البيرة الباردة في منتصف الشتاء، لكنني رضيت أن توضع الكأس على شيء صلب يمكنني أن أمسكها بواسطته، وبينما كنت منغمسة في ذلك، رن جرس الباب.

بدا إيرون محرجاً. (أظن الطارق سيّدة ما).

كانت لإيرون عادة قديمة غريبة في تسمية جميع النساء بالسيّدات. (حسناً، حسناً) أومأت إليه. (دعها تدخل).

هز إيرون رأس (سوف يزعجها وجودك).

انعكست ابتسامتي في الأسطوانة الذهبية لكأس البيرة الباردة.

رنّ جرس الباب ثانية على نحو حاسم. تنهّد إيرون ثم نهض ليفتح الباب. وما إن اختفى، حتى دخلت إلى الحمام واختبأت خلف الستارة المتسخة التي بلون الألمنيوم، واختلست النظر إلى وجه إيرون الرهباني، وهو يتراءى من وراء فتحة الباب.

كانت سيّدة سلافية ضخمة، متهدلة النهدين، ترتدي معطفاً واسعاً من صوف الخراف الطبيعيّ، وبنطالاً أرجوانيّاً فضفاضاً، وجزمة سوداء عالية الكعبين يعلوها صوف الحمل الفارسيّ، وتعتلي قبعة فرنسية فوق رأسها، نفخت كلمات بيضاء غير مسموعة في الهواء الشتويّ. كان صوت إيرون ينجرف نحوي عبر الممر البارد.

(آسف يا أولغا... أنا أعمل، أولغا... لا، لا أعتقد ذلك، أولغا)، كان فم السيدة الأحمر يتحرك طيلة الوقت، وكانت الكلمات تستحيل دخاناً أبيض اللون، يطفو بين أغصان شجرة الليلك العارية عند الباب. ثم قال أخيراً: (ربما أولغا... إلى اللقاء يا أولغا).

نظرت بإعجاب إلى الامتداد الواسع لصدر السيّدة المغطى بالصوف، والذي بدا كأنه امتداد سهل، حين ابتعدت بضع بوصات عن عينيّ، نحو السلم الخشبيّ الذي يصدر صريراً، وشيء من المرارة السيبيريّة على شفتيها الزّاهيتين.

(أظن أن لديك الكثير الكثير من العلاقات الغرامية في كيمبريدج)، أخبرت إيرون - مبتهجة - وأنا أنقر بدبوس فوق قوقعة في إحدى المطاعم الفرنسية بكيمبريدج.

(يجب علي) اعترف إيرون بابتسامة صغيرة متواضعة (أن أجاري السيّدات).

التقطت صدفة الحلزون الفارغة وشربت عصير الأعشاب الأخضر. لم أدر إن كان ذلك لائقاً، لكنّني - بعد شهور من الحمية الصحية المملة في المصحة - شعرت بتوق شديد لتناول بعض الزبدة.

هاتفت الطبيبة نولان من هاتف المطعم العمومي، وطلبت الإذن لقضاء الليلة في كيمبريدج بصحبة جوان. لم تكن لديّ أدنى فكرة إن كان إيرون سيطلب مني أن أعود إلى شقته بعد الغداء أم لا، غير أن تخلصه من السيدة السلافية - والتي قد تكون زوجة أستاذ آخر - بدا مبشراً.

أرخيت رأسي إلى الوراء وملأت كأسي من نبيذ (نيوتس سان جورج).

(أنت تحبين النبيذ) لاحظ إيرون (مجرد اسم سان جورج، يجعلني أتخيله.. مع التنين[86]...)

مد إيرون يده ليلمس يدي.

شعرت أن أول رجل سأقيم علاقة معه لا بد أن يكون ذكيّاً، حتى أنظر إليه بعين الإحترام. كان إيرون أستاذاً جامعيّاً متفرّغاً، في السادسة والعشرين من عمره، وله بشرة شاحبة وملساء، مثل بشرة شاب عبقريّ، كما كنت في حاجة إلى شخص من ذوي الخبرة ليعوّض افتقاري للتجربة، وقد أكدت لي سيدات إيرون ذلك. ثم رغبت - كي أكون في أمان - في شخص لم أعرفه من قبل، ولن أواصل علاقتي به مستقبلاً - شخص شبيه بالغرباء الذي يبدون مثل الرهبان، كما في حكايا الطقوس القبلية.

ومع نهاية المساء، لم تصبح لديّ أية شكوك تجاه إيرون.

فمنذ أن علمت بفساد الأخلاقي لبدي ويلارد، وعذريّتي تثقل كاهلي كحجر رحى حول عنقي. لقد كان وجودها مهماً بالنسبة إلي، طوال السنوات التي عشتها في حياتي، حتى صرت أدافع عن بقائها مهما كلف الأمر. دافعت عنها لخمس سنين، ولقد ذقت ذرعاً بذلك.

ولما ألقى بي إيرون بين ذراعيه، حين عدنا إلى الشقة، ثم حملني، ثملة من النبيذ، إلى غرفة النوم المعتمة، همست له: (أتعلم، إيرون، ينبغي عليّ أن أخبرك أنّي عذراء).

ضحك إيرون وألقاني على السرير.

بعد بضع دقائق، كشف وجه إيرون الذاهل على أنه لم يكن قد أخذ كلامي على محمل الجد. كم كنت محظوظة حين قمت بإجراءات منع الحمل خلال النّهار، وإلا لما ألقيت اهتماماً للقيام بتلك العمليّة الحساسة والضرورية وأنا ثملة في تلك الليلة.استلقيت، منتشية وعارية، على بطانيّة إيرون الخشنة، في انتظار أن أشعر بذلك التحول الرائع.

غير أن كل ما شعرت به كان ألماً حاداً ومريعاً.

(إنه يؤلم) قلت (هل من المفترض أن أشعر بالألم؟)

لم ينبس إيرون ببنت شفة. ثم قال: (يؤلم أحياناً).

بعد فترة قصيرة نهض إيرون وذهب إلى الحمام، ثم سمعت صوت تدفّق مياه الدش. لم أكن متأكدة من أنه قد فعل ما كان يعتزم القيام به أم لا، أن أن عذريّتي قد حالت دون ذلك على نحو ما. أردت أن أسأله إن كنت لا أزال عذراء، لكنّني شعرت باضطراب شديد.

كان سائل دافئ ينساب من بين ساقيّ. مددت يدي، بتردد، ولمسته.

وحين رفعت يدي إلى الضوء المتسلل من الحمام، بدت أطراف أصابعي سوداء.

صحت بغضب (إيرون، أحضر لي المنشفة).

عاد إيرون، وهو يعقد منشفة حول خصره، ثم ألقى عليّ منشفة أخرى أصغر حجماً. دفعت المنشفة بين ساقيّ وسحبتها على الفور. بدا لونها قريباً من اللون الأسود جرّاء الدم.

(إنّني أنزف!) أعلنتُ، وأنا أثب مرتعبة.

(أوه، غالباً ما يحدث ذلك)، أكد إيرون مطمئناً. (ستكونين على ما يرام).

ثم أخذت تطفو في مخيلتي صور ملاءات الزفاف الملطخة بالدم وكبسولات الحبر الأحمر التي تستخدمها العرائس اللواتي فُضت بكارتهنّ قبل الزواج. تساءلت كم سأنزف من الدم، ثم تمددت، أعتني بالمنشفة. خطر ببالي أن الدم هو الجواب. لا يعقل أنني قد بقيت عذراء بعد هذه الدماء. ابتسمت في وجه الظلام. ثم شعرت أنني جزء من تقليد عظيم.

خلسةً، وضعت قطعة نظيفة من منشفة بيضاء على جرحي، بينما كنت أفكر بركوب عربة الترولي المتأخرة المتوجهة للمصحة إلى أن ينقطع النزيف. أردت أن أتأمل وضعي الجديد في سكينة تامة. لكنّ المنشفة عادت سوداء وتقطر دماً.

(يستحسن أن... أعود إلى المنزل) قلت بصوت خفيض.

(بالتأكيد، ولكن ليس الآن)

(بلى، من الأفضل أن أذهب).

سألت إيرون إن كان بإمكاني أن أستعير منشفته لأضعها بين ساقيّ كضماد. ثم ارتديت ملابسي التي تفوح برائحة العرق. عرض عليّ إيرون أن يوصلني إلى المنزل - ولكن، كيف لي أن أجعله يوصلني إلى المصحة؟ - ففتشت في حقيبتي بحثاً عن عنوان جوان. كان إيرون يعرف الشارع، فخرج ليدير محرّك السيّارة. كنت قلقة جداً من إخباره أنني مازلت أنزف. كنت آمل أن يتوقّف النّزيف في أيّة لحظة.

ولكنّني - وهو يقود السيّارة عبر الشوارع الجرداء التي تغطيها الثلوج - شعرت بالقطرات الدافئة وهي تتسرب عبر المنشفة وتنّورتي إلى مقعد السّيارة. ثم سرنا على أقدامنا ببطء، متجاوزين منزلاً مضاء إثر آخر، فكرت حينها بكوني محظوظة إذ لم أفقد عذريّتي وأنا في الكلية، أو حين كنت لا أزال أعيش في البيت، حيث سيكون من المستحيل إخفاء ذلك.

فتحت جوان الباب مندهشة، فَرِحة. قبّل إيرون يدي. وأخبر جوان ان تعتني بي.

أغلقت الباب ثم أسندت ظهري عليه، شعرت أن الدم سيجف من عروق وجهي في انسحاب مثير.

(إيستر، ما الخطب؟) قالت جوان.

تساءلت متى ستلاحظ الدم المنساب عبر ساقيّ، والذي يقطر، لزجاً، على فردتيّ حذائي الجلديّ الأسود الفاخر. خطر ببالي أنّني قد أموت وأنا أنزف جرّاء إصابتي بطلقة نارية بينما ستبقى

جوان واقفة أمامي وهي تحدق فيّ بعينيها الفارغتين، متوقّعة أن أطلب منها شطيرة وفنجاناً من القهوة.

(هل تلك الممرضة هنا؟)

(كلاّ، إنها في ورديّتها الليليّة في كابلان....)

(جيّد) ابتسمت بمرارة بينما كانت قطرات أخرى من الدماء تتسرب عبر المنشفة المبتلة، لتشق طريقها في رحلتها المملة إلى حذائي. (أقصد... سيئ)

(تبدين مضحكة) قالت جوان

(من الأفضل أن تحضري طبيباً).

(لماذا؟)

(بسرعة).

(ولكن...)

لم تكن قد لاحظت شيئاً بعد.

انحنيت، وأنا أنخر قليلاً، ثم خلعت إحدى فردتيّ حذائي الذي تشقق جرّاء الشتاء، والذي كنت قد اشتريته من محلات بلومنغدييل. رفعت فردة الحذاء، أمام عينيّ جوان، اللتين بلون الحصى، والمنفتحتين على اتساعهما. ثم قلبتها، وشاهدتها وهي تحدث في سيل الدماء المتقاطرة على السجادة التي بلون البيج.

(يا إلهي! ما هذا؟)

(إنّني أنزف).

كانت جوان تقودني تارة، وتجرّني تارة أخرى، نحو الأريكة، حتى جلعتني أتمدد عليها. ثم وضعت بعض الوسائد تحت قدميّ الملطختين بالدماء.

ثم تراجعت إلى الوراء وسألت: (من الرجل الذي فعل هذا بك؟)

ظننت، خلال لحظة جنون عابرة، أنّ جوان سترفض استدعاء الطبيب حتى أعترف لها بكل ما جرى في تلك الليلة التي قضيتها مع إيرون، وأنا ستواصل رفضها - حتى بعد اعترافي - كنوع من العقاب. لكنّني أدركت، أنها قد اكتفت بتصديق كلامي مستندة لتعابير وجهي، وأن ذهابي إلى السرير مع إيرون كان أمراً غير مفهوم بالنسبة لها، كما أن ظهوره بجانبي كان مجرد محفّز لفرحتها بقدومي.

(أوه، إنّه شخص ما)، قلت، بإيماءة تفيد الرّغبة في إنهاء النّقاش. كانت قطرات أخرى من الدماء قد تدفقت، فانكمشت عضلات بطني، وصرخت برعب (أحضري منشفة).

ذهبت جوان ثم عادت على الفور بكومة من المناشف والملاءات. نزعت عني ثيابي المبللة بالدماء - كممرضة على أهبة الإستعداد - ثم سحبت نفساً سريعاً حين وصلت إلى المنشفة الحمراء القديمة، ووضعت مكانها ضمادة جديدة. استلقيت، محاولة تهدئة دقات قلبي المتضاربة بقوة، حيث كان الدم يتدفق من جديد مع كل دقة.

تذكرت فصلاً مزعجاً من رواية تدور أحداثها في العصر الفيكتوري، إذ تموت امرأة تلو أخر، بوهن وشرف، في سيول من الدماء، إثر ولادات متعسرة. ربما جرحني إيرون بطريقة مريعة غامضة، كنت أشعر أنني أحتضر حقاً طيلة الوقت الذي كنت فيه مستلقية على أريكة جوان.

سحبت جوان وسادة هنديّة سميكة تستخدم كمسند للقدم، وراحت تتصل بقائمة طويلة من أطباء كيمبريدج. لم يُجب الرّقم الأول. راحت جوان تشرح حالتي للرقم الثاني، عندما أجاب لاتصالها، لكنّه قاطعها قائلاً: (هكذا إذن) ثم أغلق الخط.

(مالأمر؟)

(قال إنه لا يعالج سوى مرضاه الدائمين والحالات الطارئة. إنّه يوم الأحد).

حاولت رفع يدي والنظر إلى ساعتي، غير أن يدي مثل صخرة جاثمة بجوراي، فلم تتزحزح. يوم الأحد (فردوس الأطباء)! الأطباء في النوادي الرّيفيّة، الأطباء على الشواطيء،

الأطباء مع عشيقاتهم، الأطباء مع زوجاتهم، الأطباء في الكنيسة، الأطباء في اليخوت، الأطباء في كل مكاء، يريدون أن يصبحوا بشراً عاديّين.. لا أطباء.

(بحق السماء) قلت (أخبريهم أنني حالة طارئة).

لم يجب الرّقم الثالث، وأغلق الرقم الرابع الخط عندما أخبرته جوان أن الأمر يتعلق بالعادة الشهريّة. شرعت جوان بالبكاء.

(انظري، جوان)، قلت جاهدة (اتصلي بالمستشفى الحكومة أخبريهم أنها حالة طارئة. عليهم أن يأتوا ليأخذوني).

أشرق وجه جوان، فاتصلت برقم خامس. وعدتها موظفة خدمة الطوارئ أن أحد أطباء المستشفى سيتولى الإعتناء بي إن تمكنت من الذهاب إليهم. حينئذ، طلبت جوان سيارة أجرة.

أصرّت جوان على أن تركب معي. أمسكت المناشف الجديدة بشيء من اليأس، فيما قادنا السائق (الذي تأثر بالعنوان الذي أعطته له جوان) وهو ينعطف من زاوية إلى أخرى، في الشوارع الشاحبة التي تسللت إليها أشعة الفجر، ثم توقفت السيارة بعجلاتها التي كانت تصرّ عالياً، أمام مدخل قسم الطوارئ.

تركت جوان تدفع أجرة سائق المركبة، وهرعت إلى الغرفة الفارغة المضيئة. أسرعت نحوي ممرضة من وراء حاجز أبيض. تمكنت، بكلمات بسيطة وسريعة، من إخبارها بحقيقة وضعي، قبل أن تأتي جوان عبر الباب، وهي ترمش بعينيها الواسعتين مثل بومة قصيرة النظر.

ثم جاء طبيب قسم الطوارئ، فصعدت، بمساعدة الممرضة، إلى سرير الفحص. همست الممرضة بشيء في أذن الطبيب، أومأ الطبيب وأخذ ينزع المناشف الغارقة في الدماء. شعرت بأصابعه وهي تتحسس جرحي، فوقفت جوان - صارمة مثل جنديّ - إلى جواري، ممسكة بيدي، حتى تطمئن نفسها أو تطمئنني، لم أستطع أن أعرف بالتحديد.

(آخ) جفلتُ، حين شعرت بوخز شديد.

صفّر الطبيب بفمه.

(أنت واحدة في المليون)

(ماذا تقصد؟)

(أعني ان هذه الحالة تحدث مرة كل مليون حالة).

تحدث الطبيب إلى الممرضة بصوت جديّ منخفض، فهرعت إلى الطاولة الجانبية، وأحضرت لفائف من شاش وأدوات فضيّة. ثم قال الطبيب وهو ينحني: (أستطيع أن أحدد مصدر المشكلة).

(وهل تستطيع علاجه؟)

ضحك الطبيب. (أوه، يمكنني ذلك بالطبع، سيكون كل شيء على ما يرام).

انتشلني من النوم الذي غرقت به صوت طرق خفيف على الباب. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكانت المصحة هادئة كهدوء الموت. لم أستطع أن أتخيّل الشخص الذي يمكن أن يبقى مستيقظاً حتى هذه الساعة.

(تفضل) ثم أشعلت الضوء الذي بجانب السرير.

انفرج الباب قليلاً، فأطل رأس الطبيبة كوين الحاد، والمعتم، من الفرجة. نظرت إليها مندهشة، لأنني أعرف من تكون، فغالباً ما كنت أومئ إليها بإيماءة قصيرة كلما ممرت أمامها في ممر المصحة. ولكنني لم أكلمها قط.

ثم قالت: (آنسة غريينوود، هل يمكنني الدخول لبعض الوقت؟)

أومأت لها.

دلفت الطبيبة كوين إلى الغرفة، وأغلقت الباب بهدوء خلفها. كانت ترتدي إحدى بزّاته الكحليّة الناصعة وبلوزة عاديّة بيضاء كالثلج، تأخذ شكل حرف V عند العنق.

(متأسفة لإزعاجك، آنسة غريينوود، خاصّة في هذا الوقت المتأخر من الليل، لكنني فكرت أنك قد تكونين قادرة على مساعدتنا فيما يخص أمر جوان).

تساءلت، للحظة، إن كانت الطبيبة كوين ستلومني بشأن عودة جوان إلى المصحة، لم أكن واثقة مما عرفته جوان بالتحديد بعد أن عودتنا من رحلتنا إلى قسم الطوارئ، لكنّها عادت، بعد بضعة أيام، لتقيم في بلسايز، محتفظة بامتيازات الذهاب إلى البلدة رغم ذلك.

(سأبذل قصار جهدي) قلت للطبيبة كوين.

جلست الطبيبة كوين على طرف سريري بوقار. (نود أن نعرف أين جوان. فكرنا أنك قد تعرفين مكانها).

أردت، فجأة، أن أفصل نفسي عن جوان تماماً. (لا أدري) قلتُ ببرود (أليست في غرفتها؟)

كان الوقت قد جاوز ساعة حظر التجول.

(كلاّ، لقد سُمِح لها بالذهاب لمشاهدة فيلم في البلدة هذا المساء، ولكنها لم تعد إلى الآن).

(من كان معها؟)

(كانت لوحدها) أطرقت الطبيبة كوين. (هل لديك فكرة عن المكان الذي يمكن أن تقضي به الليل؟)

(من المؤكد أنها ستعود. لا بد أن شيئاً ما قد أعاق عودتها). لكنّني لم أجد ما يمكن أن يعيقها في ليل بوسطن الأليف.

هزّت الطبيبة كوين رأسها. (مرّت آخر عربة ترولي منذ ساعة).

(ربما ستعود في سيارة أجرة)

تنهدت الطبيبة كوين.

(هل سألتم الآنسة كينيدي؟) واصلت كلامي. (أين كانت جوان تقيم عادة؟)

أومأت الطبيبة كوين بالإيجاب.

(وعائلتها؟)

(أوه، لم تذهب إلى هناك قط... لكنّنا اتصلنا بهم أيضاً).

انتظرت الطبيبة كوين للحظة، كما لو كانت تحاول إيجاد دليل ما في الغرفة الهادئة. ثم قالت: (حسناً، سنفعل كل ما في وسعنا)، وغادرت.

أطفأت الضوء، وحاولت العود إلى النوم من جديد، غير أن وجه جوان لاح أمامي، مبتسماً بلا جسد، مثل وجه القط تشيشير[87]. حتى أنني سمعت صوتها، يحف الصمت، إلى أن سكن في العتمة، ثم أدركت أنها ريح الليل التي تداعب أشجار المصحة...

أيقظني طرق خفيف آخر في الفجر البارد الكئيب.

فتحت الباب بنفسي هذه المرّة.

كانت الطبيبة كوين أمامي مباشرة. وقفت متيقظة، كملازم شرطة واهن، لكن قسمات وجهها بدت باهتة على نحو غريب.

(أعتقد أنك يجب أن تعرفي) قالت الطبيبة كوين (لقد تم العثور على جوان)

جمد استخدامها لصيغة المجهول الدم في عروقي.

(أين؟)

(في الغابة، قرب البحيرات المتجمدة...)

فتحت فمي، لكنني لم أقوَ على الكلام.

(وجدتها إحدى الممرضات) واصلت الطبيبة كوين حديثها، (منذ قليل فقط، وهي في طريقها إلى العمل....)

(إنها ليست...)

(إنها ميّتة) قالت الطبيبة كوين (أخشى أنها قد شنقت نفسها).

(20)

وكان ثلج جديد قد انهمر فكسا أراضي المصحة باللون الأبيض - لم تكن بلورات الثليج الخاصة بأعياد الميلاد، بل ثلج كانون الثاني الذي يغمر الأرض بارتفاع قمة رجل بالغ، ومن ذلك النوع الذي يتسبب في تعطيل الحياة وإغلاق المدارس ومكاتب العمل والكنائس، ويترك - ليوم أو أكثر - صفحة بيضاء فارغة في دفاتر المواعيد والتقاويم والرسائل الرسمية.

إن اجتزت مقابلتي مع مجلس المدراء خلال هذا الاسبوع، فسوف تقلّني السيارة السوداء الكبيرة لفيلومينا غوينا، غرباً، إلى أبواب كليّتي المسورة بالحديد.

قلب الشتاء!

ستغرق ماساتشوستس في هدوء ثقيل بارد. تخيّلت لوحات القرى المغطاة بالثلوج التي رسمتها جدّة موسى[88]، وأراضي المستنقعات التي تخشخش فيها الأعشاب، والبرك التي يحلم فيها الضفدع والسلور في طبقة من الجليد، والغابات المرتعشة الأطراف.

ولكن، أسفل اللوح الصخري المسطح والنظيف على نحو مخادع، كانت التضاريس هي نفسها، فبدلاً من سان فرانسيسكو أو أوروبا أو المرّيخ، فإنني سأعيد اكتشاف المنظر الطبيعي القديم ذاته، بأنهاره وتلاله وأشجاره. بدا الأمر تافهاً على نحو ما، أن أبدأ بعد ستة أشهر، بعد أن غادرت بعنف.

سيعرف الجميع عنّي، بطبيعة الحال.

قالت الطبيبة نولان (بصراحة تامة) أن الكثير من الأشخاص سوف يعاملونني بحذر شديد، أو قد يتجنبون التعامل معي مطلقاً، كما لو كنت مجذوماً يحمل جرساً محذراً. لاح وجه أمي، مثل قمر مؤنب شاحب، خلال زيارتها الأخيرة والأولى للمصحة منذ عيد ميلادي العشرين. ابنة في مصحة للأمراض العقليّة! أنا من تسبّب لها بذلك. ورغم ذلك، فقد قرّرت بوضوح أن تغفر لي.

(سنبدأ من حيث انتهينا، إيستر)، قالت، بابتسامة عذبة تشبه ابتسامة الشهداء. (سننتصرف كما لو كان كل ذلك حلماً فظيعاً).

حلم فظيع.

بالنسبة إلى الشخص الجالس تحت الجرس الزجاجي، منهكاً وشاحباً كطفل ميّت، فإن العالم مجرد حلم فظيع.

حلم فظيع

تذكرت كل شيء.

تذكرت الجثث، ودورين، وحكاية شجرة التين، وماسة ماركو، والبحار الذي التقيته في متنزه كومون، وممرضة الدكتور جوردت ذات العين البيضاء، وموزاين الحرارة المكسورة، والزّنجيّ مع أصناف الفاصوليا واللوبياء، والعشرين جنيهاً التي اكتسبتها من الإنسولين، والصخرة التي تقف بين السماء والبحر كجمجمة رماديّة.

ربما يتوجب على النسيان أن يخدرها ويغطيها مثل الثلج.

لكنّها كانت جزءاً منّي. كانت منظري الطبيعيّ.

(هناك رجل يرغب في رؤيتك!)

حشرت الممرضة المبتسمة رأسها المغطى بقبعة ببياض الثلج عبر الباب، فظننت ـ لبرهة ـ أنني عائدة إلى الكليّة، وأنّ هذا الأثاث الأبيض الأنيق، وهذا المنظر الأبيض الذي يعلو الأشجار والتلال، أفضل بكثير من مكتب غرفتي القديمة وكراسيّها المكسورة ومنظرها الذي يُطل على ساحة الكليّة الجرداء (ثمة رجل يود رؤيتك!) قالت الفتا التي تقوم بمراقبة هاتف المهجع.

بماذا نختلف، نحن اللواتي في بلسايز، عمن يلعبن البريدج ويثرثرن ويدرسن في الكليّة التي سوف أعود إليها؟ لقد كن يجلسن جميعاً، هنّ الأخريات، تحت أجراس زجاجية من نوع ما.

(تفضل!) ناديت، فدخل بدي ويلارد إلى الغرفة، حاملاً قبعة خضراء داكنة في يده.

(حسناً بدي) قلت.

(حسناً، إيستر).

وقفنا ننظر إلى بعضنا. انتظرت أن تتحرك مشاعري نحوه، أو أن تتورد وجنتاي ولو قليلاً. لكن لا شيء. لا شيء سوى الضجر العظيم. بدت قامة بدي قصيرة في سترته الخضراء، ولا تمت لي بأيّة صلة، مثل الأعمدة البنّية التي وقف أمامها في ذلك اليوم، منذ سنة، أسفل مدرج التزلج.

(كيف وصلت إلى هنا؟) سألته أخيراً.

(بسيارة أمي)

(مع كل هذا الثلج؟)

(حسناً) تبسم بدي، (لقد علقت في جرف ثلجيّ في الخارج. كان صعود التل بالسيارة صعباً عليّ. هل يوجد أي مكان هنا يمكنني أن أستعير منه مجرفة؟)

(يمكننا الحصول على مجرفة من أحد المزارعين).

(جيّد). استدار بدي ليذهب.

(انتظر، سآتي لأساعدك).

حينئذ، نظر بدي إليّ، فرأيت في عينيه وميضاً غريباً، كذلك الفضول المختلط بالحذر الذي رأيته في عيون العالمة المسيحية، وأستاذي القديم الذي يدرّس الإنجليزية، والقس الموّحد، وكل من كان يزورني.

(أوه، بدي) ضحكت (إنني بخير).

(أوه، أعلم، أعلم، إيستر) قال بسرعة.

(لقد كان بيدك أن لا تعطل سيارتك، لا بيديّ أنا).

وتركني أقوم بمعظم العمل.

كانت السيارة قد انزلقت على التل المتجمد إلى المصحة، ثم تراجعت بسرعة على حافة الطريق، نحو الجرف الثلجي المرتفع.

أشرقت الشمس من وراء الغيوم الرمادية، بأشعتها الصيفية التي أنارت المنحدرات التي لم يطأها أحد. توقفت عن العمل لأتأمل ذلك الامتداد البدائيّ، شعرت بحماس عارم لرؤية الأشجار والأعشاب التي تتطاول حد الخصر أسفل مياه المد - كما لو كان النظام الطبيعي للعالم قد انحرف عن مساره قليلاً، ليدخل في مرحلة جديدة.

كنت ممتنة للسيارة والجرف الثلجيّ لأنهما قد حالا دون أسئلة بدي المرتقبة. لكنه سألني، في آخر الأمر، بصوت متوتر منخفض، بينما كنا نحتسي شاي الظهيرة في بلسايز. كانت ديدي تراقبنا، مثل قطة حسود، من فوق حافة كأسها. كانت ديدي قد انتقلت، بعد وفاة جوان، إلى وايمارك لفترة وجيزة، ولكنّها عادت إلينا من جديد.

(كنت أتساءل...) وضع بدي فنجانه في صحنه مصدراً صوت قعقعة غريب.

(عن ماذا كنت تتساءل؟)

(كنت أتساءل... أعني، فكرتُ أنّك قد تكونين قادرة على إخباري بشيء ما). تلاقت نظراتنا، فرأيت - لأول مرة - كم تغيّر. فبدلاً من الابتسامة الواثقة القديمة التي كانت تلمع بسهولة دائماً، كمصباح مصور فوتوغرافيّ، كان وجهه قاتماً، وحتى متردداً - مثل وجه رجل لا يحصل على ما يريده في أغلب الأحيان.

(سأخبرك إن استطعت ذلك، بدي).

(هل تعتقدين بوجود شيء في شخصيتي يجعل النساء التي أعرفهنّ يصبن بالجنون؟)

لم أتمالك نفسي، انفجرت ضاحكة - لعلها كانت الطريقة التي بدا فيها وجه بدي جاداً، وما خلفه المعنى الشائع لكلمة (جنون) في جملة كتلك.

(أعني) واصل بدي حديثه (كنت أواعد جوان، ثم انت، ولكنك.. رحلت، ثم جوان...)

برفق - وبإصبع واحد - ألقيت كسرة كعك في قطرات الشاي الأسود.

(بالطبع لا، لا علاقة لك في ذلك!) سمعت الطبيبة نولان تقول، عندما ذهبت إليها بما يخص أمر جوان، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أذكر أنني سمعت فيها صوتها الغاصب: (لا علاقة لأحد في ذلك. هي وحدها المسؤولة). ثم أخبرتني كيف تحدث حالات انتحار بين المرضى الذين يتعالجون تحت أفضل الأطباء النفسانيّين، وكيف يمكن أن يُلاموا على ذلك - إن كان ثمة من يُلام - لكنّهم مع ذلك لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين....

(لا علاقة لك بما حدث، بدي)

(هل أنت متأكدة؟)

(بالطبع)

(حسناً)، تنفس بدي الصعداء. (كم أنا سعيد لسماع ذلك).

وتجرّع شايه مثل دواء منشط.

دخلت إلى جانب فاليري ضمن المجموعة الصغيرة التي تشرف عليها الممرضة (بمجرد أن يوافق الأطباء، سأقابلهم غداً).

صرّ الثلج المكدس تحت الأقدام، فسمعت أنغام ذوبان الماء وتقاطره، حين أذابت شمس الظهيرة كتل الجليد وطبقات الثلج التي ستصبح مصقولة مرة أخرى، قبل هبوط الليل.

كانت ظلال أشجار الصنوبر السوداء الكثيفة خافتة في ذلك الضوء الساطع، فمشيت مع فاليري، لبرهة، على طول المتاهة المألوفة لمسالك المصحة التي تم فتحها بالمجارف. كان الأطباء والممرضات والمرضى يعبرون مسالك متجاورة تبدو كأنها تتحرك على عجلات، فيما يقسم جسدهم الثلج المكدس عند الخصر.

(مقابلات!) أطلقت فاليري صوتاً يشبه الشخير. (إنها بلا فائدة! إن كانوا سيطلقون سراحك، فإنهم سيطلقون سراحك).

(آمل ذلك).

أمام مبنى كابلان، قلت وداعاً لوجه فاليري الهادىء الأبيض كالثلج - والذي لا يمكنك أن تستشف منه أي شيء، خيراً كان أم شراً - وسرت وحيدة، أزفر أنفاساً بيضاء حتى في الجو الذي اكتسحته الشمس. كانت آخر صيحة ابتهاج قالتها فاليري (وداعاً! إلى اللقاء).

(لا أعرف) فكرت.

لم أكن متأكدة. لم أكن متأكدة مطلقاً. كيف سأعرف أن الجرس الزجاجي سيهبط، ذات يوم، في الكلية، أو في أوروبا، أو في مكان آخر، في أي مكان ممكن، بكل تشوهاته الخانقة مرة أخرى؟

ألم يقل بدي، كما لو كان ينتصر لنفسه حين حفرت الثلج لأخرج السيارة مما أعاقها، وهو ينظر إليّ (أتساءل من ستتزوجين الآن، إيستر)

(ماذا؟) قلت وأنا أكوم الثلج الذي جرفته، وأنظر إليه من وراء بلورات الثلج التي طرفت لها عيني عندما حملتها إليها الرياح.

(أتساءل من ستتزوجين الآن، إيستر، وقد كنت...) وأشارت يده إلى التل وأشجار الصنوبر والبنايات المتجهة المغطاة بالثلج وهي تشق المنظر الطبيعيّ المترامي (هنا)

لم أعرف من سأتزوج الآن، بعد أن كنت حيث كنت. لم أعرف أبداً.

....

(لديّ فاتورة هنا، إيرون).

تحدثت، بهدوء، في سماعة هاتف المصحة العموميّ الذي في الممر الرئيس لمبنى الإدارة، شككت بادىء الأمر، أن تكون مراقبة الهاتف تتنصت على مكالمتي، لكنها واصلها وضع الصمامات الصغيرة ونزعها من دون أن يطرف لها جفن.

(نعم) قال إيرون.

(إنها فاتورة بعشرين دولاراً مقابل عناية قسم الطوارىء في أحد أيام شهر كانون الأول والفحص الذي تلا ذلك بأسبوع)

(نعم) قال إيرون.

(يقول المستشفى إنهم يرسلون الفاتورة لأنهم لم يتلقوا جواباً على الفاتورة التي أرسلوها إليك).

(حسناً، حسناً، إنني أكتب شيكاً الآن. إنني أكتب لهم شيكاً على بياض). ثم تغير صوت إيرون على نحو مهذب. (متى سأراك؟)

(أتريد أن تعرف ذلك حقاً؟)

(أجل، بشدة)

(لن تراني أبداً) قلت، وأغلقت السماعة مصدرة صوت قرقعة حازم.

تساءلت للحظة إن كان إيرون سيرسل الشيك إلى المستشفى بعد هذه الحادثة، ثم فكرت: (سيرسله بالطبع، إنه أستاذ في الرياضيات - لن يرغب في ترك أي أمور عالقة).

شعرت على نحو لا يمكن تفسيره، بالراحة، وبضعف الإرادة.

لم يعنِ صوت إيرون أي شيء بالنسبة لي.

كانت هذه المرة الأولى التي تحدثت فيها معه، منذ لقائنا الأول والأخير، وكنت على يقين أنها ستكون المرة الأخيرة. حيث لم يكن لدى إيرون أي وسيلة للوصول إليّ، إلا إذا ذهب إلى شقة الممرضة كينيدي التي انتقلت منها، بعد وفاة جوان، إلى مكان آخر، من دون أن تخلف أثراً وراءها.

كنت حُرّة تماماً.

دعاني والدا جوان لحضور جنازتها.

لقد كنت، كما قالت السيدة غلينغ، واحدة من أعز صديقات جوان.

(لست ملزمة بالذهاب، كما تعلمين) قالت لي الطبيبة نولان. (يمكنك أن ترسلي لهما خطاباً تقولين فيه أنني قد أخبرتك أنه من الأفضل ألا تذهبي).

(سأذهب) قلت، وذهبت فعلاً، تساءلت، طيلة القداس البسيط، ما الذي أعتقد أنني أدفنه تحت التراب؟

وعلى المذبح، لاح الكفن في أزهاره الشاحبة كالثلج، كظل أسود لشيء لم يكن موجوداً. كانت الوجوه، في المقاعد الخشبيّة الطويلة المحيطة بي، شاحبة مع ضوء الشموع، وأغصان الصنوبر، التي خلفتها أعياد الميلاد، مرسلة في الهواء البارد رائحة بخور جنائزيّ.

تورّدت وجنتا جوان - قربي - كتفّاحتين مكتملتي النضج. استطعت أن أتعرّف، في جمع المعزّين المحتشدين للصلاة في الكنيسة، وعلى وجوه متناثرة هنا وهناك لفتيات أخريات من الكلية، ومن بلدتي، ممكن كنّ على معرفة بجوان. أحنت ديدي والممرضة كينيدي رأسيهما المغطين بوشاحين في المقعد الخشبيّ الأماميّ.

ثم رأيت - خلف الكفن والأزهار ووجه القس ووجوه المعزّين - امتداد مروج مقبرة بلدتنا، وهي غارقة في الثلج الذي يصل إلى الركب، وشواهد القبور تتطاول منها كمداخن بدون دخان.

على أرضها الصلبة انشقت حفرة سوداء، بعمق ستة أقدام. سيتحد ذلك الظل مع هذا الظل، وتشفي تربتنا الصفراء التي لا مثيل لها، الجرح الذي في البياض، وسيمحو الثلج المنهمر آخر آثار حداثة قبر جوان.

أخذت نفساً عميقاً واستمعت إلى التباهي القديم في قلبي.

أنا.. أنا.. أنا

كان الأطباء يعقدون اجتماعهم الأسبوعي لمجلس الإدارة - الحالات القديمة، الحالات الجديدة، الحالات التي سيسمح لها بالدخول، الحالات التي سيسمح لها بالخروج، والمقابلات. بينما

كنت أتصفح ـ عبثاً ـ عدداً قديماً من مجلة ناشونال جيوغرافيك في مكتبة المصحة، منتظرة قدوم دوري.

كان المرضى يتجولون بصحبة الممرضات حول الرفوف المكدسة بالكتب، متحدثين بأصوات منخفضة، مع أمينة مكتبة المصحة، والتي كانت إحدى نزيلات المصحة في السابق. تساءلت، وأنا أنظر إليها ـ عانساً، ضعيفة النظر، متوارية عن الأنظار ـ كيف علمت أنها قد غادرت المصحة نهائياً، وإنها، بخلاف الذين يرتادون المكتبة، قد شُفيت تماماً.

(لا تخافي)، قالت لي الطبيبة نولان. (سأكون هناك، مع بقية الأطبّاء الذين تعرفينهم، وبعض الزوار. سيسألك الدكتور فينينغ، رئيس الأطباء، بعض الأسئلة، ثم يمكنك الانصراف).

إلا أنّني، ورغم تطمينات الطبيبة نولان، كنت خائفة حتى الموت.

كنت آمل، عند مغادرتي، أن أشعر بالثقة، وأن أكون واعية بكل الأشياء التي سوف تنتظرني في الخارج ـ على أيّة حال، فقد تم إخضاعي للتحاليل بدلاً من ذلك، ورغم ذلك، فإن جلّ ما استطعت رؤيته هو علامات الاستفهام.

واصلت إلقاء نظرات خاطفة على باب غرفة مجلس الإدارة المغلق. كانت طبقات جوربي مستقيمة، وحذائي الأسود مشقّقاً، ولكنّه ملمع، وسترتي الصوفية الحمراء المتوهجة مثل مخططاتي. شيء قديم، شيء جديد...

ولكنّني لم أكن أخطط للزواج. لا بد أن ثمة طقساً للولادة من جديد، بعد أن أتماثل للشفاء ويُسمح لي بالخروج، كنت أحاول التفكير في شخص مناسب، حين ظهرت الطبيبة نولان من حيث لا أعلم، وربّتت على كتفي.

(حسناً، إيستر)

نهضت وتبعتها إلى الباب المفتوح.

وحين توقفت لالتقاط نفس قصير، عند العتبة، رأيت الطبيب ذا الشعر الرمادي، الذي حدثني في يوم الأول، عن الأنهار والمهاجرين الإنجليز. ثم رأيت وجه الآنسة هيوي الشاحب الممتلىء

بالبثور، وبعض العيون التي ظننت أني أعرفها، وهي فوق الأقنعة البيضاء.

استدارت كل العيون والوجوه نحوي، وهي ترشدني إلى الطريق، كما لو كنت شعاعاً سحريّاً، ثم دخلت إلى الغرفة.

Notes

[1←]

جوليوس وإيتيل روزنبرغ: Rosenberg Julius and Ethel زوجين شيوعيين من أصل يهودي من مدينة نيويورك ادينا بتهمة التجسس للاتحاد السوفيتي سنة 1950 وتم الحكم عليهما بالإعدام بالكرسي الكهربائي الذي نفذ فيهما سنة 1953 في سجن سنج سنج.

[2←]

التَّسَفُّع أو التسَمُّر، هي العملية التي يغمَقّ فيها لون الجلد أو يسمرّ. عملية التسفع في معظم الأحيان تكون نتيجة للتعرض للاشعاعات فوق البنفسجية من الشمس، أو من مصادر صناعية كجهاز تسمير البشرة

[3←]

حوال 177.8 سنتيمتر

[4←]

الماء الميت (dead water) هو مصطلح بحري لظاهرة تحدث عندما ترتكز طبقة من المياه العذبة أو المائلة للملوحة فوق المياه المالحة الكثيفة، دون أن تختلط الطبقتين

[5←]

الغرفين أو الشيردال حيوان أسطوري له جسم أسد، ورأس وجناحا عقاب، استخدم الأوربيون صوره وقصصه كثيرا في تراثهم ورمزا لأسرهم ومؤسساتهم ودولهم. استخدموه في العمارة في منشآتهم الدينية والمدنية والعسكرية. يماثله أيضا أبو الهول، ولكن الفرق أن رأس أبو الهول رأس إنسان وجسمه جسم أسد.

[6←]

رقصة الهولا: Hula هي رقصة مشهورة في جزر الهاواي.

[7←]

المرصبان Marzipan أو معجون اللوز هو نوع من أنواع الحلويات السكرية ويصنع من اللوز المطحون والسكر وماء زهر الليمون وبعض الملونات الأخرى

[8←]

Vichyssoise هو حساء سميك مصنوع من الكراث المسلوق والمصفى والبصل والبطاطا والكريمة ومرق الدجاج. يتم تقديمه على الطريقة التقليدية الباردة ولكن يمكن تناوله ساخنًا.

[9←]

المنك (أو المينك) (Mink) حيوان لاحم صغير تتميز أنواعه الموجودة بأمريكا الشمالية بفروها الثمين، ويتواجد أيضاً في أوروبا. يعيش حتى عمر 10 أو 12 سنة.

[10←]
السلاف أو الصّقالبة هم مجموعة إثنية لغوية هندو أوروبيَّة يتحدثون باللغات السلافيَّة المتنوعة للمجموعة اللغوية البلطيقية السلافيَّة الأكبر. هم مواطنون في أوراسيا، ويمتد إنتشارهم من وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا على طول الطريق نحو الشمال والشرق إلى شمال شرق أوروبا وشمال آسيا (سيبيريا) والقوقاز وآسيا الوسطى (وخاصةً كازاخستان وتركمانستان) وكذلك تاريخياً في أوروبا الغربية (لا سيَّما في ألمانيا الشرقية) وغرب آسيا (بما في ذلك الأناضول). من أوائل القرن السادس انتشروا ليعيشوا في غالبية مناطق أوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية. يوجد اليوم عدد كبير من الجالية السلافية في جميع أنحاء أمريكا الشمالية، ولا سيما في الولايات المتحدة وكندا نتيجة للهجرة.

[11←]
كوني آيلاند Coney Island شاطىء لشبه جزيرة مطلة على المحيط الأطلسي في جنوب بروكلين، نيويورك، الولايات المتحدة. كانت تعتبر كوني ايلاند واحدة من أفضل المتنزهات الليلية والمنتجعات خلال النصف الأول من القرن 20.

[12←]
سنترال بارك هي حديقة كبيرة موجودة في مانهاتن، مدينة نيويورك، الولايات المتحدة. تبلغ مساحتها 3، 4 كم²، وتستقبل سنوياً حوالي 37.5 مليون زائر

[13←]
التوأم شيم وشون الوارد ذكرهما في رواية يقظة فينيغان.

[14←]
ستينوغرافي: يعرف أيضا بالكتابة الإختزالية أو الكتابة بالمختصرات خط مجموع، وهو أسلوب رمزي في الكتابة، الغرض منه الإيجاز وزيادة سرعة الكتابة، بالمقارنة مع طريقة الكتابة الاعتيادية. ويسمى أيضا «الاختزال». توجد العديد من أشكال الكتابة الاختزالية. يوفر نظام الاختزال النموذجي الرموز أو الاختصارات للكلمات والعبارات الشائعة، والتي يمكن أن تسمح لشخص ما مدربا تدريبا جيدا، في استخدام نظام الكتابة بسرعة توازي سرعة تحدث الناس. طرق الاختصار مبوبة على أساس الحروف الأبجدية وتستخدم نهج اختزال مختلفة. العديد من برامج الإكمال التلقائي، تطور مستقلة أو تدمج في برامج تحرير النصوص اعتمادا على قوائم الكلمات، وتشمل أيضا وظيفة اختزال لعبارات التي تستخدم غالبا. قبل اختراع آلات التسجيل والاملاء، كان الاختزال يستخدم في الماضي على نطاق واسع. واعتبر الاختزال جزءا أساسيا من تدريب السكرتارية، فضلا عن كونه مفيدا للصحفيين. على الرغم من أن الاستخدام الرئيسي للاختزال، كان لتسجيل الإملاء الشفوي أو الخطاب، استخدمته بعض النظم للتعابير المدمجة. على سبيل المثال، استخدام محترفي العناية الصحية الاختزال لكتابة الملاحظات في البطاقات الطبية والمراسلات. الكتابةالاختزالية عادة ما تكون مؤقتة، وتهدف إما للاستخدام الفوري ثم النسخ في وقت لاحق إلى الكتابة العادية، على الرغم من ان البعض استخدمها مدى طويلاً، كما في يوميات (ببيس صموئيل) صموئيل بيبس الشهيرة، كمثال شائع.

[15←]

بيت ديفيس (5 أبريل 1908 ـ 6 أكتوبر 1989) (بالإنكليزية: Bette Davis) كانت ممثلة أمريكية، حصلت على جائزة أوسكار مرتين لأفضل ممثلة عام 1935 عن دورها فيلم خطر وعام 1938 عن دورها في فيلم جزيبل

[16←]

جون أليسون (أكتوبر 1917 ـ 8 يوليو 2006) ممثلة مسرحية، سينمائية، تلفزيونية، راقصة ومغنية أمريكية.

[17←]

إليزابيث تايلور (27 فبراير 1932 ـ 23 مارس 2011) لقبت بلقب «قطة هوليود المدللة» هي ممثلة يهودية ولدت لأب بريطاني تاجر قطع فنية وأم أمريكية، وهي تملك الجنسيتين البريطانية والأمريكية. حصلت إليزابيث تايلور على جائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مرتين الأولى عن دورها في فيلم باترفيلو 8 والثانية عن دورها في فيلم من يخاف فيرجينا وولف التي جسدت خلاله شخصية مارتا

[18←]

سمكُ القدِّ اسمٌ مشهورٌ لجنس (جادوس)، يعيش في المياه الشمالية في المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي، يعد من الأسماك سميكة اللحم والنكهة الخفيفة مع امتيازه بانخفاض نسبة الدهون فيه، وبلحمه الأبيض الكثيف ذو التقشير السهل، ويعتبر القد من الأسماك الفاخرة ذات الأطباق الفخمة التي تطلب في المطاعم.

[19←]

التومائين اصطلاح جامع، استخدم لأول مرة من فرانس سلمي 1878م، لمجموعة من المركبات الآزوتية الأساسية التي تتكون عند تقسيم البروتين، ولا يحمل أي معنى محدد. وهناك مجموعة من المركبات الناتجة عن تعفن المواد الحيوانية، تسبب أعراض تسمم، إذا زرقت. وكان يعتقد أنها تسمم الطعام، ولكن تبين أن أمينات بتركيب مشابه، تتكون عند تفسخ البروتين في الأمعاء العادية. ولا يمكن أن تسبب الكميات المأخوذة بالفم نوعاً من التسمم.

[20←]

الدير هو مبنى عبادة لدى بعض الديانات كالبوذية والمسيحية يستخدم للعبادة والتأمل.

[21←]

التوحيدية هي حركة لاهوتية مسيحية دينية سميّت كذلك استنادًا إلى مفهومها عن وحدانيّة الله حيث ترفض عقيدة التثليث، بالمقابل تعتبر عقيدة التثليث معتقد ديني يعني بأن الله الواحد ثلاثة أقانيم أو ثلاث حالات في نفس الجوهر المتساوي. أصحاب عقيدة التوحيد يؤمنون أن يسوع هو بشكل من الأشكال «إبن» الله، ولكنه ليس هو الإله الواحد. وكما هو معروف فإن دعاة التوحيد يرفضون العديد من عقائد المذاهب المسيحية التقليدية الأخرى؛ بما في ذلك عقيدة السوتريولوجيا والخطيئة الأصلية؛ وفي الآونة الأخيرة يرفض أتباع التوحيدية عقيدة عصمة الكتاب المقدس. صنّف ج. جوردون ميلتون مذهب التوحيدية المسيحية في موسوعة الأديان الأمريكية؛ المذهب بين أسرة الكنائس «المسيحيّة الليبراليّة». تُعتبر الحركة التوحيدية أحيانًا ضمن الطوائف البروتستانتية بسبب أصولها التي تعود إلى حركة الإصلاح، وتعاونها القوي مع المذاهب البروتستانتيَّة الأخرى منذ القرن السادس عشر، ويُمكن اعتبار الموحدين موحدين بروتستانت، أو ببساطة الموحدين. في حين هناك

وجهات نظر تستبعد التوحيدية من ضمن المذاهب البروتستانتية بسبب طبيعتها اللاثالوثية وتعتبرها ببساطة حركة مسيحية لاثالوثية.

[22←]
بثرة الصنوبر blister rust: مرض فطري يصيب أشجار الصنوبر الأبيض.

[23←]
دارتموث Dartmouth أول مكان انطلقت منه الوحداث الصليبية الإنكليزية عام 1147 بقيادة بطرس الناسك

[24←]
سيدنى جرينستريت هو ممثل تعبيري وممثل بريطاني وأمريكي، ولد في 27 ديسمبر 1879 في المملكة المتحدة، وتوفي في 18 يناير 1954 بهوليوود في الولايات المتحدة بسبب السكري.

[25←]
غرايز أناتومي بالإنكليزية: s Anatomy'Gray أو تشريح غراي كتاب باللغة الإنكليزية عن تشريح جسم الإنسان، كتبه هنري غراي. الطبعات الأولى من هذا الكتاب كانت تدعى: «التشريح»: الوصفي والجراحي، ولكن اسم هذا الكتاب أصبح يعرف ويختصر إلى اسم: «غرايز أناتومي»، وكذلك أصبح عنوان الطبعات الحديثة منه. يعتبر هذا الكتاب من الكتب التي تركت أثراً واضحاً في مجاله، واستمر تنقيح الكتاب وإعادة نشره منذ إصداره الأول عام 1858 ليومنا الحاضر. الطبعة الحالية هي الإحدى والأربعون من هذا الكتاب نُشرت في عام 2015، ويمثل هذا العام مرور 157 عاماً على أول إصدار له

[26←]
كيب كود هو رأس جغرافي يمتد إلى المحيط الأطلسي من الركن الجنوبي الشرقي من ولاية ماساتشوستس، في شمال شرق الولايات المتحدة. تجذب طابعها التاريخي البحري وشواطئها الواسعة السياحة الثقيلة خلال أشهر الصيف.

[27←]
جبال آديرونداك هي سلسلة جبال تقع في الجزء الشمالي الشرقي من ولاية نيويورك.

[28←]
الطب النَّفْسَجِسْمِيّ هو فرع من الطب يعنى بالأمراض النفسية الجسمية أو الأمراض النفسجسمية (أو الأمراض السيكوسوماتية في الترجمات الحرفية) وهي أمراض تؤثر فيها العوامل الذهنية والنفسية للمريض تأثيراً كبيرا في نشوئها وتطورها وتعكرها، مثل: الصداع النصفي، والأكزيما، والقرحة، والقولون العصبي...إلخ، وفي حالة إجراء فحص طبي، لا يظهر لهذه الأمراض أي أسباب جسمية أو عضوية، أو في حال حدوث مرض ناتج عن حالة عاطفية أو مزاجية مثل الغضب أو القلق أو الكبت أو الشعور بالذنب، في هذه الحالة تعد مثل هذه الحالات أمراضاً نفسية جسمية.

[29←]

مارغريت هيغينز: صحفية أمريكية، ولدت في 3 سبتمبر 1920 في هونغ كونغ البريطانية في المملكة المتحدة، وتوفيت في 3 يناير 1966 في واشنطن العاصمة في الولايات المتحدة بسبب داء الليشمانيات.

[30←]

بالالايكا بالروسية:йка́балала، هي ألة العود الموسيقية الشعبية، وهي المعروفة عند الروس في الحياة الثقافة الروسية. وهي شبيهة بالعود

[31←]

ريدرز دايجست هي مجلة أمريكية شهرية صدر العدد الأول منها عام 1922، وصلت إصداراتها إلى 50 نسخة في 21 لغة، مما يجعلها أكبر مجلة مدفوعة تداول في العالم. صدرت الإصدارة العربية منها في سبتمبر 1943 في مصر، وألغي ترخيصها بعد ذلك. ثم أعيد نشر الإصدار العربي باسم «المختار».

[32←]

يوم الاستقلال الأمريكي، والمعروف شعبياً بالرابع من يوليو. هو عطلة فدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية بمناسبة اعتماد وثيقة إعلان الاستقلال في 4 يوليو من عام 1776، مُعلنةً استقلالها عن بريطانيا العظمى.

[33←]

جون فيليب سوزا هو عسكري وكاتب وموسيقي وملحن أمريكي، ولد في 6 نوفمبر 1854 في واشنطن العاصمة في الولايات المتحدة، وتوفي في 6 مارس 1932 في ريدينغ في الولايات المتحدة بسبب نوبة قلبية.

[34←]

جبال آديروندداك هي سلسلة جبال تقع في الجزء الشمالي الشرقي من ولاية نيويورك.

[35←]

جنس شجري يتبع الفصيلة الصنوبرية ويضم 45 ــ 55 نوعاً. ارتفاع هذه الأشجار من 10 ــ 80 متراً وقطر الجذع من 0.5 ــ 4 متر

[36←]

دوايت ديفيد أيزنهاور بالإنكليزية (Eisenhower David Dwight) (ولد 14 أكتوبر 1890 ــ توفي 28 مارس 1969)، هو سياسي وجنرال أمريكي شغل منصب الرئيس الرابع والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1953 حتى 1961. كان قائدا عاماً في جيش الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية، وقائدا أعلى لقوات الحلفاء في أوروبا. وكان أيضاً مسؤولاً عن التخطيط والإشراف على غزو شمال أفريقيا في عملية الشعلة في عام 1942 ــ 43 وغزو الحلفاء الناجح لفرنسا وألمانيا في الجبهة الغربية عامي 1944 ــ 45. في عام 1951، أصبح أول قائد أعلى لحلف الناتو.

[37←]

Lysol هو اسم تجاري لمنتجات التنظيف والتطهير التي توزعها شركة Benckiser Reckitt.

[38←]

المرسام، وهو سطح رقيق من الورق أو اللدائن أو المعدن مُفرغ منها أجزاء على شكل حروف أو تصاميم بواسطة وسيلة مدببة أو حادة وتستخدم لنسخ كتابة او رسم على سطح ما بأن توضع فوق السطح المراد الرسم عليه ثم توضع الصبغة المراد الرسم بها على ذلك السطح من خلال الأجزاء المفرغة في تلك الصحيفة

[39←]

الإجامة هي نجمة صغيرة تُستعمل لدلالات مختلفة في النصوص. وتستعمل في مجالات أخرى كالرياضيات وغيرها. أصل الكلمة إنْجامة محتولة من نجمة، ثمّ أُدغمت النون في الجيم على عادة العرب كما في كلمات أخرى مثل: إجّاصة إنجاصة وإجّار في إنجار وإجّانة في إنجانة.

[40←]

قمة جبلية ضمن سلسلة الأديروندااكس بشمال شرق نيويورك. ذكرت بالتوراة، في سفر تثنية الاشتراع، تحت لفظة قمة الفسجة Pisgah Mount

[41←]

يونغفراو هو أحد جبال سلسلة جبال الألب البرنية ويقع في كانتون برن وكانتون فاليز في سويسرا.

[42←]

من كلمات أغنية (رائع Wunderbur) لبيلا، صموئيل سبيواك Spewack Samuel and Bella

[43←]

الحيبوين هو أقدم مصطلح يشير إلى أي حيوان مجهري أو حيوان أولية.

[44←]

التقمص أو تناسخ الأرواح اعتقاد يعني رجوع الإنسان إلى الحياة في جسد إنسان آخر.

[45←]

لعبة يعقد فيها خيط حول الأصابع لتشكيل شبكة متشابكة بين يدي اللاعب، ثم تنتقل شبكة الخيوط إلى يد لاعب آخر

[46←]

دمية عرض الملابس أو مانيكان هي دمية على هيئة إنسان تُستخدم في المحلات لعرض الملابس. ظهرت لأول مرة في المحلات التجارية الكبرى عام 1860 وكانت بدون وجوه. وتطورت على يد المهندس البلجيكي عام 1869 عندما أضاف إليها وجه وشعر طبيعى وقد أحدث عرضها الإعجاب والدهشة لدى الناس

[47←]

الآزتيك هم من الشعوب الأصلية في الأمريكتين، والذين أطلقوا على أنفسهم Mexica، أو Tenochca، وبوجه أعم، إلى كل من المجموعات العرقية الناطقة بلغة ناهواتل والتي كانت تعيش في منطقة وادي المكسيك في وقت الغزو الأسبان

[48←]

شراب يتكون من رم وعصير ليمون وسكر. والاسم مأخوذ من اسم ميناء يقع في كوبا.

[49←]
كونيتيكت أو تُكتب أحياناً كُونِكتِكِت هي ولاية تقع في شمال شرق الولايات المتحدة وتقع في أقصى جنوب إقليم نيو إنجلاند. تحدها ولايات رود آيلاند من الشرق، ماساتشوستس إلى الشمال، نيويورك إلى الغرب، ومضيق لونغ آيلاند إلى الجنوب. عاصمتها هي مدينة هارتفورد، وأكبر مدنها هي مدينة بريدجبورت

[50←]
شركة انتاج ألبان أمريكية تأسست عام 1846 م

[51←]
بنزفيتامين هو دواء يُستعمل في علاج السمنة.

[52←]
مقطع من النص الاستهلالي لرواية (يقظة فينيغان).

[53←]
اسم كنيسة في دبلن.

[54←]
برنامج يستهدف الطلبة المتفوقين في الجامعات يهدف إلى تمكينهم من المشاركة بالمسابقات وكتابة البحوث لقاء حصد الجوائز والأوسمة.

[55←]
ديلان توماس شاعر من ويلز ولد عام 1914 كتب شعرا من أكثر الأشعار عاطفية وبلاغة وتحريا للمشاعر في الأدب الحديث. ومنذ نشر كتابه الأول القصائد الثماني عشرة عام 1934 عرفه النقاد شاعرا متميزا وأصيلا وقد أذهل القراء وسحرهم بما فيه من قوة لفظية وموسيقية وقدرة على استكشاف أعمق العواطف.

[56←]
الرباعيات الأربع اسم لأربع قصائد مرتبطة كتبها تي. إس. إليوت، مجموعة ومنشورة في مجموعة عام 1943. نُشرت قصائد هذه المجموعة بشكلٍ منفرد منذ 1935 وحتى 1942، وتحمل عناوين: برنت نورتون، إيست كوكر، الشظايا اليابسة، وليتل غيدنغ.

[57←]
بيوولف: هي ملحمة شعرية وطنية إنكليزية قديمة تمتاز بأسلوب المعلى. تتكون القصيدة من 3، 182 معلى، وهي أحد أهم أعمال الأدب الإنكليزي القديم. تاريخ كتابة القصيدة هو مسألة خلاف بين العلماء. يعود التعارف الوحيد المحدد للمخطوط، والذي تم إنتاجه بين 975 و1025. كان المؤلف شاعراً أنجلو سكسوني مجهول الهوية، أشار إليه العلماء باسم «شاعر بيوولف».

[58←]

قانون إعادة ضبط الجنود لعام 1944، المعروف باسم G.I. بيل، وهو قانون يوفر مجموعة من الفوائد لإعانة المحاربين المشاركين في الحرب العالمية الثانية.

[59←]

دول الشَّمال كما تُعرف باسم البلدان النوردية هو اسم يُطلق على منطقة جغرافية تمتدُّ عبر شمال أوروبا وشمال المحيط الأطلسي، وتضم دول آيسلندا والدنمارك والسويد وفنلندا والنرويج، بالإضافة إلى المناطق التي التابعة لهم وهي أولاند وغرينلاند وجزر الفارو.

[60←]

دايم هو عملة أمريكية بقيمة عشرة سنتات أو 0.1 من الدولار الأمريكي. الدايم هو أصغر العملات الأمريكية المتداولة حاليا حجما وأقلهم سمكا. تظهر صورة الرئيس فرانكلين روزفلت على وجه التصميم الحالي للعملة، بينما يظهر مشعل وفرع شجرة بلوط وغصن زيتون تغطي شعار الوحدة في التنوع على ظهرها.

[61←]

شجرة (الباغودا) اليابانية

[62←]

البطلينوس: حيوان لافقاري ينتمي إلى الرخويات، يتميز بصدفته القمعية أو المخروطية الشكل، وهو يعتبر أحد أنواع بطنيات القدم بغض النظر عن شكل صدفته.

[63←]

برشمان هو مادة مصنوعة من جلد البقر أو الحيوانات الأخرى، ويتم تصنيعها خصيصًا للكتابة عليها. هي أكثر تحملًا للاستعمال من أوراق البردي، وأكثر قابلية للطي على هيئة كتاب. قل استخدامها بعد ظهور الطباعة في أوروبا

[64←]

مركب كيميائي يستخدم في مجال الصناعة وخصوصاً صناعة الفلزات لتحسين مقاومة التآكل ولتلميع الأسطح، ولصناعة الفولاذ الغير قابل للتأكسد وللتصفيح وصناعة الألمنيوم.

[65←]

الَّذِينَ يَقْضُونَ فَصْلَ الصَّيْفِ فِي مَكَانِ الاسْتِجْمامِ الصَّيْفِيِّ، الْمَصِيفُ.

[66←]

لسِّبَاحَةُ الكَلْبِيَّةُ أوالكلب المجداف أو المجداف الكلبي هو نمط بسيط من أنماط السباحه. ويتميز هذا النمط من السباحة بأن السباحين يكونوا مستلقيين على صدورهم ويحركون اليدين والساقين بالتناوب بطريقة تذكرنا كيف يعوم الكلب والحيوانات الأخرى في حالة السباحة. فهذا يعتبر في الواقع «هرولة» في الماء، بدلا من الأرض

[67←]

رابطة المبتدئين الصغار الدولية هي شركة غير ربحية تضم 291 من المبتدئين في كندا والمكسيك والمملكة المتحدة والولايات المتحدة. تعتبر دورات المبتدئين من المنظمات النسائية التعليمية والخيرية التي تهدف إلى تحسين مجتمعاتها من خلال العمل التطوعي وبناء مهارات القيادة المدنية لأعضائها من خلال التدريب.

[68←]
العائق جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة الحوذانية. يضم حوالي 300 نوع.

[69←]
الميثودية أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقا من خلال الأنشطة التبشيرية في المستعمرات البريطانية حتى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجهة بشكل أساسي للعمال والفلاحين والعبيد، واعتمدت فيما يتعلق بمسألة الخلاص على اللاهوت الأرميني (نسبة إلى جاكوب أرمينيوس) القائل بإمكانية خلاص كل إنسان، مناقضة بذلك عقيدة الاختيار المسبق للكالفينية. تنسب الحركة الميثودية نفسها للصحوة الإنجيلية في بريطانيا في القرن الثامن عشر وتتبع أعمال جون ويزلي، الذي كان رجل دين أنجليكانيًا، ويشكل أتباعها ما يقارب سبعين مليونا في جميع أنحاء العالم.

[70←]
هللويا أو ، هليلويا عبارة عبرانية معناها «سبحوا يهوه» وهي عبارة للتسبيح والحمد للرب. وأيضاً بمعنى وكانت توضع في مطلع المزامير والأغاني أو في خاتمها. من المزامير التي وضعت العبارة في مطلعها أو خاتمتها.

[71←]
ريزونا هي ولاية في المنطقة الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة. وهي أيضا جزء من غرب الولايات المتحدة والولايات الجبلية الغربية. ترتيبها السادس من حيث المساحة والرابعة عشرة من حيث السكان بين الولايات الخمسين. عاصمتها هي مدينة فينيكس وأكبر مدينة فيها. أريزونا هي واحدة من ولايات الزوايا الأربع.

[72←]
اللوثرية مذهب البروتستانتية يرجع تأسيسه إلى مارتن لوثر والذي كان راهبا أوغسطينيا حاول في القرن السادس عشر القيام بحركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية فأدى ذلك لاصطدامه مع القيادات الكاثوليكية فانفصل عنها وأسس كنائس مستقلة ذات تنظيم وإدارة جديدة عرفت بالكنائس الإنجيلية أو البروتستانتية

[73←]
الإزميل هو أداة ذات حافة قطع على شكل مميز في نهايتها، لنحت أو قطع مادة صلبة مثل الخشب أو الحجر أو المعدن باليد

[74←]
يعتقد البعض أن كسر المرآة سيجلب سبع سنوات من الفقر والنحس والحظ السيء ويرجع أصل تلك الخرافة إلى اعتقاد الرومان بأن المرآة تحوى وتعكس روح صاحبها وكسرها دليل على فناؤه وموته، أما عن جلب 7 سنوات من الحظ السيئ فيرجع إلى اسطورة رومانية قديمة تقول بأن الروح بعد موت صاحبها تحتاج إلى سبع سنوات حتى تتشكل من جديد

[75←]
بومبادور مصطلح يشير إلى تسريحة شعر قديمة تعود إلى القرن الثامن عشر نسبة إلى الأرستقراطية مدام دي بومبادور، عشيقة الملك لويس الخامس عشر على الرغم من أن هناك اختلافات نمط بين النساء والرجال، المفهوم الأساسي لها يرفع فيها خصلات الشعر من وجه مرتد إلى الوراء ويترك عالي فوق الجبين، وأحيانا يرفع من الجانبين وكذلك الظهر.

[76←]
العلاج الوظيفي هو إحدى المهن الطبية المساندة التي تقوم على أساس التقييم ومن ثم العلاج لمهارات الحياة اليومية للأشخاص الذين يعانون من مشاكل جسدية أو عصبية أو ادراكية. وذلك من خلال تطوير قدراتهم، استعادتها كما كانت من قبل، أو الحفاظ عليها من التراجع والتدهور.

[77←]
ممثلة أمريكية.

[78←]
المعالجة بالصدمة الإنسولينية أو المعالجة بالغيبوبة الإنسولينية: كانت شكلاً من أشكال المعالجة بالطب النفسي حيث يتم حقن المرضى بجرعات كبيرة ومتكررة من الإنسولين لإنتاج حالات غيبوبة يومية على مدار عدة أسابيع. وقد طرح هذه الطريقة الطبيب النفسي البولندي الاسترالي ـ الأمريكي مانفريد ساكيل عام 1933، وتم استخدامها على نطاق واسع في عقد الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، وذلك بشكل رئيسي في علاج الفصام، قبل أن يقل الإقبال عليها ويتم استبدالها بعقاقير مضادات الذهان

[79←]
سلسلة متاجر أمريكية فاخرة؛ أسسها جوزيف ب. وليمان ج. بلومينغديل في عام 1861.

[80←]
إحدى أنواع ألعاب الورق.

[81←]
كلية فاسار هي جامعة خاصة، تأسست في 1860، في الولايات المتحدة.

[82←]
هي رقصة الفالس بسيطة ومعروفة على نطاق واسع للبيانو. كتبت في عام 1877، وهي المقطوعة الوحيدة التي نشرها الملحن البريطاني Allen Euphemia كان ألن ـ الذي كان أخوه ناشرًا للموسيقى ـ في السادسة عشرة من عمره عندما ألّفت القطعة.

[83←]
دوايت ديفيد أيزنهاور، هو سياسي وجنرال أمريكي شغل منصب الرئيس الرابع والثلاثين للولايات من عام 1953 حتى 1961. كان قائدا عاماً في جيش الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية، وقائدا أعلى لقوات الحلفاء في أوروبا.

[84←]

بابليوم هي حبوب معالجة للرضع تم تسويقها في الأصل من قبل شركة «ميد جونسون» في عام 1931. الاسم المسجل مشتق من الكلمة اللاتينية بابليوم pabulum، والتي تعني «المواد الغذائية»

[85←]

فلورنسا كريتينتون الوطنية هي مؤسسة تأسست في عام 1883 من قبل تشارلز ن. كريتينتون.تهدف إلى إصلاح البغايا والنساء اللواتي حملن من غير زواج، من خلال إنشاء مؤسسات للعيش فيها وتعلم المهارات الحياتية اللازمة.

[86←]

إشارة إلى القديس جورج قاتل التنين.

[87←]

القط تشيشير هو القط الشهير في رواية (أليس في بلاد العجائب) للويس كارول.

[88←]

آنا ماري روبرتسون موسى (7 سبتمبر 1860 ـ 13 ديسمبر 1961)، المعروفة باسم جدة موسى.في شبابها كانت تعمل مع زوجها في الفلاحه، وكان من امنياتها ان تكون رسامه مشهورة، وعندما اصبحت في 82 من عمرها قام أحد المخرجين السينمائيين بأكتشاف لوحه من لوحاتها المرسومه معلقه في جدار كوخها اعجب بها وبطريقة رسمها الغاية في الجمال وقام بعرضها في مزاد بمدينة نيويورك باعها ب ـ 150، 000 دولار، ومن هنا بدأت شهرة الجدة موسى وحاليا تتواجد لوحاتها في متحف اللوفر ب ـ باريس وببلازا في نيويورك. وتعتير مثالا رائعا في مواصلة النجاح وتحقيق الأحلام.